الذخائر والعبقريات

معجم ثقافي جامع

عبد الرحمن البرقوقي

الجزء الثاني

مكتبة الثقافة الدينية
[illegible]
[illegible]

عبد الرحمن البرقوقي

الذخائر والعبقريات

معجم ثقافي جامع

الجزء الثاني

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بور سعيد - الظاهر
القاهرة/ ت: ٩٣٦٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠

بســـم الله الرحمن الرحيم

ومنه سبحانه نستمد العون والتوفيق

فهو المسدِّد إلى سواء الطريق

« وبعد » فإنَّا نفتتحُ هذا الجزءَ الثانىَ من « الذخائر والعبقريات » بصدْ
ن عبقرياتهم فى أكثرِ المعانى التى أوردنا ما أوردنا من عبقرياتهم فيها ، فى
أبواب الجزء الأول ، وكان المُتوقَّعُ أن نَفْتَتِحَ هذا الجزءَ بسائر عبقرياتهم
فى التعازى، وفى المرض ، بَيْدَ أنّا قد استحسنَّا أن نُصَدِّرَ هذا الجزءَ الثانىَ
بطائفة من عبقرياتهم فى معانٍ شتَّى تَنْدَرِجُ فى الأبواب السابقة ، وذاك
لأمرين : أما أولهما فلأن فى هذا الصَّنيعِ مُبادَرةً باسْتِدْراكِ ما قد كان يصحُّ
إيرادُه هناك ، وأما الآخَرُ : فذلك لأنا لم نَسْتَحْسِنْ أن نَفْجَأَ المتصفح لهذا
الجزء بما عسى أن يُفْزِعَه ويَنفِرَ منه، وتنْقَبِضَ نفسُه عنه ، على أن هذه
العبقرياتِ وإن جاءت فى البَيْنِ وتَصلَت بين عبقريات الباب الثالث غير
أنها جاءت كالدُّرَّةِ الفريدة تفْصِل بين ذَهَب القِلادة ؛ إلى ما فى ذلك من
استراحة للقارئ وتنقُّل به من معانٍ قد تكثَّرنا منها إلى معانٍ أُخرى قد
يستريح إلى جِدَّتها ؛ وبعد أن نفرُغَ من هذه العبقريات نَعْطِف على عبقرياتهم
فى التعازى، وفى المرض، وقانا الله جميعاً مِحْنَته ، وخفَّفَ ــ إذا هو قُدِّر
علينا ــ وطْأَته .

عبقريات شتّى

تندرج فى الأبواب السابقة

* * *

سموّ أخلاق الخلفاء الراشدين

ومما يُؤثَر فى باب حسن الخلق ما حدَّث به العُتْبِيّ [1] فى إسناد ذكره قال: دعا طَلْحَةُ بنُ عُبَيد الله أبا بكر وعمر وعثمانَ رَحْمَةُ الله عليهم، فأبطأ الغلامُ - الخادم - عنه بشيء أراده، فقال طلحةُ: ياغلام، فقال الغلام: لَبَّيك، فقال طلحةُ: لا لبَّيك؛ فقال أبو بكر: ما يَسُرُّنى أنى قلتُها وأنّ لِيَ الدنيا وما فيها، وقال عمر: ما يسرنى أنى قلتها وأن لى نِصفَ الدنيا، وقال عثمان: ما يسرنى أنى قلتها وأن لى حُمْرَ النَّعَم [2]؛ قال العُتْبِيّ: وصَمَتَ عليها أبو محمد - هو طلحة - فلما خَرَجوا من عِنْدِه باع ضَيعَةً بخمسةَ عشَرَ ألفَ درهم، فتصدَّق بِثَمَنِها ... فهل رأيتَ أو سَمِعتَ بمثل هذا الأدب العُلْوِىّ الرَّبانىّ! وأنت إذا نظرت إلى هذا الحديث من أىّ أقطاره رأيت أدباً باسقاً وخُلقا سامياً! فهذا الصِّدِّيقُ رضى الله عنه يُنكر فى كِياسَة وأدب قَولةَ

---

(1) هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبيد الله ... بن عتبة بن أبى سفيان: شاعر أديب راوية للأخبار والأدب ... تتابعت عليه مصائب فى أولاده الذكور الستة فى الطاعون الذى كان بالبصرة سنة ٢٢٩ هـ فرثاهم بمراث كثيرة منها قوله:

كَلَّ لسانى عن وصف ما أجد ... وذقت ثُكلا ما ذاقه أحد

ما عالج الحزنَ والحرارة فى ... الأحشاء من لم يمت له ولد

وله من الأبيات السائرة:

قالت عهدتك مجنوناً فقلت لها ... إن الشباب جنون بُرؤه الكبر

(2) النعم: الإبل خاصة والعرب تقول: خير الإبل حمرها وصهبها؛ لأن الحمراء أصبر على الهواجر، والصهباء أحسن حين ينظر إليها

أبي محمد لغلامه : لا لبيك ، ثم يجيء بعده عمر فينكر هو الآخَرُ إنكارًا لاحظ فيه التأدب مع الخليفة أبي بكر ، وكذلك فعل عثمانُ مع عُمَر ، وأخيرا يكفِّر أبو محمد عن هذه البادرة بخمسةَ عشرَ ألفَ درهم ... لاجرم لقد أدبهم المصطفى صلوات الله عليه ، الذى أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبَه .

طلحة بن عبيد الله

وهذا طلحة بن عبيدالله هو الصحابى الجليل أحدُ العشرة المبشَّرين بالجنة(١) وأحدُ الثمانية الذين سَبقوا إلى الإسلام ، وأحَدُ الخمسةِ الذين أسلموا على يد أبى بكر ، وأحد الستة أصحاب الشُّورى (٢) وأحَدُ أغنياءِ الصحابة ، وأحدُ أجْواد قريش ، بل كان نبيَّ الجود ، إن كان للجود نبيٌّ ... وقد كان يقال له : طلحة الفيَّاض ، وطلحة الجود ، وطلحة الخـــير ، يقال إنه فرَّق فى يوم سبعمائة ألف ، باع أرضاً له من عثمانَ بنِ عفانَ بسبعمائة فحملها إليـه ، فبات ورُسُله تختلف بها فى سكك المدينةِ حتى أسْحَر (٣) وما عنده منها دِرْهم ! ويُروى أنه وصل أعرابيًّا من أقاربه بثمانمائة ألف درهم ؛ وكان لايَدَعُ أحدا من بنى تيْم عائِلًا إلا كفاه مُؤْنته ومُؤْنةَ عِياله وزوَّج أياماهم (٤) وأخدم عائلهم وقضى دينَ غارِمِهم ! وكان يُرسل إلى السيدة عائشة إذا جاءتْ غَلَّتُه كلَّ

(١) وقال له سيدنا رسول الله يوم أحد : إنه قد أوجب ؛ أى أتى بما أوجب له الجنة .

(٢) أى الذين عهد إليهم الفاروق رضى الله عنه أن يتشاوروا ويختاروا من بينهم خليفة بعده .

(٣) أسحر : صار فى السحر ، والسحر : ماقبل انصداع الفجر

(٤) الأيامى جمع أيم والأيم من النساء : التى لازوج لها بكراً كانت أو ثيباً ومن الرجال : الذى لا امرأة له

سنة بعشرة آلاف ... إلى آخر أنباء جوده وكرمه ؛ ولما انقضى يومُ الجمل [١] خرج عليٌّ بن أبي طالب في ليلة ذلك اليوم ومعه قَنْبَر [٢] ، وفي يده مَشْعَلة من نار يتصفَّح القتلى ، حتى وقف على طلحة فقال : أعْزِزْ عليَّ أبا محمد أن أراك مُعَفَّراً [٣] تحت نجوم السماء وفي بطون الأودية : شَفَيتُ نفسي وقتلتُ مَعْشَري ! إلى الله أشكو عُجَري وبُجَري [٤] ثم تمثّل [٥]

فتًى كانَ يُدْنيه الغِنَى من صديقه إذا ماهو اسْتغْنَى ويُبْعِدُه الفَقْرُ

فتًى لا يَعُدُّ المالَ رَبًّا ولا تُرَى به جَفْوَةٌ إن نالَ مالاً ولا كِبْرُ

فتًى كانَ يُعْطِي السيفَ في الرَّوْعِ حَقَّهُ

إذا ثَوَّبَ الداعي وتَشْقَى بِهِ الجُزْرُ [٦]

وهَوَّنَ وَجْدِي أَنَّنِي سَوْفَ أغْتَدِي على إثْرِهِ يَوْماً وإنْ نَفَّسَ العُمْرُ

« قوله فتى كان يدنيه الغنى من صديقه ... البيت : هو معنى جميل مطروق وفيه يقول إبراهيم بن العباس الصولي في محمد بن عبد الملك الزيات :

---

(١) هو تلك الوقعة التي نشبت بين علي وبين عائشة ومن معها ، وكانت عائشة تمتطي جملا فسمي ذلك اليوم يوم الجمل

(٢) هو خادم علي

(٣) معفراً : أي ملصق الوجه بالتراب ويقال للتراب : العفَر . والعفْر

(٤) أي ما ظهر من أمري وما بطن ، وأصل العجر : العروق المنعقدة في الظهر والبجر : العروق المنعقدة في البطن ، وقال الأصمعي : هو قول سائر في أمثال العرب يقال : لقي فلان فلانا فأبثه عجره وبجره

(٥) هذه الأبيات لسلمة بن يزيد بن مشجعة الجعفي أحد الصحابة يرثي أخاه لأمه

(٦) ثوب الداعي ، فالتثويب : التلويح بالثوب مع صوت فيه استغاثة وقال عمرو ابن العلاء : التثويب : الترجيع من ثاب يثوب إذا رجع يريد : إذا رجع الداعي دعاء بعد دعاء ، يصفه بإجابة الصريخ وقوله : وتشقى به الجزر ، يصفه بكرم الضيافة

أَسَدٌ ضارٍ إذا ما نَعَتَّهُ وأبٌ بَرٌّ إذا ما قَدَرَا

يَعرِف الأبعدَ إن أثرَى ولا

يَعرف الأدنى إذا ما افتقَرا

ويقول الأديب أبو بكر الخوارزمى :

رأيتُك إنْ أيسَرْتَ خَيَّمتَ عندنا لزاماً وإن أعسَرْتَ زُرْتَ لماما

فما أنت إلا البدرُ إن قلَّ ضَوْءُهُ أغَبّ وإنْ زاد الضياءُ أقاما

وقد تقدمت أبيات لعبد الله بن الزَّبير الأسدى فى هذا المعنى؛ وما أبرع أبياتاً لابن المعتز يقول فيها :

إذا ما أراد الحاسدون انْهِدَامَهُ بناهُ إلهٌ غالب العزّ قاهِرُهْ

وماذا يريد الحاسدون من امرئٍ تَزِينُهُم أخلاقُه ومآثِرُهْ

إذا ماهو استغْنَى اهتدى لافتقارِهم

ولاتهتدى يوماً إليهم مفاقِرُهْ (١)

وكانوا كِرَامٍ كوكَباً ببُصاقِهِ فَرُدّ عليهم وَبْلُه ومواطِرُهْ (٢)

حادث تلاقى فيه الكرم بالشجاعة والمروءة والحياء والنُّبل

تحدَّث رجلٌ من الأعراب قال : نزَلْتُ برَجُلٍ من طَيِّئٍ ، فنَحَرَ لى ناقةً

(١) المفاقر : وجوه الفقر ، أو جمع فقر على غير قياس كالملامح والمشابه

(٢) هذا البيت كما قال بعض العرب :

رَمَانِى بأمْرٍ كُنتُ مِنْه ووالدى بريئاً ومن جالِ الطَّوِىّ رَمَانى

« الجال والجول : الناحية ، والطوى : البئر ، يريد : رمانى بما عاد عليه » .

فأكلتُ منها ، فلما كان الغَدُ نحَرَ أُخرى فقلت : إنّ عندك من اللحم ما يُغنى ويكفى ! فقال : إنى والله لأُطعِمُ ضيفى إلا لحماً عَبيطاً ! قال : وفعل ذلك فى اليوم الثالث ، وفى كلّ ذلك آكُلُ شيئاً ويأكُلُ الطائىُّ أكلَ جماعة ، ثم نُؤتَى باللبن فأشرَبُ شيئا ويَشرَبُ عامّةَ الوَطْبِ ! فلما كان فى اليوم الثالث ارتَقَبْتُ غَفْلَته ، فاضطجع ، فلما امتلأ نوماً اسْتَقْتُ قطيعا من إبله ، فأقبَلْتُه الفَجّ ، فانْتَبه ، واخْتَصر علىَّ الطريق حتى وقف لى فى مَضيقٍ منه ، فألقمَ وتَرَه فُوقَ سَهمِه ، ثم نادَى بى : لِتَطِبْ نفسُك عنها ، قلتُ : أرِنى آيةً ، فقال : انْظُر إلى ذلك الضّبّ ، فإنى واضعٌ سهمى فى مَغْرِزِ ذنَبِه ، فرماه ، فأندَر ذنَبَه ، فقلت : زِدْنى ، فقال : انظر إلى أعلَى فقارِه ، فرماه ، فأثبت سهمه فى الموضع ، ثم قال لى : الثالثةُ والله فى كَبِدك ! فقلت : شأنَك بإبلك ! فقال : كلا ، حتى تسوقَها إلى حيث كانت ! قال : فلما انتهيتُ بها قال : فكّرْتُ فيك فلم أجِدْ لى عندك تِرَةً تُطالِبُنى بها ، وما أحسَبُ الذى حَملك على أخذِ إبلى إلا الحاجة ! قال : قلت : هو والله ذاك ، قال : فاعْمِدْ إلى عشرين من خِيارِها فخُذْها ! فقلت : إذَنْ والله لا أفعَل حتى تَسْمَعَ مَدحَك ، والله مارأيتُ رجلا أكرَمَ ضِيافةً ولا أهْدَى لسبيلٍ ولا أرْمَى كفا ولا أوسَعَ صدراً ولا أرغب جوفاً ولا أكرَم عفوًا ، منك ! قال : فاستَحْيَا فصَرفَ وجهَه عنّى ، ثم قال : انْصَرِف بالقَطيع مُباركا لك فيه ...

« قوله : عبيطا : يقال : عَبَط فلانٌ ناقته : إذا نحرها من غير داء ولا كسر وهى شابّةٌ سمينةٌ ، والعبيط أيضاً : اللحم الطرىُّ غير النضيج ، والوطب : سِقاءُ اللبن خاصة من جلد ، والفج : الطريق الواسع بين جبلين ، والجمع : فِجاج ؛ واختصر الطريق : سَلَكَ أقرَبه ، وفُوقُ السهم : مَشَقُّ رأسه حيث

يقع الوَتَر ، وقوله : فأَنْدَرَ ذَنبه : أي أسْقَطه ، وقد نَدَر الشيءُ يندُرُ ندورا : سقط أو سقط من جوف شيء أو من بين أشياء فظهر ، ومنه نوادرُ الكلام وهي ماشَذَّت وخرجَت عن جمهوره فظهرت . وقوله : ولا أرغب جوفا : من الرُغب وهو : سَعة البَطْن وكثرة الأكلِ .

حلم وأدب وسموّ خلق

رَوى المُبرِّد : أنَّ رجلا من أهل الشام قال : دخلْتُ المدينة ، فرأيْتُ رجلا راكِباً على بغْلة لم أرَ أحسنَ وجهاً ولا سَمْتاً ولا ثوباً ولا دابّةً ، منه ! فمالَ قلبي إليه ، فسألت عنه فقيل لى : هذا الحسن بنُ علىٍّ بن أبي طالب ، فامتلأ قلبي له بُغضاً [1] وحَسَدْتُ عليا أن يكون له ابنٌ مثله ! فَصِرتُ إليه [2] ، فقلت له : أأنت ابن أبي طالب ؟ فقال : أنا ابنُ ابنه ، فقلت : فبِك وبأبيك أسُبُّهما ، فلما انْقضَى كلامى قال لى : أحْسَبُكَ غريبا ! قلت : أجَلْ قال : فمِلْ بِنا فإن احتجتَ إلى منزلٍ أنزلناك ، أو إلى مالٍ آسيناك ، أو إلى حاجةٍ عاوَنّاك ، قال : فانصَرَفْتُ عنه ووالله ماعلى الأرض أحدٌ أحَبُّ إلَيّ منه ... وقال رجل لرجلٍ من قريش : إنى مَرَرْتُ بقومٍ من قريش يَشتمونك شَتما رَحِمْتُك منه ! قال القرشيّ : أفسَمِعْتنى أقول إلا خيرا ؟ قال : لا ، قال : إياهم فارحَم ... وقال ابن مسعود : إن الرجلَ ليَظلِمُنى فأرْحمُه !

وقال رجل للشعبيّ كلاما أقْذَعَ له فيه ، فقال له الشَّعبيُّ : إن كنتَ صادقاً فغفر الله لى ، وإن كنتَ كاذباً فغفر الله لك ... ويُرْوَى أنه أتَى مَسْجدا ، فصادفَ فيه قوما يغتابُونَه ، فأخذ بعِضَادَتى الباب ثم تمثل بقول كُثَيِّر عَزّة :

---

(١) لأن الرجل من أشياع معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه (٢) توجهت إليه

هَنيئًا مَرِيئًا غيرَ داءٍ مُخامِرٍ لِعَزّةَ من أعراضِنا مااستحلتِ

وقال محمود الورّاق :

إنى شَكَرْتُ لِظالِمِى ظُلمِى وغَفَرْتُ ذاكَ له على عِلْمِى

ورأيتُه أسدَى إلىَّ يدًا لَمَّا أبانَ بجهْلِه حِلمِى

رَجَعَتْ إساءَتُهُ عليه وإحْسانى فعادَ مُضاعَفَ الجُرْمِ

وغَدَوْتُ ذا أجْرٍ ومَحْمَدَةٍ وغَدا بكَسْبِ الظُلمِ والإثْمِ

فكأنما الإحسانُ كانَ له وأنا المُسِيءُ إليه فى الحُكمِ

مازالَ يَظْلِمُنِى وأرْحَمُه حتى بَكَيْتُ له من الظُلمِ

خير مايرزقه العبد

قال بعض الملوك لبعض وُزرائه ــ وأراد مِحْنَته ــ : ماخيرُ ما يُرزَقُهُ العَبد ؟ قال : عقلٌ يعيش به ، قال : فإن عَدِمَه ؟ قال : فأدبٌ يتحلّى به ، قال : فإن عَدِمَه ؟ قال : فمالٌ يسْتُره ، قال : فإن عدِمَه ؟ قال : فصاعِقةٌ تُريحُ منه العِبادَ والبلاد ...

لاتزال العرب عربا
ماحافظت على زيها

كان الأحنف بن قيس يقول : لاتزال العربُ عرَباً مالَبِسَت العمائم ، وتَقَلَّدَتِ السيوف ، ولم تَعُدَّ الحِلمَ ذُلا ، ولا التَّواهُبَ فيما بينها ضَعة ... « قوله : مالَبِسَت العمائم ، يريد : ماحافظتْ على زِيِّها ، وقوله : وتقلدت السيوف ، يريد : الامتناع من الضّيم ، وقوله : ولم تَعُدِ الحِلمَ ذُلا ، يقول : ماعَرَفت مَوضع الحلم ، وذلك أن الرجل إذا أغْضَى للسلطان ، أو أغضى

عن الجواب وهو مأسورٌ لم يُقَلْ: حَلُمَ ، وإنما يقال : حَلُمَ ، إذا تَرَكَ أن يقول الشيء لصاحبه مُنتصرا ولا يخاف عاقِبةً يَكرَهُها . فهذا الحِلْمُ المحض ، فإذا لم يفْعَلْ ذلك ورأى أنَّ تَرْكَهُ الحِلمَ ذُلٌّ فهو خطأٌ وسَفَهٌ ؛ وقوله : ولم تَرَ النواهُبَ بينها ضَعَةٌ ، نحوٌ من هذا ، وهو : أنْ يَهَبَ الرجل من حقّه مالا يُسْتَكْرَه عليه ... وكان يقال : أحْيُوا المعروف بإماتته ، ومعنى ذلك : أن الرجل إذا امْتَنَّ بمعروفه كَدَّرَه ؛ وقيل : المِنَّةُ تَهْدِم الصنيعة ، وقد قال قيسُ بن عاصِمٍ المِنْقَرِى : يا بَنى تميم ، اصْحَبُوا مَن يذكُرُ إحسانَكم إليه ويَنْسَى أياديَه إليكم ... »

توقير العالم والشريف والكبير

والترفع عن الوضيع

كان زياد بن أبيه يقول : أُوصيكم بثلاثة : بالعالِم ، والشريف - يعنى العظيم القدر - والشيخ - يريد : الذى تقدمت به السن - فوالله لاأُوتَى بوضيع سَبَّ شريفا ، أو شابٍّ وَثَبَ بشيخ ، أو جاهلٍ امْتَهَنَ عالما ، إلا عاقبتُ وبالغتُ ... وقال عُمارَة بن عقيل بن بلال بن جرير لبنى أسد ابن خزيمة :

يا أيها السائلى عمدًا لِأُخْبِرَه ... بذاتِ نفسى وأيْدى الله فوقَ يدى
إنْ تَسْتَقِمْ أسَدٌ تَرْشَدْ وإنْ شَغَبَتْ ... فلا يَلُمْ لائمٌ إلا بنى أسد
إنى رأيتكمُ يُعْصَى كبيرُكم ... وتَكْنَعون إلى ذى الفَجْرَةِ النَّكِدِ [1]

(١) تكنعون : تخضعون ، من كنع يكنع - بالفتح فيهما - كنوعا : خضع ، والفجرة اسم لكل قبيح ، من فجر الرجل يفجر فجرا وفجورا : انبعث فى المعاصى ، والنكد : اللئيم ، من النكد - بالتحريك - وهو الشؤم واللؤم

فباعد الله كلَّ البُعد داركمُ ولا شفاكم من الأضغانِ والحسَدِ

فرأى عِصيانَهم الكبيرَ من أقبح العيب وأدلّه على ضِغْنِ بعضهم لبعض وحسَدِ بعضهم بعضا ، والوضيع ينقلب إلى الشريف لأنه يرى مُقاولته فخرا ، والاجتراءَ عليه رِبحا ، كما أن مقاولةَ الشريف للئيم ذُل وضعة قال الشاعر :

إذا أنت قاولْتَ اللئيمَ فإنما يكونُ عليك العَتْبُ حين تُقاولُهْ

ولستَ كمن يَرضى بما غيرُهُ الرضا ويمسَحُ رأسَ الذئب والذئب آكله

قال المبرد : وفى هذا الشعر بيتان يقدّمان فى باب الفتك ـ وفى باب العزم والشجاعة والإقدام ـ وهما :

فلا تَقرِنَنْ أمرَ الصريمةِ بامْرِئ إذا رامَ أمْرًا عَوَّقَتْه عواذِلُهْ (١)

وقُلْ للفُؤادِ إنْ نَزابكَ نَزْوَةٌ من الرَّوْع: أفرِخْ أكثرُ الرَّوْعِ باطِلُهْ (٢)

قال المبرد : وقد امتنع قوم من الجواب ـ أى من مقاولة اللئيم ـ تنبلا ـ يريد ترفعاً ـ ومَواضِعُهم تُنْبِئُ عن ذلك ـ أى أن مراكزهم تدل على أن امتناعهم ترفع ـ وامتنع قوم عِيًّا بِلا اعْتِلال ـ يريد دون أن يبدوا علّة لهذا الإعراض عن اللئام ـ وامتنع قوم عجزو واعتلّوا بكراهة السفه ، وبعضهم معتلٌّ برِفعةِ نفسه عن خَصمه ، وبعضهم كان يُسبُّه الرجل الركيكُ من العشيرة ، فيُعرِضُ ويَسُبُّ سيِّدَ قومه ، وكانت الجاهليةُ ربّما فعلته فى الذُّحول

(١) فلا تقرنن : من قرن الشيء بالشيء : شده إليه ، وكذلك قرنه إليه ، والصريمة : العزيمة

(٢) إنْ نزا بك نزوة : فالنزوة : المرة من النزو وهو الوثوب إلى فوق ، يريد : إن تسلط عليه الفزع والرعب فاضطرب ، وأفرخ يريد : أفرخ روعك ، ومعناه : ليخرج عنك رعبك ويذهب فزعك كما تفرخ البيضة إذا انفلقت عن الفرخ فخرج منها وقوله : أكثر الروع باطله ، يريد : ليس الأمر على ماتحاذر

ـ جمع ذُحل وهو : الثأر ـ قال الراجز :

إنَّ بجيلا كلما هجانى ملتُ على الأغطَش أو أبانِ
أو طلحةِ الخيرِ فتى الفتيان أولاكَ قومٌ شأنهم كشانى
ما نلتُ من أعراضهم كفانى وإنْ سكتُّ عرفوا إحسانى

وقال أحد المحدَّثين :

إنى إذا هرَّ كلبُ الحىِّ قلتُ له إسلَمْ وربُّك مخنوقٌ على الجِرَر (١)

وفى مثل اختيار النبيل لتتكافأ الأعراض قولُ الأخطل :

شفَى النفسَ قتلَى من سُليم وعامرٍ ولم يَشفِها قتلَى غنىّ ولا جَسْرِ
ولا جُشَمٍ شرّ القبائلِ إنها كبيضِ القطا ليسوا بسُودٍ ولا حُمْرِ
ولو ببنى ذُبيانَ بُلَّتْ رماحُنا لقرَّتْ بهم عينى وباءَ بهم وِتْرى

وقال رجل من المحدّثين ـ هو حمْدان بنُ أبان اللاحقى :

أليسَ من الكبائر أنَّ وَغداً لآلِ مُعذَّلٍ يهجو سَدوسا
هجا عِرْضاً لهم غضًّا جديداً وأهدَفَ عِرْضَ والدِه اللّبيسا (٢)

وقال آخر :

اللؤمُ أكرمُ من وَبْرٍ ووالدِه واللؤمُ أكرمُ من وبْرٍ وما وَلدَا
قومٌ إذا جرَّ جانى قومهم أمِنوا من لُؤمِ أحسابهم أن يُقتلوا قَوَدا
اللؤمُ داءٌ لِوَبْرٍ يُقتلون به لا يُقتلون بداءٍ غيرِه أبدا

وقال أحد المحدّثين هو ـ دِعْبِل بن على الخزاعى ـ :

---

(١) الجرر : جمع جرّة وهى : الجذب كالجرّ والاجترار

(٢) يريد . جعله هدفا يرمى ، واللبيس : مستعار من قولهم ثوب لبيس إذا كثر لبسه فأخلق

أما الهجاءُ فَدَقَّ عِرْضُك دونه والمدحُ عنك كما علِمتَ جليلُ
فاذْهَبْ فأنتَ عتيقُ عِرْضِك إنه عِرْضٌ عَزَزْتَ به وأنتَ ذليلُ

وقال آخر :

نُبِّئْتُ كلباً هابَ رَمْيِي له يَنْبَحُني من موضِعٍ نائي [1]
لو كنتَ من شيء هجوْناك أو لو بِنْتَ للسَّامِعِ والرائي [2]
فَعَدِّ عن شتمي فإني امرُؤٌ حَلَّمني قِلَّةُ أكفائي

وقال دعبل أيضاً :

فلو أني بُليتُ بهاشِمِيٍّ خُؤُولَتُه بنو عبدِ المدَانِ
صَبَرْتُ على عَدَاوتِه ولكن تعالَيْ فانْظُرِي بِمَن ابْتلاني

ووَقَف رجلٌ عليه مُقَطَّعاتٌ على الأحنفِ بن قيس يَسُبُّه ، وكان عمرو ابن الأهتم جعلَ له ألفَ دِرْهمٍ على أنْ يُسفِّه الأحنف ، فجعل لايألُو أنْ يَسُبَّه سبًّا يُغْضِب ، والأحنفُ مُطْرِقٌ صامتٌ ، فلما رآه لا يُكلمه أقبل الرجلُ يَعَضُّ إبْهامَيه ويقول : ياسَوْأتاه ، والله مايمنعُه من جوابي إلا هَوَاني عليه ... وفَعل ذلك آخَرُ فأمسكَ عنه الأحنف ، فأكثرَ الرجلُ ، إلى أن أراد الأحنف القيامَ للغَدَاء فأقبل على الرجُل فقال : ياهذا ، إنَّ غَدَاءَنا قد حضَر فانهَضْ بنا إليه إنْ شئتَ فإنك مُذ اليوم تحْدو بجمَلٍ ثِقَال. [3]

عِبرة

قال المنصورُ لعمرو بن عُبَيد : عِظْني قال : بما رأيتُ أو بما سَمِعتُ ؟

(١) ينبحني : يريد تلحقني شتائمه على سبيل المجاز
(٢) يريد : لوأحس بك الأعمى والبصير
(٣) الثقال من الإبل : البطيء الثقيل الذى لايكاد ينبعث ...

قال : بما رأيت ، قال : مات عُمَرُ بنُ عبد العزيز وخَلَّفَ أحدَ عشرَ ابنا وبلغت تَرِكَتُهُ سبعةَ عشرَ دينارا ، كُفِّن منها بخمسة ، واشترى موضعاً لقبره بدينارين ، وأصاب كلُّ واحد من أولاده ثمانية عشر قيراطا من دينار ... ومات هشام بن عبد الملك فخلَّف أحد عشر ابنا أصاب كل واحد من أولاده ألفَ ألفِ دينار ، فرأيت رجلا من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حَمَّل فى يوم واحد على مائة فَرَسٍ فى سبيل الله ، ورأيت رجلا من أولاد هشام على قارعة الطريق يسأل الصدقة ...

لا تشكُ إلى غير الله

حدَّث بعضهم قال : سمعنى شُريحٌ القاضى وأنا أشكو بعضَ حالى إلى صديق لى ، فأخذ بيدى وقال : ياابن أخى ، إياك والشكوى إلى غير الله عز وجل ، الصديقُ تُحزنه ، والعدو تُشْمته ؛ انظر إلى عينى هذه ـ وأشار إلى إحدى عينيه ـ وقال : والله ، ما أبصرْتُ بها شخصاً ولا طريقاً منذ خمسَ عشْرةَ سنة ، وما أخبرت بها أحدا إلى هذه الغاية سواك ...

نبالة ومروءة

حدَّث العَسْجَدِىُّ قال : جاء رجل إلى أبى إسحاق الكسائىِّ ليلا فقال : ما جاء بك ؟ قال : رَكِبنى دَيْنٌ ، فقال : كم هو ؟ قال : أربعمائة درهم ، فأخرج كيساً فأعطاه ، فلما رَجَع عنه بكى ، فقال له أهله : ما يُبكيك ؟ فقال : بُكائى أنى لم أبحث عن حاله وألجأته إلى الذل ...

دعوة الله

قال أعرابي :

وإني لأُغضِي مُقْلتيّ على القذى ... وألبَس ثوبَ الصبر أبيضَ أبلجا

وإني لأدعو الله والأمر ضيقٌ ... عليَّ فما يَنفَكُّ أن يتفرَّجا

وكم من فتًى ضاقت عليه وجوهُه ... أصاب لها في دَعْوَةِ الله مَخْرجا

✡ ✡ ✡

كلمات في السؤال

قال الأصمعي : سمعت أعرابيا يقول : فَوتُ الحاجة خيرٌ من طلبها من غير أهلها ... قال : وسمعت آخر يقول : عِزُّ النزاهة أشرف من سرور العائدة قال : وسمعت آخر يقول : حَمْلُ المِنَن أثقَلُ من الصبر على العَدَم ... وفي الحديث الشريف : والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدُكم حبْله ثم يغدو إلى الجبل فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خيرٌ له من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه .

كانوا يَرَوْن أنّ الملوكَ لا يُستحَى من مَسألتهم

ولمناسبة السؤال نورد عليك ما يلي : كان لَبيد بن ربيعة الشاعر المخضرم شريفا في الجاهلية والاسلام ، وكان نَذَر أنْ لا تَهُبَّ الصَّبا [1] إلا نَحَرَ وأطعم حتى تنقَضي ، فهَبّت بالاسلام وهو بالكوفة [2] مُقْتِرٌ مُمْلِق ،

(١) الصبا : الريح التي تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار وتسمى القبول لأنها تستقبل الكعبة

(٢) يقال : إنه أقام بالكوفة في عهد عمر بن الخطاب ولم يزل بها حتى مات في آخر خلافة معاوية عن خمس وأربعين ومائة سنة ، رحمه الله

فعَلِمَ بذلك الوليدُ بن عُقْبةَ بن أبى مُعَيط ـ وكان واليَها لعثمانَ بن عفّانَ ـ وكان أخاه لأمّه ـ فخطب الناس وقال : إنّكم قد عرَفتم نَذْرَ أبى عقيل وما وكّد على نفسه ، فأعينوا أخاكم ، ثم نَزل ، فبعث إليه بمائة ناقة وأبيات يقول فيها :

أرَى الجزّارَ يشحَذُ شَفْرَتَيه إذا هَبَّتْ رِياحُ أبى عَقيلِ (١)
أشمُّ الأنفِ أصيَدُ عامِرىٌّ طويلُ الباعِ كالسّيفِ الصَّقيلِ (٢)
وَفَى ابنُ الجعفرىّ بما نواه على العِلاّتِ والمالِ القليلِ (٣)
بِنَحْرِ الكُومِ إذ سُحِبَتْ عليه ذُيولُ صَباً تجاوَبُ بالأصيلِ (٤)

فلما أتتهُ قال : جزَى الله الأميرَ خيراً ، قد عرَفَ الأمير أنى لا أقول شعراً (٥) ولكن اخرُجى يا بُنَيّتى ، فخرجت خُماسيّةٌ (٦) فقال لها : أجيبى الأمير ، فأقبلت وأدبرت ، وبعث الناسُ ، فقضى نَذْرَه ، ففى ذلك تقول ابنةُ لبيد :

إذا هَبّت رِياحُ أبى عَقيلٍ دَعَوْنا عند هَبّتها الوليدا
طويلَ الباعِ أبيضَ عَبْشَمِيًّا أعانَ على مُرُوءتِه لبيدا (٧)

---

(١) الشفرة : السكين ، والشحذ : التحديد بالمشحذ «بكسر الميم» وهو المسن
(٢) الأصيد : الذى يرفع رأسه كبرا لا يلتفت يميناً ولا شمالاً
(٣) على العلات : على كل حال أو على ما فيه من الحالات والشئون
(٤) الكوم : العظام الأسنمة واحدتها كوماء
(٥) لأنه حرّم على نفسه قول الشعر منذ أسلم
(٦) خماسية : طولها خمسة أشبار ، وكذلك غلام خماسى ولا يقال إذا بلغ ستة أشبار أو سبعة : سداسى ولا سباعى
(٧) أبيض : إذا قالت العرب : فلان أبيض فالمعنى : نقاء العرض من الدنس والعيوب لا يريدون بياض ، اللون وهذا كثير فى شعرهم . وعبشمى : من بنى عبد شمس بن عبد مناف

بأمثالِ الهِضاب ، كأنّ رَكْباً عليها من بنى حامٍ قُعودا (١)
أبا وَهْبٍ جزاكَ الله خيراً نحرْناها وأطعمنا الثّريدا
فَعُدْ إنّ الكريمَ له مَعادٌ وظنّى بابنِ أرْوَى أن يَعودا

فقال لها لبيد : أحسَنتِ يا بُنيّتى لولا أنكِ سألت ! فقالت : إن الملوك لا يُستحى من مَسألتهم ! ولو كان سُوقةً لم أفعلْ ... فقال لها : وأنتِ فى هذا أشعرُ !

مَثلٌ فى الرياء

عن وهب بن مُنبِّه قال : نَصَبَ رجلٌ من بنى إسرائيل فخًّا ، فجاءت عُصفورةٌ فنزلت عليه ، فقالت : مالى أراكَ منحنيا ؟ قال : لكثرة صلاتى انحنيت ! قالت : فمالى أراكَ باديةً عظامُك ؟ قال : لكثرة صيامى بَدَتْ عِظامى ! قالت فمالى أرَى هذا الصُّوفَ عليك ؟ قال : لِزَهادتى فى الدّنيا لبِستُ الصوف ! قالت : فما هذه العَصا عندك ؟ قال : أتوكّأُ عليها وأقضى حوائجى ، قالت : فما هذه الحبّةُ فى يدك ؟ قال : قُربانٌ إن مَرّ بى مِسكين ناوَلْتُه إياه ، قالت : فإنى مِسكينة ! قال : فخُذِيها ، فدَنَتْ فقبَضَت على الحبة ، فإذا الفَخّ فى عُنقها ، فجعلت تقول : قعى قعى ! تفسيره : لا غَرّنى ناسِكٌ مُراءٍ بعدكَ أبدا ...

---

(١) بأمثال الهضاب : جمع هضبة بسكون الضاد وهو كل جبل خلق من صخرة واحدة ! أو هى كل صخرة ضخمة ، تصف ضخامة الإبل ، وقولها : كأن ركبا الخ تصف استمتها السود ، وحام : أحد أولاد نبى الله نوح عليه السلام وهو فيما زعموا أبو السودان

الهم نصف الهرم

من كلمة لسيدنا على بن أبى طالب : والهمُّ نصف الهرَم ، وقال حكيم : الهمُّ يُشيبُ القلب ، ويُعقِم العقل ، فلا يتولد معه رأىٌ ، ولا تَصدُقُ معه رَوِيَّة ، وقال أبو تمام :

شابَ رأسِى وما رأيت مشيب الرَّأ ... سِ إلا مِن فَضلِ شَيب الفؤادِ

وكذاك القلوبُ فى كلِّ بُؤس ... ونَعيمٍ طلائعُ الأجساد

وقال أبو نواس :

وما إنْ شِبتُ من كِبَرٍ ولكن ... لَقِيتُ من الحوادِث ماأشابا

وقد تقدم قول المتنبى :

والهمُّ يَخترم الجسيمَ نحافةً ... ويُشيبُ ناصيةَ الصَّبىِّ ويُهرِمُ

مثل الدنيا وآفاتها

والخوف من نهايتها

جاء فى كتاب كليلة ودمنة : وَجَدْتُ مَثَلَ الدنيا والمغرورِ بها ، مع امتلائها بالآفاتِ ، مثَلَ رجُلٍ ألجأه خوفُ فيلٍ هائجٍ إلى بئر ، فتَدلَّى فيها وتعلق بغُصنَين نابتَين على شَفير البئر ، فوقعت رجلاهُ على شىء فى طَىِّ البئر ، فنظر فإذا بحيَّاتٍ أربَعٍ قد أطلَعنَ رُؤُسَهُن من جُحُورهِنَّ ، ونظر إلى أسفلِ البئرِ فإذا بتِنِّينٍ [1] فاغِرفاه نحوه ، مُنتَظِرٍ له ليَقع فيأخُذَه ، فرفعَ بصَره

(١) التنين : ضرب من الحيات

إلى الغُصنَين فإذا في أصلهما جُرَذان أسودُ وأبيض ، وهما يقرضان الغُصنَين دائبَين لا يفتُران ، فبينما هو في النظر لأمره والاهتمام لنفسه ، إذ أبصر قريباً منه كوارةً فيها عسلُ نحلٍ [١] ؛ فذاق العسل ؛ فشغلته حلاوته وألهته لذته عن الفكرة في شيءٍ من أمره ، وأن يلتمس الخلاص لنفسه ؛ ولم يذكر أنّ رجليه على حيّاتٍ أربعٍ لا يدري متى يقع عليهنّ ، ولم يذكر أن الجُرَذين دائبان في قطع الغُصنين ؛ ومتى انقطعا وقع على التِّنّين . فلم يزل لاهياً غافلا مشغولا بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التِّنين فهلك . فشبّهتُ بالبئر الدنيا المملوءة آفات وشروراً ، ومخافات وعاهات ، وشبّهتُ بالحيّات الأربع الأخلاط الأربعة التي في البدن : فإنها متى هاجت أو أحدها كانت كحُمَةِ [٢] الأفاعي والسُّمّ المميت ، وشبّهتُ بالغُصنين الأجلَ الذي لابدّ من انقطاعه ؛ وشبّهتُ بالجُرذين الأسودِ والأبيض الليلَ والنهارَ اللذين هما دائبانِ في إفناءِ الأجل ؛ وشبّهتُ بالتِّنّين المصيرَ الذي لابدّ منه ؛ وشبّهت بالعسل هـذه الحلاوةَ القليلةَ التي ينالُ منها الإنسانُ فيَطْعَمُ ويسمع ويَشَمّ ويَلمِس ، ويتشاغل عن نفسه ، ويلهو عن شأنه ، ويُصَدُّ عن سبيل قصده ...

عمرو بن العاص يصف حاله في احتضاره

قال عبد الله بن عبّاس : دخلتُ على عمرو بن العاص وقـد احتُضِر ، فدخل عليه ابنُه عبد الله فقال له : ياعبدَ الله ، خُذ ذلك الصندوق ، فقال : لاحاجة لي فيه ، قال : إنه مملوءٌ مالا ، قال : لاحاجة لي به ، فقال عمرو :

(١) الكوارة : خلية النحل

(٢) الحمة : ابرة النحلة ونحوها

لَيْتَه مملوءٌ تِبْرا ! قال ابن عباس : فقلت : ياأبا عبد الله ، إنك كنت تقول : أشتهى أنْ أرى عاقلا يموتُ حتى أسأله : كيف يجد ، فكيف تجدُكَ ؟ قال : أجدُ السماء كأنها مُطْبَقَة على الأرض وأنا بينهما ، وأرانى كأنما أتنفَّس من خَرْتِ إبْرة ! ثم قال : اللهم ، خُذْ مِنى حتى تَرْضَى ، ثم رفَعَ يديه فقال : اللهم ، أمَرْتَ فعصَينا ، ونَهيَت فرَكِبنا ، فلا برىءٌ فأعتذر ولا قوىٌّ فأنتصر ولكن لاإله إلا الله ـ ثلاثاً ـ ثمَّ فاظَ ... » قوله : مِن خَرْتِ إبرة يعنى : مِن ثَقْبِ إبرة ، وقوله : فاظ : أى مات »

ماذا قال عبدالله بن الزبير

حين أتاه خبر مقتل أخيه المُصعَب (١)

لمّـا أتى عبدَ الله بنَ الزُبير خبرُ قَتـل المصعب بن الزبير خطبَ الناسَ فحمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال : إنه أتانا خبرُ قتلِ المُصعَب فسررْنا به واكتأبْنا له ، فأما السرورُ : فلِمَا قُدِّر له من الشهادة وحِيز له من الثواب ، وأما الكآبةُ فلَوْعةٌ يجدُها الحميمُ عند فِراق حميمِه ، وإنّا والله مانمُوت حَبَجاً كَميتة آل أبى العاصِى ، إنما نموت والله قتلا بالرِّماح وقَعْصاً تحتَ ظِلال السيوف ، فإن يَهلِك المُصعبُ فإنّ فى آلِ الزبير منه خَلَفاً ... » الحبج : أن يأكلَ البعيرُ لِحاء العَرْفَج فيتكبَّبُ فى بَطنِه ويضيق مَبْعَرُه عنه فلا يخرُجُ من جوفه فيَهلِك ، يُعرِّض ببنى مروان ويَنْعَى عليهم كثرة أكلهم وإسرافَهم فى مَلاذّ الشهوات وأنهم يموتون بالتُخَمة . واللّوعة : الحرقة ، والقعص : القتل المعجل وقد قعصه : إذا ضربه أو رماه فمات مَكانَه ، وأقعصه كذلك والمقعص : المقتول »

(١) عبد الله بن الزبير بن العوام هو خليفة الحجاز ومصعب أخوه

إذا ضيقت شيئا ضاق جدا

ومما يؤثر فى باب الصبر قول الشاعر:

إذا ضَيَّقْتَ شيئاً ضاقَ جدًّا وإنْ هوَّنْتَ ما قد عَزَّ هانا
فلا تَهلِكْ لشيء فاتَ يأسا فكَمْ أمرٍ تَصَعَّبَ ثمَّ لانا
سأصبِرُ عن رفيقٍ إنْ جَفانى على كلِّ الأذى إلا الهوانا
فإنَّ المرءَ يَجْزَعُ فى خلاءٍ وإنْ حضرَ الجماعةَ أن يُهانا

« يأسا مردود إلى قوله تهلك يقول: لاتهلك يأساً. وقوله: فإن المرء... ألبيت يقول: إن المرء يجزع أن يهان كان وحده أو فى جماعة »

لا تلهفنّ على مافاتك

ونورد هنا هذا المثل البديع وإن كانت شهرته قد كادت تبتذله ... رَوَى الشَّعْبِيُّ: أنَّ رجلا من بنى إسرائيلَ صادَ قُبَّرَة، فقالت: ما تُريد أن تَصْنَعَ بى؟ قال: أذبحُكِ فآكُلُكِ! قالت: والله ما أشْفِى من قَرَم ولا أُغْنِى من من جوع، أُعلِّمُكَ ثلاثَ خصال هى خيرلك من أكلى: أما الواحدةُ فأُعلِّمُكَها وأنا فى يدك، والثانية إذا صرتُ على هذه الشجرة، والثالثة إذا صرتُ على الجبل، فقال: هاتِ! قالت: لا تَلْهَفَنَّ على ما فاتك، فخَلَّى عنها، فلما صارت فوقَ الشجرة قال: هاتِ الثانية، قالت: لا تُصدِّق بما لا يكون أنه يكون، ثم طارت فصارت على الجبل، فقالت: ياشَقِىُّ! لو ذبحْتَنى لأخرجتَ من حَوْصلتى دُرَّةً فيها زنةُ عشرين مثقالا! قال: فعَضَّ على شَفَتيْه وتَلَهَّفَ؛ ثم قال: هاتِ الثالثة، قالت له: أنت قد نسيتَ الاثنتينِ، فكيف أُعلِّمُكَ الثالثة! ألمْ أقُلْ لك لا تَلْهَفَنَّ على مافاتك؟ فقد تلهَّفتَ علىَّ إذ فُتُّكَ، وقلتُ لك لا تُصدِّقَنَّ بما

لا يكون أنه يكون ! فصدَّقت ! أنا وعَظْمِي وريشي لاأزِنُ عشرين مثقالا ، فكيف يكون في حَوْصَلَتِي مايزنها !

ومن قولهم في الحث على التعزى

ومما قيل في الحث على الصبر والتعزى قولُ صالح بن عبد القدوس [١]

إن يكنْ ماأُصِبْتُ به جليلا   فذهابُ العَزاءِ فيــه أَجَلُّ

كلُّ آت لاشكَّ آتٍ وذو الجَهْـ   ـلِ مُعَنى والغَمُّ والحزْنُ فَضْلُ [٢]

وقال عبــدُ الله بن محمد بن أبي عُيَيْنة بن المهلّب بن أبي صُفرة لطاهر ابن الحسين : [٣]

لَمَّا رأيتُكَ قاعِدًا مُسْتقْبِلا   أيقَنْتُ أنَّكِ للهمومِ قَرينُ

فارْفُضْ بها وتَعَزَّ من أثوابها   إن كان عندك للقضاءِ يقينُ [٤]

ما لا يكون فلا يكونُ بحِيلةٍ   أبدًا وما هو كائنٌ سيكونُ

يَسْعَى الذَّكِيُّ فلا ينالُ بِسَعْيِه   حَظًّا ويَحْظَى عاجِزٌ ومَهِينُ

وكان ابن شبْرُمَة [٥] إذا نَزَلَتْ به نازِلة يقول : سحابةٌ ثمّ تَتَقَشَّع [٦] وكان

---

(١) كان متهماً بالزندقة ومن ثم قتله المهدى الخليفة العباسى إذ ضربه بالسيف فقده نصفين وعلقه ببغداد

(٢) فضل يريد : زيادة ، أى لايليق بالعاقل ، إذ لاجدوى من ورائه

(٣) أكبر أعوان المأمون بن الرشيد على أخيه الأمين

(٤) فارفض بها : من رفض الشيء يرفضه (بالكسر والضم) رفضا : تركه ، والباء زائدة

(٥) هو عبد الله بن شبرمة بن الطفيل بن المنذر من بنى سعد بن ضبة بن أد ، ولى القضاء لطارق بن زياد خليفة خالد بن عبد الله القسرى لما أقام بواسط

(٦) تنقشع : تنجلى

يقال : أربعٌ من كنوزِ الجنة : كِتْمانُ المصيبةِ ، وكِتمانُ الصدقة ، وكتمانُ الفاقة ، وكِتمان الوَجع ...

لكل غد طعام

قال أوس بن حَجَر :

ولستُ بخابئٍ أبداً طعامًا حِذارَ غَدٍ لكلِّ غدٍ طعامُ

وقَبْل هذا البيت :

وليس بطارقِ الجيرانِ منِّى ذُبابٌ لا يُنيم ولا يَنامُ (١)

ولسْتُ بأَطْلَسِ الثَّوبيْن يُصْبِى حليلتَه إذا هَدَأ النِّيامُ (٢)

ومن كلام سيدنا على : يا ابنَ آدمَ ، لاتحْمِلْ هَمَّ يومِكَ الذى لم يأتِ على يومك الذى أنت فيه ، فإنَّه إنْ يُعْلم أنه من أجَلِك يأتِ فيه رزقُكَ ، واعلم أنك لاتكْسِبُ من المالِ شيئاً فوق قُوتِكَ إلا كنتَ خازِناً لغيْرِك فيه ... والأصل المقدّم فى هذا المعنى قول سيدنا رسول الله : من كان آمِناً فى سِرْبه (٣) ، مُعافًى فى بدنِه ، عنده قوتُ يَومِه ، كان كمن حِيزت له الدنيا بحذافيرها ... وقد تقدم

(١) كنى بالذباب عن الشر والأذى

(٢) حليلته : لا يريد امرأته ولكن أراد جارته التى تحاً له فى حلته ، وكنى بأطلس الثوبين عن رميه بالقبيح من قولهم : رجل أطلس الثوب : وسخه ، والطلسة : الغبرة تميل إلى السواد

(٣) المراد بالسرب ههنا : ما للرجل من أهل وولد ومال

اللئام مُولَعون

بإيذاء الكرام

من أحسن ماقيل فى شقاء الكرام باللئام والأخيار بالأشرار قول الشاعر الطِّرِمَّاح بن حكيم ـ شاعر إسلامى ، قال بعض العلماء : لو تقدمت أيامه قليلا لفُضِّل على الفرزدق وجرير ـ انظر ترجمته فى الأغانى ـ قال :

لقد زادنى حُبا لنفسىَ أننى ... بَغيضٌ إلى كلّ امرئ غيرِ طائل

وأنى شَقِىٌّ باللئامِ ولا ترَى ... شقيا بهم إلا كريمَ الشَّمائِلِ

إذا ما رآنى قَطَّعَ الطَّرْفَ بينَهُ ... وبيْنِىَ فِعْلَ العارِفِ المتجاهِلِ

ملأْتُ عليه الأرْضَ حتى كأنَّها ... من الضيق فى عَيْنيه كِفَّةُ حابِلِ

أكُلُّ امرئٍ ألْفَى أباه مُقَصِّراً ... مُعادٍ لأهلِ المكْرُماتِ الأوائِلِ

إذا ذُكِرَتْ مَسْعاةُ والده اضطَنَى ... ولا يضْطَنِى من شَتْمِ أهلِ الفضائِلِ

« قوله : لقد زادنى ... البيت يقول : لقد زادنى أنى بغيض إلى كل رجلٍ لا فَضْلَ فيه ولا خير عنده حُبا لنفسى ، لأن التمايُزَ بينى وبينه هو الذى أدّاهُ إلى بُغْضِى ، ولو كان بيننا تشاكلٌ لما كان كذلك ، فازددْتُ بذلك حُبّا لنفسى ، لأنى لو كنت مثله لأحَبَّنِى ؛ وغير طائل قال الخليل بن أحمد : يقال للشىء الدون : هذا غيرُ طائل ... وقوله : وأنى شقى باللئام ... ألبيت يقول : وزادنى حُبا لنفسى أيضاً شِقْوتى باللئام حتى تنقَّصونى وأصْغَوْا إنائى واغتابونى ؛ ثم قال : ولا ترى أحدا يَشْقَى بهم إلا وهو كريمُ الأخلاق وقوله : إذا مارآنى ... ألبيت يقول : إذا أبصرنى آرتد طرفهُ عنى وقطع

نظره ، فِعْلَ من يعرف الشيء ويتكلّف جهله ؛ ويقال : ملأتُ عليه الأرض إذا ضيَّقتَها عليه ، أما إذا قلتَ : ملأتُ منه الأرض فمعناهُ : أنك قمتَ وقعدتَ بِذِكرِه ؛ والحابِل : ناصبُ الحِبالة وهي التي يُصادُ بها ، وكِفّةُ الحابل : حِبالَتُه التي بها يصيد ، وكل ما استدار فهو كِفّة : يقول في هذا البيت : قد ضاقت به الأرض مِن عداوتي فكأنني مَلأْتُها عليه ، ويجوز أن يكون المرادُ : أنه يخافُني في كل مسلكٍ يسلكه ... وفي معنى هذا البيت قول القائل :

كأنّ فِجاجَ الأرضِ وهْيَ عَريضةٌ
على الخائف المطْلوبِ كِفّةُ حابِلِ

وقوله : إذا ذُكِرَت ... البيت فالمسعاةُ : السّعْيُ ، وهو العملُ ، واضطنى : افتعَل من الضَّنَى ، يقال : ضَنِيَ يَضْنَى : إذا دَقَّ وصغُرَ جسمه ، ومن ثَمَّ سُمِّيَ المرض ضَنًى ، لما يُورِثُ من الهُزال ، يقول : إنه يَضْنى إذا ذُكِر صَنيعُ والدِه ، لقُبْحِه ؛ ومع هذا يَشْتُم أهلَ الفضائل ولا يَضْنَى من ذلك ، بصفه بالقِحَة » .

أبيات في الصبر والشجاعة والكرم

قال عبدالعزيز بن زرارة الكلبي ــ وقد كان في الجيش الذي بَعثه معاويةُ بن أبي سفيان لغزو بلاد الروم سنة ٤٩ هـ فاوغلوا فيها حتى بلغوا القسطنطينية ، فاقتتل المسلمون والروم قتالا شديدا ، ولم يزل عبدالعزيز هذا يتعرض للشهادة وهو يقول هذه الأبيات ، ثم حَمَل على من يليه نقتل خلقاً كثيرا وانغمس بينهم فشجَرهُ الروم برماحهم فقتلوه ؛ والأبيات :

قد عِشْتُ في الدهرِ ألواناً على طُرُقٍ   شَتّى وقاسيتُ فيها اللِّينَ والفَظَعا

كُلاً بَلَوْتُ فلا النَّعماءُ تُبطِرُنى ... ولا تخشَّعتُ مِن لأْوائِها جَزَعا
لا يَملأُ الهولُ صدرى قبلَ موقِعِه ... ولا أضيق به ذَرْعاً إذا وقعا

«على طرق يروى: على خاق، والفظع: مصدر فَظُع الأمر فظاعة: اشتد وشَنُع وجاوز المقدار، وتبطرنى: تحمِلُنى على البطر، وهو: الطغيان فى النعمة، واللأواء: الشدّة والمشقة وضيق العيش، وقوله: لا يملأ الهول ... البيت: من أحسن ما قيل فى الشجاعة» وقال الحطيئة من أبيات يَمدَح بها بعض الأجواد:

فَتًى غيرُ مِفْرَاحٍ إذا الخيرُ مَسَّهُ ... ومِن نائبات الدهرِ غيرُ جزوعِ
وذاكَ فَتًى إنْ تأتِهِ فى صَنِيعَةٍ ... إلى مالِهِ لا تأتِه بشفيعِ

«الصنيعة: اسم لكل ما تُسديه من إحسان يد وصلة معروف»

وأنشدوا: (١)

إذا اشتملَتْ على اليأس القلوبُ ... وضاق بما به الصَّدْرُ الرحيبُ
وأوطنتِ المكارهُ واطمأنت ... وأرسَتْ فى مكامِنِها الخطوبُ
ولم تر لانكشافِ الضُّرِّ وجهاً ... ولا أغنَى بحيلتِه الأريبُ
أتاك على قُنوطٍ منك غَوْثٌ ... يَمُنُّ بِهِ اللطيفُ المُسْتَجيب
وكل الحادِثاتِ وإنْ تناهت ... فمَقْرُونٌ بها الفَرَجُ القريبُ

أبيات حكيمة

وإليك أبياتاً حكيمةً لشاعر جاهلىٍّ قديم يسمَّى: الأضبط بن قُريع بن عَوْف بن كعب بن سعد، رهط الزِّبرِقان بن بدر، وهو الذى أساءَ قومُه

(١) رواها أبو بكر بن دريد عن أبى حاتم راوية الأصمعى.

مُجَاوَرَته ، فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا مثل ذلك ، فقال : « أينما أُوَجّه أَلْقَ سعدا »[1] وقال : « بكلّ وادٍ بنو سعد » وإليك هذه الأبيات :

لِكُلِّ ضِيقٍ من الهموم سَعَهْ والمُسْىُ والصبْحُ لافلاحَ مَعَهْ
مابالُ مَن غَيُّهُ مُصِيبُك لو يملِكُ شيئاً من أمرِه وزَعَهْ
أذُودُ عن حوضِه ويَدْفَعُنِى ياقومِ مَنْ عاذِرِى من الخُدَعَهْ
حتى إذا ماانجلت عَمَايتُهُ أقبَــلَ يلْحَى وغَيُّه فَجَعَهْ
قد يَرْقَعُ الثَّوْبَ غَيْرُ لابِســهِ ويَلْبَسُ الثَّوْبَ غيرُ مَنْ رَقَعَهْ
فاقْبَــلَ من الدهرِ ما أتاكَ بِهِ مَنَّ قَرَّ عيناً بِعَيْشِه نَفَعَــهْ
وصِلْ حِبالَ البعيد إن وصلَ الحـ ـبْلَ وأقْصِ القَرِيبَ إنْ قَطَعَهْ
ولا تُهِينَ الفقيرَ علّكَ أنْ تَركَعَ يوما والدهْرُ قد رَفَعَهْ

« المسى : اسم من الإمساء ، والصبح : اسم من الإصباح ، والفلاح هنا : البقاء والعيش قال عَبيد بن الأبرص :

أفلِحْ بما شِئْتَ فقَدْ يُدْ رَكُ بالضَّعْفِ وقد يُخْدَعُ الأريبُ

يقول : لابقاء مع كر الليل والنهار . والفلاح أيضا : الفوز ومنه قولهم فى الأذان : حيّ على الفلاح ، والغى : الخيبة والحرمان قال المرقش الأكبر :

فَمَن يلقَ خيرا يَحْمَدِ الناسُ أمْرَهُ ومَنْ يَغْوَ لا يَعدَمْ على الغَيِّ لائما

وجملة : لويملك ؛ حاليّة ، ووزعه : منعه وكفه ، يقول : مابال من تتألم لخيبته وسوء حاله فإذا وجد شيئا من الخير كفه عنك ، ويروى هذا البيت على وجه آخر ، وقوله أذود عن حوضه : هو مثل للحماية ودفع المكروه عنه ، والخدعة : قوم من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم ......

(١) يريد : أفر من الأذى إلى مثله

والعماية : الشدة التى تلتبس منها الأمور ، يقال : عَمِىَ عليه الأمر : إذا التبس، وأقبل : شرع ، ويلحى : يلوم، وغيه : ضلاله ، وجهه : أصابه بمكروه وصل حبال البعيد ... البيت يعنى : تقرب إلى البعيد النسب إذا طلب قربك واهجر القريب النسب إذا هجرك ، أخذه الأعشى فقال :

ولا تُدْنِ وصْلًا من أخٍ متباعد ... ولا تَنْأَ عن ذى بِغْضَةٍ أن تَقَرّبا

فإن القريب من يُقرِّب نفسَه ... لَعَمْرُ أبيك الخيرِ لا مَنْ تنسّبا

وقوله ولا تهين الفقير الخ فالإهانة : الإيقاع فى الهون (بضم الهاء) والهوان وهما بمعنى الذل والحقارة ، وعلّ : لغة فى لعل وهى هنا بمعنى عَسَى ، والركوع : أراد به الانحطاط فى المرتبة والسقوط فى المنزلة ، ومثل هذا البيت فى المعنى قول القائل :

عسى سائلٌ ذو حاجةٍ إن مَنَعْتَه ... فى اليوم سُؤْلاً أن يكون له غدُ

وهذا البيت يستشهد به النحاة على أن نون التوكيد الخفيفة تحذف لالتقاء الساكنين والأصل تُهِينَنْ بالنون الخفيفة ، ويروى : ولا تعاد ، ويروى لا تحقرن الفقير فلا شاهد فيه ؛ وفى معنى هذا البيت أيضا يقول عبّاد بن عَبّاد بن حبيب ن المهلّب :

إذا خَلّةٌ نابَتْ صديقَكَ فاغْتَنِمْ ... مَرَمّتَها فالدهرُ بالناس قُلّبُ

وبادِرْ بمَعْرُوفٍ إذا كنتَ قادِرا ... زوالَ اقتِدارٍ أو غِنًى عنك يُعْقِبُ

« الخلة : الحاجة والفقر وفى المثل « الخَلّة تَدعو إلى السَّلّةِ » والسَّلّة : السرقة ومرمتها : إصلاح ما فسد منها ، وقلب : كثير التقلب من حال إلى حال ، وزوال : مفعول لبادر ، وعنك : متعلق بزوال ، ويعقب : صفة له ، يقول : يأتى الزوال عقب الاقتدار والغنى » ويقول تميم بن مقبل :

فأَخْلِفْ وأَتْلِفْ إنما المالُ عارَةٌ فكُلْهُ معَ الدهرِ الذى هُو آكلُهْ
فأَهْوَنُ مفقودٍ وأيسرُ هالِكٍ على الحىِّ مَن لم يبلغِ الحىَّ نائلُهْ

«فأخلف : يريد استفِدْ خَلَف ما أتلفت ، وقد أخلف فلان لنفسه : إذا ذهب له شىء فجعل مكانه آخر ، وعارة : معار ، والعارة والعاريّة : ما يتداول بين الناس » ويقول جرير :

وإنى لأَسْتَحْيِي أخِى أن أرَى له علىَّ من الحق الذى لا يَرَى لِيا

« يقول جرير : إنى لأستحيي أخى أن يكون له علىَّ فضل ولا يكون لى عليه فضل ومنى إليه مكافأة ، فأستحيي أن أرى له علىَّ حقا لما فعل إلىّ ولا أفعل إليه ما يكون لى به عليه حق ، قال المبرد : وهذا من مذاهب الكرام ومما تأخذ به أنفسها »

أبيات من لم يروها فلا مروءة له

وهذه أبيات كانوا يقولون : إنه مَن لم يرْوِها فلا مُروءةَ له . وهى لشاعر يسمى أيْمَنَ بن خُرَيم بن فاتِك الأسدى ، شاعر شريف فارس ، وكان يتشيع ، وأبوه خريم له صحبة ، وهو ممن اعتزل الجمل وصفّين وما بعدهما من الأحداث ، وقيل : إن هذه الأبيات للأُقَيْشر ، وهو شاعر إسلامى ، قال :

وصَهْباءَ جُرْجانيّةٍ لم يَطُفْ بها حَنيفٌ ولم تَنْغَرْ بها ساعةً قِدْرُ
ولم يَحْضُرِ القَسُّ المُهَيْمِنُ نارَها طُرُوقاً ولم يَشْهَدْ على طَبْخِها حَبْرُ
أتانى بها يَحْيَى وقد نِمتُ نَوْمةً وقد غابت الشِّعْرَى وقد طلَعَ النَّسْرُ
فقلتُ : اَغْتَبِقْها أو لغيْرِىَ فاسْقِها فما أنا بعْدَ الشَّيْبِ وَيْبَكَ والخمْرُ
تعفّفْتُ عنها فى العُصور التى خَلَتْ فكيف التّصابى بعْدَ ما كلأَ العُمْرُ
إذا المرْءُ وَفّى الأربعينَ ولم يكنْ له دونَ ما يأتى حياءٌ ولا سِتْرُ

فدَعْه ولا تَنْفَسْ عليه الذى ارتأى وإنْ جَرّ أسبابَ الحياةِ له الدَّهْرُ

« الصهباء : الخمر، سميت بذلك للونها ـ والصُّهبةُ من الألوان : الشقرة ـ قيل : الصهباء هى الخمر التى عُصِرَتْ من عِنَبٍ أبيضَ ، وقيل : هى التى تكون من العنب ومن غيره إذا ضَرَبَتْ إلى البياض ، وقال أبو حنيفة الدِّينَوَرِى : الصهباء اسم للخمر كالعَلَم . وجرجانية : نسبة الى جرجان ، وكانت مشهورة بنوع من الخمر والحنيف : المسلم ، ونغرت القدر : غَلت ، والمهينم : الذى يقرأ بصوت خفى غير بيّن لا يفهم ، والطروق : الحضور ليلا ، والحبر واحد الأحبار : رئيس من رؤساء الدين المسيحى ، ورئيس الكهنة عند اليهود ، وقوله : وقد غابت الشعرى ... قال البكرى شارح الأمالى : هذه الرواية الصحيحة ، أما رواية : وقد غابت الشعرى وقد جَنَح النسر ، فهى خطأ ، قال : لأن الشعرى العَبور اذا كانت فى أفق المغرب كان النسر الواقع طالعاً من أفق المشرق على نحو سبع درجات ، وكان النسر الطائر لم يَطلُع ، وإذا كانت الشعرَى الغُميصاء فى أفق المغرب كان النسر الواقع حينئذ غير مُكبِّد ـ كبَّد النجم السماء : توسطها ـ فكيف أن يكون جانحاً ؟ وكان النسر الطائر حينئذ فى أفق المشرق طالعاً على نحو سبع درجات أيضاً قال الشاعر :

وإنى وعبدَ الله بعد اجتماعِنا لكالنسر والشعرَى بشرق ومغرب

يلوح ـ إذا غابت من الشرق ـ شخصُه وإن تَلُح الشعرَى له يتغيَّبُ

وقال أبو نواس :

وخَمّارَةٍ نَبَّهْتُها بعد هَجْعةٍ وقد لاحتِ الجوزاءُ وانْغَمَسَ النَّسْرُ

فقالت : مَنِ الطُّرّاق ؟ قلت : عصابةٌ خِفافُ الأداوَى يُبْتَغَى لهم الخمرُ

والشِّعرَى سابقةٌ فى الطلوع للجوزاء ولذلك سميت كلبَ الجبار ، والجبار

اسم للجوزاء... والاغتباق : شُرْب العشيّ ، وويبك : ويلك ، وكلأ : انتهى إلى آخره وأقصاه ، ويقال : بلغ الله بك أكلأ العمر : أى آخره ، ولا تنفس : لاتحسد ، وارتأى : افتعل من الرأى . وفى هذا المعنى يقول الأعور الشَّنِّى :

إذا ما المرءُ ـ قَصَّرَ ثم مَرَّتْ عليه الأربعونَ ـ من الرجال
ولم يلحَق بصالحِهم فدَعْه فليس بلاحِقٍ أُخْرَى الليالى

حِكم ومواعظ

قال عبد الله بن عباس : كتَب إلىّ على بن أبى طالب رضى الله عنه بموعظة ماسُرِرْتُ بموعظةٍ سُرورى بها ! أما بعد ، فإن المْرءَ يسُرّه دَرْكُ مالم يكنْ لِيَفُوتَه ، ويَسوءُه فَوتُ مالم يكن ليُدْرِكَه ، فما نالَكَ من دُنياك فلا تُكثِرْ به فرَحا ، وما فاتك منها فلا تُتْبِعْه أسفا ، فليكن سرورُك بما قدَّمت ، وأسَفُك على ماخلفت ، وهمُّك فيما بعد الموت ... « يقول علىّ : إن كلّ شىء يُصيب الإنسانَ فى الدنيا مِن نَفْع وضَرّ فبقضاء من الله تعالى وقدَرِه ، غير أنّ الناسَ لاينظُرون حقّ النظر فى ذلك ، فيُسَرّ الواحد منهم بما يُصيبُه من النفع ، ويُساءُ بفَوت مايفوتُه منه ، غير عالم بأنّ ذلك النَّفع الذى أصابه كان لابُدّ أن يُصيبَه ، وأن مافاتَه منه كان لابُدّ أن يفُوتَه ؛ ولو عَرَفَ ذلك حق المعرفة لم يَفرَح ولم يَحزَنْ ، وإنما الأخلق بالعاقل أن يأسف على مافاته ويُسَرَّ بما قدّمه ، من الخير والعمل الصالح الذى يُجدى عليه فى العالم الباقى ـ الآخرة »

ومن كلمة للحسن البَصرىّ : تَلقَى أحدَهم أبيض بضًّا يمْلَخ فى الباطل مَلْخا ، ينفُض مِذرَوَيْه ، ويَضرِبُ أصدَرَيْه ، يقول : هاأناذا فاعرِفونى ! قد عَرَفناك فمقَتَك الله ومَقتَك الصالحون ... « قوله : أبيض بضا

فالبضّ : الرقيقُ اللّون الصافِيه الذى يُؤثّر فيه كلُّ شىء ، ويَروُون : أن مُعاوية بنَ سُفيانَ قَدِمَ على عُمَر بن الخطاب رضى الله عنه من الشام وهو أَبَضُّ الناس - أرقُّهم لونا وأحسنهم بَشَرَة - فضرَب عمر بيده على عَضُدِه ، وقال : هذا ، والله ، لِتَشاغُلِكَ بالحمّامات وذوو الحاجات تُقَطَّعُ أنفُسُهم حسراتٍ على بابك... وقوله : يملخ فى الباطل ملخا : أى يَكثُر تردُّده فى الباطل ، أو يمُرُّ فيه مَرّا سَهْلا ، وقوله : يَنفُضُ مذرويه ويضرب أصدريه فينفض ويضرب : يحرك ، ومذرواه : جانباه ، وقيل : فرعا الأَلْيتين ، وقيل : طرفا كل شىء ، وأراد الحسن : فرعى المَنْكِبَيْنِ ، ولا واحد لهما ، وهو الصحيح ، والأصدران : عِرْقانِ يضربان تحت الصُدْغين ، لا يفرد لهما واحد كذلك ، ويريد الحسن : منكبيه أيضا ، والعرب تقول : جاء فلان يضرب أصدريه وينفض مذرَويه يريدون : جاء مختالا ، وقد يريدون : جاء باغيا يتهدد كما قال عنترة :

أَحَوْلِى تَنفُضُ اسْتُكَ مِذْرَوَيها لِتَقْتُلَنِى فها أنا ذا عُمارا

« عمارا يريد : ياعُمارة »

وقال بعضُهم : شَهِدتُ الحسنَ البَصْرىَّ فى جَنازةِ أبى رَجاء العُطارِدىِّ وهو على بَغْلةٍ والفرزدق يُسايرُه على نجيبٍ ، وكنتُ على حِمارٍ لى ، فدَنَوْتُ منهما ، فسمعت الفرزدق يقول للحسن : ياأبا سعيد ، أتَدْرى مايقولُ أهْل الجنازة؟ قال : وما يقولون ؟ قال : يقولون : هذا خيرُ شيخ بالبَصْرَة ، وهذا شرُّ شيخ بالبَصْرَة ، قال : إذَنْ يَكذِبوا ياأبا فِراس ، رُبَّ شيخ بالبصرة مُشْرِكٍ بالله ، فذلك شرٌّ من أبى فِراس ، ورُبَّ شيخ بالبصرة ذى طِمْرَين لا يُؤْبَهُ

له لو أقسم على الله لأبرّه [1] ، فذلك خير من الحسن يا أبا فراس ...
ولهذا الحديث تتمة ولكنا نجتزأ بهذا الشطر منه لتكون المعانى متصلة بعضها ببعض .

ونختتم هذا المعنى بأبيات مشهورة ولكنها لاتزال جديدة لأنها بعيدة الغور موفية على الغاية فى الصدق والسداد ، وهى أبيات اختارها أبو تمام فى حماسته ونسبها لعباس بن مرداس الصحابى الشاعر ، وقال أبو رياش : إنها لمعاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب معوّد الحكماء [2] وهذه هى الأبيات كما رواها أبو علىّ القالى فى الأمالى :

ترى الرجلَ النحيفَ فتزدريه ... وفى أثوابه أسدٌ هصورُ [3]
ويعجبك الطريرُ فتبتليه ... فيخلفُ ظنَّك الرجل الطرير [4]
بغاثُ الطير أطولها رقاباً ... ولم تطل البزاةُ ولا الصقورُ [5]

---

(١) الطمر : الثوب الخلق البالى . وهذه كلمة الحسن من الحديث : ربّ ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ، يقول : رب ذى خلقين أطاع الله حتى لو سأل الله تعالى أجابه

(٢) سمى معود الحكماء بقوله :

سأعقلها وتحملها غنىٌّ ... وأورثُ مجدها أبدا كلابا
أعوّد مثلها الحكماء بعدى ... إذا ما معضلُ الحدثان نابا

(٣) هصور يروى : مزير ، والهصور : الأسد الشديد الذى يفترس ويكسر والمزير : الشديد القلب القوىّ النافذ ومن معانيه : العاقل الحازم

(٤) الطرير : ذو الرواء والمنظر والجمال والهيئة الحسنة

(٥) البغاث بفتح الباء وضمها : كل طائر ليس من جوارح الطير ، أى لا يصيد ، ويضرب بها المثل فى اللؤم والشر ، وفى الضعف ، قالوا « إن البغاث بأرضنا يستنسر » يضرب مثلا للئيم يرتفع أمره

خَشاشُ الطيرِ أكثرها فِراخًا وأُمُّ الصقرِ مِقلاتٌ نَزورُ (١)
ضِعافُ الأُسْدِ أكثرُها زئيرا وأصرمُها اللَّــواتى لا تزيرُ
وقد عَظُمَ البعيرُ بغير لُبٍّ فلم يَستغْنِ بالعِظَمِ البعيرُ
يُنَوَّخُ ثم يُضرَبُ بالهراوَى فلا عُرْفٌ لديهِ ولا نَكيرُ (٢)
يُقَوِّده الصبىُّ بكلِّ أرضٍ ويَنْحَرهُ على التُّربِ الصغيرُ
فما عِظَمُ الرِّجالِ لهم بزَيْنٍ ولكن زَيْنُهُم كرَمٌ وخِيرُ (٣)

فى الموت

قال المتنبى فى الموت :

وما الموتُ إلا سارِقٌ دَقَّ شخصُه يَصُولُ بلا كَفٍّ ويَسْعَى بلا رِجْلِ

ومن غريب ماقيل فى مَدْحِ الموت قولُ ابن الرومىّ :

قد قلتُ إذ مَدَحوا الحياةَ فأكثروا للموت ألْفُ فضيلةٍ لا تعرفُ
فيها أمانُ لِقائه بلِقائه وفِراقُ كلِّ مُعاشِرٍ لا يُنصِفُ

أقول : لعل ابن الرومى يريد أن يقول : إنّ للموت مزايا لاتحصى ، وقلّ من يعرفها ، ولو لم يكن فيها إلا أننا بلقاء الموت نظفر بلقاء المَرْثِىّ ـ وناهيك بفضائله ـ وبفراق غيره من المعاشرين القليلى الإنصاف لكان فى ذلك الفضل كله للموت ، وقال المتنبى :

(١) خشاش الطير : شرارها ومالا يصيد منها ، كالبغاث ، والمقلات : التى تلد واحداً ثم لاتلد بعد ذلك وقيل : التى لايعيش لها ولد ، والقلت : الهلاك تقول أقلتت المرأة : إذا هلك ولدها ، والنزور : القليلة الأولاد

(٢) ينوخ : يبرك ، نوخ الجمل وأناخه : فاستناخ : أبركه فبرك

(٣) الخير: الكرم ، وهو أيضاً : الشرف

وقد فارَقَ الناسُ الأحبّةَ قبلنا وأعيا دواءُ الموت كلَّ طبيب

سُبِقْنا إلى الدُّنيا فلو عاش أهلها مُنِعْنا بها من جَيْئةٍ وذُهوب

تملَّكَها الآتى تملُّكَ سالِبٍ وفارَقَها الماضِى فِراق سليب

ولا فَضْلَ فيها للشجاعةِ والنَّدَى وصَبْرِ الفَتى لولا لِقاءُ شَعُوب

« يقول فى البيت الرابع : لولا الموت لمَا كان لهذه المعانى فَضْل ، وذلك أن الناسَ لو أَمِنُوا الموت لما كان للشُجاع فضل على الجَبَان ، لأنه قد أيقن بالخلود ، وكذلك لو أمنوا الموت لاستوى الكريم والبخيل والصابر والجازع ، وكذلك كلُّ الأشياء » وقال أيضاً :

إلْفُ هذا الهواءِ أوْقَعَ فى الأنفُـ ـسِ أنَّ الحِمامَ مُرُّ المَذاقِ

والأسَى قبلَ فُرقةِ الرُّوحِ عَجْزٌ والأسى لايكونُ بعدِ الفِراق

قال أبو العلاء المَعَرِّى : إن هذين البيتين يَفْضُلان كُتُبَ الفلاسفَة لأنهما متناهيانِ فى الصدق وحُسْن النظام، ولولم يقُل شاعرُهما سِواهما لكان له شرفٌ منهما وجَمال ...

يقول المتنبي : إنّ خوفَ الموت من أكاذيب النفس ، ومن إلْفنا هـذا الهواء ، وإلا فقد عُلِم أن الحُزنَ على فِراقِ الرُّوح قبل فِراقه عجزٌ ، وعُلم أيضاً أن الحُزن على المفارقة لايكونُ بعد الموت ، فلماذا يحزن الإنسان ؟

طائفة من عبقرياتهم فى التعازى

ولنعطف الآن على الباب الثالث « عبقرياتهم فى الصبر والدنيا والموت والمرض » فلْنَسِرْ فيه ولنورد عليك سائر عبقرياتهم فى التعازى ثم نختم الباب بعبقرياتهم فى المرض ومايتصل به.

التسلية بعد وقوع المحذور

قالوا: كلُّ شيء يبدو صغيراً ثم يَعْظُم، إلا المصيبة، فإنها تبدو عظيمة ثم تَصْغُر واشتكى ابنٌ لِعُمَرَ بن عبد العزيز رضى الله عنه فجزِع عليه، ثم مات، فرُؤى مُتَسَلّياً، فقيل له فى ذلك؟ فقال: إنما كان جَزَعى رِقّةً له ورحمةً، فلما وقع المصابُ زال المحذور ... ومَرِض ابن لبعض السلف فجزِع، ثم مات فلم يَجزَع، فقيل له! فقال: أما بعد وقوع الأمر فلم يبق إلا الرضا والتسليم ... وقال البحترى:

صُعُوبة الرُّزْء تُلْقَى فى توقُّعِه ... مُسْتَقبَلا وانقِضاءُ الرُّزْء أن يَقعا

وقَبْله قال أوس بن حَجَر:

أيَّتُها النفسُ أجْمِلى جَزَعا ... إنّ الذى تحذَرين قد وقَعا

ومما يتصل بهذا المعنى قول أبى نواس يرثى المأمون:

وكنتُ عليه أحْذَرُ الموت وَحْدَه ... فلم يَبقَ لى شىءٌ عليه أُحاذِر

وقال بعضهم: نزلَتُ بامرأة ذاتِ أولاد وثروة، فلما أردتُ الارتحال قالت: لا تُخْلِنى إذا وَرَدْت هذا الصُقْعَ، ثم أتيتُها بعد أعوام، فوجدتُها قد افتقَرت وثَكِلَت أولادها، وهى ضاحكةٌ مسرورة، فسألتُها؟ فقالت: إنى كنتُ ذاتَ ثروة وجاه، وكانت لى أحزانٌ، فعلِمْتُ أنّ ذلك لقِلة الشكر،

وأنا اليوم بهذه الحالة أضحك شكرا لله تعالى على ماأعطانى من الصبر ...

وقيل : إذا استأثر الله بشيء فالْهَ عنه « الْهَ عنه : اتركه وتسلّ »

من دواعى التسلى قرب اللحوق بالميت

كتب بعضهم : فِيم الجزَع ونحن على مَدْرجة المُتوفَّى ! « المدرجة : الطريق والمسلك » ... دخل أحدهم على آخر وقد توفى له أخٌ فاشتدَّ جزعُه عليه ، فقال : اذكر مصيبتَك فى نفسك تُنْسِك فَقْدَ غيرك ، واذكر قول الله تعالى : إنك مَيِّت وإنهم ميّتون ، وخُذْ بقول الشاعر :

وهَوَّنَ ماأَلْقَى من الموتِ أن ما ... أصابك منــه يابُنَىَّ مُصيبى

وقال إبراهيم بن المهدى :

وإنى وإن قُدِّمْتَ قبلى لعالمٌ ... بأنى وإن أبطأتُ عنك قريبُ

وقال آخر :

وهَوَّنَ وجْدى أنى سوفَ أغتدى ... على إثْرِه يوماً وإن نَفَّس العمر

من تعازى الملوك

وتسليهم بأن الناس جميعا مُصابون

لما حَضَرَت الإسكندرَ المَقْدُونىَّ الوفاةُ كتب إلى أُمِّه : أنِ اصْنَعِى طعاما يحضُرُه الناس ، ثم تقدَّمى إليهم : أنْ لايأكل منه محزونٌ ، ففعلت ، فلم يَبْسُط أحدٌ إليه يده ، فقالت : مالكم لاتأكلون ؟ فقالوا : إنَّكِ تقدمْتِ إلينا أن لايأكلَ منه محزون ، وليس مِنَّا إلا من قد أُصيب بحميم أو قريب ! فقالت : مات - والله - ابنى ! وما أَوْصَى إلىَّ بهذا إلا ليُعَزِّيَنِى به ...

التسلى بأنه معزى لا مُعَزًّى به

قال أبو فراس الحَمدانىُّ فى أبياتٍ يُعَزِّى بها سيف الدولة بأخته :

هَيهاتَ مافى الناسِ من خالدٍ لابُدَّ من فَقْدٍ ومن فاقِدِ
كُنِ المُعَزَّى لا المعزَّى به إذْ كان لابُدَّ من الواحِدِ

وقال المتنبي من أبيات يمدح سيف الدولة ويرثى ابن عمه أبا وائل :

مَهما يُعزِّ الفَتى الأميرَ به فلا بإقدامِهِ ولا الجودِ (١)
وَمِن مُنَانا بقاؤه أبدا حتى يُعَزَّى بكلِّ مولودِ (٢)

التسلى عمن مضى بمن بقى

قيلَ لرجل ماتت امرأتُهُ نُفساءَ (٣) : عَظَّمَ اللهُ أجْرَكَ فيما أباد وبارَكَ فيما أفاد ... وقال المتنبي فى مرثية يعزى سيف الدولة بأخته الصغرى ويسلّيه بالكبرى :

قاسَمَتْكَ المَنونُ شخصَيْن جَورًا جعَلَ القسمَ نفسَه فيكَ عَدلا (٤)

---

(١) يقول : إذا عزاه معز بهذا الميت فلا عزاه بجوده ولا شجاعته ، أى لاعدمهما

(٢) يقول : أمنيتنا التى نتمناها هى بقاؤه أبداً حتى يعزى بكل من ولد ، يتقدمونه ويبقى هو فيعزى بهم

(٣) النفاس : ولادة المرأة إذا وضعت ، والوالدة نفساء

(٤) يقول : قاسمك الموت شخصين فذهب بإحداهما وترك الأخرى ، فكانت هذه المقاسمة جورا لأنه كان من حقك أن يتركهما ولكن هذا الجور عدل فيك حيث تركك حيا وكانت المقاسمة فى الأختين ، يعنى : إذا كنت أنت الباقى فالجور عدل ؛ هذا إذا نصبت القسم وجعلت الفعل للجور ، أما من رفع القسم فيكون المعنى : أن القسم جعل نفسه عدلا فى الجور لأنه وإن أخذ الصغرى فقد أبقى الكبرى

فإذا قِسْتَ ماأخذنَ بما أغْدَرْنَ سَرَّى عن الفؤادِ وَسَلَّى [(١)]

ولما ماتت الأخت الكبرى بعد ذلك رثاها فقال :

قد كان قاسَمكَ الشخصَين دَهرُهما وعاشَ دُرُّهما المَفدِىُّ بالذَّهبِ [(٢)]

وعادَ فى طلَبِ المتروكِ تارِكَهُ إنَّا لنَغفُل والأيامُ فى الطَّلَبِ

ما كانَ أقصرَ وقتا كانَ بينهما كأنه الوقتُ بينَ الوِرْدِ والقَرَبِ [(٣)]

وفى هذه المرثية الثانية هذان البيتان البديعان :

طَوَى الجزيرةَ حتى جاءنى خبَرٌ فَزِعْتُ فيه بآمالى إلى الكَذِبِ

حتى إذا لم يَدَعْ لى صِدْقُه أمَلا شَرِقتُ بالدمعِ حتى كاد يَشرَقُ بى

من تسلى بماله من الثواب

وبعض تعازيهم

دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك ـ وكان قد أصابه الطاعون ـ فقال : دَعْنى أمَسّ قَرْحَتك ، ـ وكان يقال : إذا كان القَرْحُ لَيِّنا يُرجَى ، وإن كان خَشِنا لا يُرجَى ـ فامتنع عبد الملك من أنْ يَمَسَّها ، فعَلِمَ عمر لِمَ مَنَعَه ! فقال : دَعْنى أمُسُّها ، فوالله لأنْ أُقدِّمَك فتكونَ فى ميزانى أحبُّ إلىَّ من أنْ أكون فى ميزانك ! فقال : والله ، لأن يكون ما تُريد أحبُّ إلى

(١) أغدرن : مثل غادرن أى تركن وأبقين ، وسرى : أذهب ، وسلى : عزى وهذا البيت يؤيد رواية رفع القسم

(٢) يريد بالشخصين : أختيه الكبرى والصغرى وجعل الكبرى كالدر لنفاسته وجعل الصغرى ذهبا ، وجعل الكبرى كدر فدى بالذهب

(٣) من عاده القوم أنهم يرعون الإبل وهم فى ذلك يسيرون نحو الماء فإذا بقى بينهم وبين الماء عشية فتلك الليلة ليلة القرب يقول : ما كان أقصر ما كان بينهما من الزمان فكأنه ما بين القرب الى الورد ، وهو ليلة

من أن يكون ماأُريد ! فلَمَسَها ، فقال : ياعبدَ الملك ، الحقُّ من ربِّك فلا تكونَنّ من المُمتَرين ... فقال : ستَجِدُني إن شاءَ الله من الصابرين ...

ولما مات عبد الملك عزّى أباه الحسنُ البَصرى بهذا البيت :

وعُوِّضتَ أجرا من فقيدٍ فلا يكن فقيدُك لا يأتى وأجرُكَ يَذْهَبُ

وروى : أن رجلا جزع على ابن له ، فشكى ذلك إلى الحسن ، فقال له : هل كان ابنُك يغيب عنك ؟ فقال : نعم ، كان مَغيبه عنى أكثرَ من حُضوره قال : فاتركْهُ غائبا ، فإنه لم يَغِب عنك غيبةً الأجرُ لك فيها أعظمُ مثل هذه الغيبة ... وقال أعرابى : وقد مات له ثلاثة بنين فى يوم واحد ، فدفنهم وعاد إلى مجلسه ، فجعل يتحدّث كأنْ لم يَفْقِدْ واحدا ، فلِيمَ على ذلك ، فقال : ليْسُوا فى الموتِ ببِدْع ، ولا أنا فى المصيبةِ بأوْحَد ، ولا جَدْوى للجزَع ، فعلامَ تلومُوننى !

من مات له كثير من أهله

فصبر

نظر رجل بالبَصرة إلى امرأة فقال : مارأيتُ مثلَ هذه النَضارة ! وماذاك إلا من قِلة الحزن ! فقالت : ماحُزنٌ كحُزنى ! ذَبح زوجى شاةً ، ولى صَبيّان يلعَبان ، فقال أحدُهما للآخر : تعالَ أُريك كيف ذَبَح أبى الشاة ، فذبحه ، ثم خاف فهَرَب إلى الجبل ، فرَهِقَه ذئبٌ ، فافْتَرَسه ، وخرج زوجى فى طَلَبِه ، فاشتد عليه الحرُّ فمات عَطَشا ! فقيل لها : كيف صَبَرْتِ ؟ فقالت : لو وَجَدْتُ فى الحُزنِ دَرَكا مااخْتَرْتُ عليه ... « رَهِقه : غَشِيَه ، ودَرَكا : تريد مداركة لما فات »

ومن أدعيتهم لذوى المصيبة

ومن قولهم فى الدعاء لِذَوِى المصيبة : وَهَب الله لك عُمْراً طويلا وأجرا جزيلا وصبرا جميلا ؛ لَقَّاك الله الصبر وَوَقاك ما يُحبط الأجْر . وقال رجلٌ لابنِ عمر : عَظَّمَ الله أجرك ، فقال : بل جعل الله لِيَ العافية ... « وذلك أن تعظيمَ الأجر فى تعظيم ما يؤجرُ عليه من المصيبة ، وقالوا : التعزية بعد ثلاثٍ تجديدٌ للمصيبة ، والتهنئة بعد ثلاث اسْتِخْفافٌ بالمَوَدَّةِ ...

* * *

« وبعد » فأما عبقرياتهم فى المراثى فإنَّ لها موضعا آخر فى هذا الكتاب كما أنّ عبقرياتهم فى المدح والثناء تراها فى باب قد أفردناه لها .

عبقرياتهم فى الطب والمرض وعيادة المرضى

معنى الطب

كلُّ حاذِقٍ بعمله : طبيبٌ عند العَرَب ، ورجل طَبٌّ بكذا : أى عالمٌ به ثم صار الطبيبُ اسما للعالِم بمداواةِ أبدان الناس ، وقالوا : حَدُّ الطب : معرفة الداء وتَنَقِّيه بالدواء ، أو هو : اسْتِدامةُ الصِّحة ومَرَمَّةُ السَّقَم .

وصف طبيب حاذق

قال السَّرِىُّ الرَّفّاءُ فى طبيب حاذق :

أوْضَح نَهْجَ الطِّبِّ فى مَعْشَرٍ ... مازالَ فيهم دارِسَ الرَّسْمِ [1]

كأنه مِن لُطْفِ أفكارِه ... يَجُولُ بين الدَّم واللحْمِ

(١) الرسم : الأثر ، ودرس الرسم : عفا

لو غَضِبَت رُوحٌ على جِسمِها أصْلَحَ بينَ الرُّوحِ والجِسمِ

وقال أيضاً :

يَبْدو له الداءُ الخَفِيُّ كما بدا للعَينِ رَضْراضُ الغَديرِ الصّافي [1]

الطبيب الجاهل

رأى فيلسوف طبيبا جاهلا فقال : هذا مُسْتَحِثٌّ الموت ... وقال الشاعر المعروف بالخبزأُرْزِيّ [2] فى طبيب اسمه نُعمانُ :

أقولُ لنُعمانٍ وقد ساقَ طِبُّه نُفوسا نَفيساتٍ على ساكِنِى الأرض

« أبا مُنْذِرٍ أفْنَيْت فاسْتَبْقِ بعضنا حنانَيْكَ بعضُ الشَّرِّ أهوَنُ من بعضِ »

« أقول : إن البيت الثانى لطَرَفةَ بنِ العَبْد » ضَمَّنَه الخبزأُرْزِيّ شِعره »

وقال آخر فى طبيب :

لمْ يأتِ فى الأربعا عَليلا إلا دَفنَّاهُ فى الخميسِ

وكان رجل يحْتَرِف التصوير ثم تركه وتَطَبَّب ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : الخطأ فى التصوير تُدْرِكه العيون ، وخطأ الطبيب تُوارِيه القبور ...

مدح الحِمية وذمّها

قال قائلٌ للحارثِ بن كَلَدَة ـ وكان طبيبَ العرب ـ : ما الطِّبُّ فقال : هو الأَزْم ... ومرَادُه بالأزم : الحِمْيةُ والإمساكُ عن الاستكثار من الطعام ... وقيل لجالِينُوسَ أو لأَبُقْراط : إنك تُقِلُّ من الطعام ! قال : غَرَضِى من الطعام أن آكُلَ لأَحْيا ، وغرضُ غيرى من الطعام أنْ يَحْيا

---

(١) الرضراض : مادق من الحصى

(٢) اسمه نصر وكان شاعراً أمّيا وكان يخبز خبز الأرز ، ترجم له ابن خلكان وياقوت

ليأكل ... وقالوا: لا تأكل ما تَشْتهى فيُصيرُك إلى ما لا تشتهى ... وفى الحديث: لا تُكرِهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإنّ الله يُطعِمُهم ويَسقيهم ... وقالوا: الحِمْية للصحيح ضارّة، كما أنها للعليل نافعة ... وقال الرشيد للفضل: ما أطيبُ ما فى هذه الدنيا؟ فقال: رَفْضُ الحِشمةِ وتركُ عِلمِ الطِّب، فلا عَيشَ لِمُحتَشِمٍ ولا لَذّةَ لِمُحْتَمٍ ... وقالوا: مَن عرَف ما يَضُرّه مما ينفعُه فهو مريض ... وقال أفلاطون: الموت موتان: طبيعيٌّ وإراديٌّ: فالطبيعيُّ مفارقةُ الروح للبَدَن، والإراديُّ مَنْع الأبدان من الشهوات ... وقالوا: الأبدانُ التى اعتادت الحِمْية آفتُها التخليط، والأبدانُ التى اعتادت التخليط آفتُها الحِمْية ...

شرب الدواء

قال سيدنا رسول الله: مَنِ استقلّ بدائه فلا يتداوَنّ، فإنه رُبَّ دواء يُورِث الدّاء ... وكانت الحكماء تقول: إيّاكَ وشُرْبَ الدواء ما حَمَلَتْ صحّتُك داءَك ... وقالوا: مَثَلُ شرب الدواء مَثَل الصابون للثوب، يُنْقِيه ولكن يُخلِقُه ويُبْليه ... وقال أبقراطُ: الدواءُ من فوقُ، والدواء من تحتُ، والدواء لا فوق ولا تحت، وفَسّر ذلك مُفَسِّروه فقالوا: مَن كان داؤه فى بطنِه فوقَ سُرّتِه سُقِى الدواء، ومَن كان داؤه تحت سرّتِه حُقِن، ومَن لم يكن به داءٌ لا من فوق ولا من تحت لم يُسقَ الدواء، فإن الدواء إذا لم يجدْ داءً يعملُ فيه وَجَدَ الصِّحة فعمِل فيها ...

سياسة الأبدان

بما يصلحها من الطعام وغيره

قال الحجاجُ بن يوسف الثقفي لتياذُوقَ مُتَطَبِّبِه [١]: صِفْ لي صِفةً آخُذُبها ولا أعْدُوها، قال تِياذوق: لاتتزوج من النساء إلا شابَّة، ولا تأكل من اللحم إلا فَتِيًّا، ولا تأكله حتى يُنعَمَ طبخُه، ولا تشْرَبَنَّ دواءً إلا من عِلَّة، ولا تأكل من الفاكهة إلا نَضيجها، ولا تأكل طعاما إلا أجَدْتَ مَضْغَه، وكلْ ماأحبَبتَ من الطعام واشْرَبْ عليه، وإذا شربْتَ فلا تأكل عليه شيئا، ولا تحبس الغائط والبَول، وإذا أكلْتَ بالنهارِ فنَم، وإذا أكلْتَ بالليل فتمَشَّ ولو خمسين خُطوة ... فقال له بعض مَن حضر: إذا كان الأمر كما تقول فلِمَ هَلك أبقراط ولِم هلك جالينوس وغيرهما ولم يبْقَ أحد منهم؟ قال: يابُنى، قد احتَجَجْتَ فاسْمَع: إن القوم دبَّروا أنفُسهم بما يملكون، وغَلبَهم مالا يملكون - يعنى الموتَ وما يَرِدُ من خارج، كالحرِّ والبرد والوقوعِ والغَرَق والغمِّ وما أشبه ذلك - ... وقال تِياذوق أيضاً للحَجّاج: أربعةٌ تَهدِم العمرَ وربُّما قتَلْنَ: دُخول الحمّام على بِطنةٍ، والمجامعَة على الامْتلاء؛ وأكل القَديد الجافّ [٢]، وشُرْبُ الماء البارد على الرِّيق؛ وما مجامعةُ العَجوز ببعيدة منهنَّ ... ووَجد الحجاج فى رأسه صُداعاً فبَعثَ إلى تِياذُوقَ وأحضَره، فقال: اْغسِل رِجليك بماء حارٍّ وادْهُنهما، وخَصِيٌّ للحجاج قائمٌ على رأسه، فقال الخَصِيُّ: والله، مارأيت طبيباً أقلَّ معرفةً

(١) ترجم له ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء

(٢) القديد: اللحم المجفف

بالطِّب منك ! شكى الأميرُ الصُّداع فى رأسِه فوصف له دواءً فى رِجْليه ! فقال له : أمَا إنَّ علامةَ ماقلتُ فيك بَيِّنةٌ ! قال الخصِىُّ : وما هى ؟ قال : نُزِعَت خُصْيتاك فذهَب شعَرُ لِحْيتِك ! فضحِك الحجاجُ ومَن حضر ...

* * *

وقال عبد الملك بن مروانَ لأعرابىّ : إنك حَسَنُ الكِدْنة ! قال : إنِّى أُدْفِئُ رِجْلَىّ فى الشتاء ، وأُغفِلُ غاشيةَ الغَمِّ ، وآكلُ عند الشهوة ...

ويقال : ثلاثة أشياء تُورِث الهُزال : شرب الماءِ على الرِّيق ، والنوم على غير وِطاءٍ ، وكثرةُ الكلام برَفع الصوت ... وقالوا : الدَّواءُ الذى لاداءَ معه : أنْ تجلِسَ على الطعامِ وأنتَ تشتهيه وتقومَ عنه وأنت تشتهيه .

وقال أرسطوطاليس : المَطْعمُ والمَشرب إذا كثُرا على المَعِدَةِ أطفآ نارَها نجرت الأغذية فى البَدَنِ غيرَنضيجةٍ ، فصارَ ذلك نُقصانا للبَدن يورِث الفَـتْرَة [1] ، كالشجرة ، إذا كثُر ماؤها عَفِنَت وإنْقلَّ جفَّت ، وكالسِّراج ، إذا قلَّ دُهْنُه أو كثُر انطفأ ... وقال بعضُهم : مَن تغدَّى وتعشَّى ولم يأكل فيما بينهما ، سَلِمَ من الأوجاع ، لِقول الله عز وجلّ : ولهم رزقُهم فيها بُكرة وعَشيًّا ... وقال بعض الأطباء : أحَبُّ الناس إلينا : الرَّغيب البَطنِ ، لكثرةِ حاجاتِهم إلينا ... وأُخبِرَ بعض الأمراء بشيخ قد أتَتْ عليه مائة وخمسون سنة فى اعتدالِ جسمٍ ونَضارة لون ، فاستدعاه وسأله فقال : إنْ كان لِما ترى من هذه المَوهِبة الجميلة سَبَبٌ بعدتقدير الله تعالى فما أصِفُه : مااحْتَملْتُ مُهِمًّا تَبْعُد علىَّ مُدافعتُه ، ولا رأيتُ من زوجة مكروها ، ولا اجتمَعَ فى بَطْنى طعامان ، وإذا شَرِبتُ شرابا تناوَلْتُه رقيقا طيِّبا لاأثْمَلُ منه [2] ، ولا أستدعى

---

(١) الفترة : الضعف والانكسار (٢) ثمل يثمل : أخذ منه الشراب والسكر

الطبيعة من غيرِ عارِض ، وما استدعَيت للباهِ[١] حركة إلا أن يَهيج بالطبيعةِ على القلب ، وإذا فعلتُ ذلك أقللتُ الحركة بقيّة يومى . . . وقالوا : أضرُّ الأشياء للبَدَنِ : الفكرُ والسهر ، وأنهكُ الأشياء للبدن : الخوف . وقال المأمون : قد أصبْتُ دواء يُبرئ ولا يُؤكلُ ولا يُشرب ! فقيل : ماهو ؟ قال : النومُ إثْر الغَداء . . . وقالوا : إذا أكلت فاضطَجِع على جَنبِك الأيسر ، فإن الكبِدَ يقع على المعِدَة فيُنضِجُ الطعام فيَهْضِمُه . . . وقالوا : غِشيانُ المرأةِ المُولِّية يُضعِف القُوّة ويُسْقِم البَدن ، لأنها كالشَّنِّ البالى [٢] ، ماؤها سُم قاتل ، تأخذ منك ولا تُعطيك . . .

من تناول طعاما
وتحقق تولُّدَ عِلّة منه

اجتازَ رجلٌ بصديق له محموم فسأله عن سبب عِلّته ؟ فقال : أكلْتُ فى هذا الصيف فِراخا وعَسَلا وشرِبْتُ خمراً صُلبا ـ شديدة ـ ونِمْتُ فى الشمس ! فقال له : علىّ كلُّ يمينٍ ، لوكانت الحُمَّى من حَمَلةِ الشمس ورأتكَ بهذه الحالة اتركَتْ عملَها ووافتك . . . ونظر طبيبٌ إلى دِهْقانٍ[٣] يَغرِسُ شجرة مشمش فقال له : ماتصنَعُ ؟ قال : أعمِلُ لى ولك ! « يعنى أنّ الطبيب ينتفع بالمشمش ، لسوءِ أثره على آكليه ، وحاجتهم إلى الطبيب ، لِما يتولّدُ فيهم من الأدواء لا كلِ الطرىِّ منه ، وفى هذا المعنى يقول ابنُ الرومىّ :

إذاما رأيتَ الدّهرَ بُستانَ مِشمش ... فأيقِن بحَقٍّ أنه لِطبيبِ
يُغِلُّ له مالا يُغِلّ لربِّه ... يُغِلُّ مريضا حَمْلُ كلِّ قضِيبِ

(١) الباه والباهة والباء والباءة : الجماع (٢) الشن : القربة الخلق
(٣) رئيس القرية

« يُغل له : أى يعطى الطبيبَ من الغَلة ـ وهى الدّخل ـ مالا يُعطيه لصاحبه ، وذلك أن حَمْلَ الغصنِ الواحد من كل شجرة مشمش من أشجار ذلك البُستان إذا أكله إنسان فإنه ينقلب مريضا فيلجأ إلى الطبيب »

الحمى

قال المتنبي :

وزائرَتى كأنّ بها حياءً فليس تزورُ إلا فى الظلامِ

بَذَلْتُ لها المَطارِفَ والحشايا فعافَتها وباتَتْ فى عِظامى

يَضيقُ الجِلدُ عن نفَسى وعنها فتُوسِعُه بأنواعِ السّقامِ

إذا ما فارَقَتْنى غَسّلَتْنى كأنّا عاكِفانِ على حَرامِ

كأنّ الصُبحَ يَطرُدُها فتَجرى مَدامِعُها بأربعةٍ سِجامِ

أُراقِبُ وقتَها من غيرِ شوقٍ مُراقبةَ المَشوقِ المُستَهامِ

ويَصدُقُ وعْدُها والصِّدقُ شرٌّ إذا ألقاكَ فى الكُرَبِ العِظامِ

« وقوله : وزائرتى ... البيت يقول : إن الحُمّى التى كانت تأتيه ليلا ، كأنها حَيِيّةٌ فليست تزور إلا فى الليل ... والمطارف فى البيت الثانى : جمع مِطْرَف وهى : أَرْدِيَةٌ مُرَبَّعَة من خَزٍ فى جنبها علَمانِ ، والحشايا جمع حَشِيّة : ما حُشِى من الفرش مما يُجلس عليه ، يقول . إن هذه الزائرة ـ الحُمّى ـ لا تبيت فى الفراش وإنما تَبيت فى عظامى . وقوله : يضيق الجلد . البيت يقول : يضيق جلده فلا يَسَعُها ولا يسعُ أنفاسى التى أتنَفسُها ، وهى مع ذلك تَذْهب بالحمى فتُوسِع جلدى بما تورد عليه من ضرُوب السقم ، وقوله : إذا ما فارَقَتْنى غَسّلَتْنى . . . يقول : إنه يَعرَق عند فِراقِها ، فكأنه

تغسله لعكوفهما على ما يوجب الغُسْل ، وإنما خصّ الحرام لأنه جعلها زائرةً غريبةً ولم يجعلْها زوجةً ولامملوكة ... وقوله : كأن الصبح ... البيت يقول : إنها تفارقه عند الصبح فكأنَّ الصُّبْحَ يطرُدُها ، وأنها إذا فارقته تجرى مدامعُها من أربعةٍ سِجام ، يريد : كثرة العَرَق ـ عَرَق الحُمَّى ـ فكأنها تبكى عند فراقه لِحُبِّها إياه ، وأراد بالأربعة : اللَّحاظَين والمُوقين للعينَين . وقوله : أراقب وقتها الخ يقول : أنتَظِر وقت مجيئها كما ينتظر المَشُوق مجىء حبيبه ، وذلك أن المريض يجزَع لورود الحمى ، فهو يراقب وقتها خوفاً لا شوقاً . ثم قال : ويصدق وعدُها ، يقول : إنها صادقة الوعد فى الورود وذلك الصدق شرٌّ من الكذب ، لأنه صدق يضُرُّ ولا ينفع كمن أوعد ثم صدق فى وعيده ... »

وقال المتنبى أيضاً :

ومنازِلُ الحُمَّى الجسومُ فَقُلْ لَنا ماعُذْرُها فى تركِها خيْراتِها
أعْجَبْتَها شرَفاً فطال وُقوفُها لتَأمُّلِ الأعضاءِ لا لأذاتِها

« يقول المتنبى لهذا الممدوح — وكان مُصاباً بالحُمَّى — إنَّ جِسْمَكَ خيْرُ الأجسام فلا عُذْرَ للحُمَّى فى تَركِهِ ، لأن محلَّها الأجسام ! ثم قال : إن الحمَّى لمَّا رأتك فى المحل الأرْفَع من الشرف والكرم والنُّبل أعجبْتها فأقامت فى بدنِك لتأمُّل أعضائك التى اشتملت على تلك المحامد ، لا لأنها تريد أن تؤذيَك » ... وقال الشاعر أبو الفتح كُشاجم [١] فى علىِّ بن سليمانَ الأخفش :

ولقدْ أخطأَ قومٌ زعموا أنَّها من فضْلِ بَرْدٍ فى العصَبْ

---

(١) هو محمود بن الحسين بن السندى بن شاهك ، وشاهك أمه

هو ذاك الذهنُ أذكى نارَهُ والمزاجُ المُفْرِطُ الحَرِّ الْتَهَبْ

ودخل بَخْتَيْشوعُ (١) على يحيى بنِ خالدِ بن بَرمَك بِعَقِب حُمّى فقال له : تَوَقَّ فإن حمّى ليلةٍ يبقى فى البدنِ تأثيرها سنة ! — وعنده وكيع فقال : صدق ، فقال يحيى : ما أقربَ تصديقَكَ إياه ! قال : لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال . حُمّى ليلةٍ كفّارةُ سنة ، فعلِمْتُ أنّ هذا مِنْ ذاك ...

الرمــــد

مما يُستَحسَنُ فى عَيْنِ محبوب رَمْداءَ قولُ ابن المُعتَزّ :

قالوا : اشتكَتْ عينُه نقلت لهم : مِن شدّةِ الفتْك نالها الوَصَبُ (٢)

حُمْرتُها مِن دماءِ مَن قتَلَتْ والدَّمُ فى النَّصْلِ شاهدٌ عَجَبُ (٣)

وفى معنى هذين البيتين قولُ بعضهم :

قالوا : الحبيبُ شكا جُعِلْتُ فِداءَه رمداً أضرَّ بعينِه كالعَنْدَمِ (٤)

فأجبتُهم : مازالَ يفتِكُ لحظُهُ فى مُهجَتى حتى تلطّخ بالدمِ

---

(١) بختيشوع بن جورجس هو طبيب يونانى الاصل ، اتصل بهرون الرشيد وخدمه وكانت له منزلة عنده ، وكان أبوه جورجس طبيب أبى جعفر المنصور ، وابنه يدعى جبرائيل بن بختيشوع ؛ كان من أمهر الأطباء اتخذه جعفر بن يحيى البرمكى طبيبه الخاص وحظى عند الخلفاء ونال منهم أموالا لم ينلها أحد غيره منهم

(٢) الفتك يروى : القتل ، والفتك أحسن ، والوصب : المرض والوجع الدائم وقد يطلق على التعب

(٣) النصل : نصل السهم والسيف والرمح وقد يسمى السيف نصلا

(٤) العندم : صبغ أحمر يختضب به

النقرس (*)

كان أبو الفضل بن العميد يكثر برجله النِّقْرِس، فقيل له: لا تغتمّ فإن ذلك يُؤذِنُ بطولِ العمر! فقال: طول العمر هو أنّ مَن به النقرسُ يسهرُ، فيصير ليلهُ نهاراً، فكأنما يتضاعفُ عُمره ... وقال المبرِّدُ: ذكر أعرابيٌّ رجلا قد أثرى فقال: تنقرَس! كأنه سَمِعَ أن النِّقرِسَ يكون معَ النعمة ... ومنه قول الأعرابيِّ:

ألا فاعْجَبُوا مِن مُفْلِسٍ حِلْفِ نِقْرِسٍ أما نِقْرِسٌ في مُفْلِسٍ بعَجِيبِ

« فلان حِلْفُ كذا أى: حليفه وملازمه »

عودٌ إلى عبقرياتهم فى التداوى والأدوية

قيل لأبقراط: مابالُ الإنسان يكون أثْوَرَ ما يكون بدَناً إذا شرب الدواء؟ فقال: مثل البيت تراهُ أكثرَ ما يكون غباراً إذا كُنِس ...

ومن قولهم: مَثلُ الدواءِ مَثلُ عدُوٍّ إلى جانبه صديق، ترمِي العَدُوَّ فلا تأمنُ أن تُصيب الصديق ... وقالوا: لا تُسْتَعْمَلُ الأدوية فيما تنفع فيه الأغذية.

وفى الحديث الشريف: تداوَوْا فإن الله ما أنزل داءًا إلا أنزل له دواء، إلا الهَرَم ...

وقالوا: حقُّ الطبيب أن يتأنَّى فى المُداواة فعَثْرَتُه لا تقال ... وقالوا المُتأنِّى فى علاج الداء بعد معرفةِ الدواء كالمُتأنِّى فى إطفاء النار وقد أخذت بحواشى ثيابه

(*) النقرس: داء معروف يأخذ فى الرجل وهو ورم يحدث فى مفاصل القدم وفى إبهامها أكثر

شهوة المريض إلى الطعام

قال أبقراط : المريض الذى يشتهى أرجى عندى من الصحيح الذى لا يشتهى ... وقال المتنبى :

ومن يكُ ذا فم مُرّ مريض يجدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

وقيل للخليل بن أحمد فى علّته . أتشتهى شيئاً ؟ قال : لا ! وبِوُدّى أن أشتهى . وقيل ذلك لآخر فقال : أشتهى أن لا أموت .

شكوى العلة

وكان منهم من لا يرى بأساً فى شكوى علته ، ومنهم من يُنكر ذلك فممّن شكا علّته أبو نواس إذ يقول :

دبَّ فيَّ السَّقامُ سُفْلًا وعُلوًا وأرانى أموتُ عُضْواً فعُضْوا
ليسَ يمضِى مِن ساعةٍ بىَ إلا نقَّصتْنِي بِمَرِّها بى جُزْوا
لَهْفَ نفسِى على ليالٍ وأيا مٍ تمتَّعْتُهن لِعباً ولَهْوَا

وقالوا : * ولا بد من شكوى إذا لم يكن صبرُ *

ولما مرض بعض الصالحين وعاده الناس قالوا له : كيف تجدُك ؟ قال : بِشَرّ ، قالوا : هذا كلامُ مثلك ! قال : أجل ، إنّ الله تعالى يقول : « ونَبْلُوكُمْ بالشّر والخير فتنةً » فالخير الصّحة ، والشّرّ المرض

وقالوا : الشكوى تُخفِّفُ الهَمّ وتُزيلُ الألم ...

ولما وجه المُتَوَكلُ فى السنةِ التى قُتِل فيها أن يُحمَلَ إليه الجاحظ من البصرة قال لمن أراد حملَه : وما يصنعُ أميرُ المؤمنين بامرئ ليس بطائل ، ذى شِقّ مائِل ، ولُعاب سائل ، وفرْج بائِل ، وعقل حائل ! « حائل : متغير »

وحدّث المُبرِّد قال : دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون مَن نصفهُ مفلوج لو حُزَّ بالمناشير ماشعَر به ، ونصفه الآخر مُنَقْرَس[1] لوطار الذباب بقُرْبِه لآلمَهُ ، وأشدُّ من ذلك ستٌّ وتسعون سنة أنا فيها ، ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ ... كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ
لقد كَذَبتْكَ نفسُك ؛ ليسَ ثوبٌ ... دَريسٌ كالجَدِيد من الثياب

« دريس : بال »

وقيل لآخر : ما تشكو ؟ فقال : تمامُ العِدّة وانقضاء المُدّة ... وقال بعضُهم لمن يشكو : أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ! وقيل لسعيد بن عمْرو بن سعيد بن العاص وهو مريض : إن المريض يتفرجُ إلى الأنين وإلى أن يصف مابه إلى الطبيب ، فقال : أما الأنين فوالله إنه لجزع ولا يسمعُ الله منى أنينا فأكونَ عنده جزوعا ، وأما الطبيب فوالله لا يحكم غير الله فى نفسى ، فإن شاء قبضها إليه وإن شاء منَّ بها علىّ ...

فضل الصحة والعافية

قالوا : شيئان لا يَعرِفُ فَضلَهُمَا إلّا من فقَدَهما : الشَّبَابُ والعافية . وقالوا : لا يَعرفُ طعمَ العافيـة إلّا مَن نالته يدُ العِلّة ، ولا طعمَ الرَّخاء إلا من مسَّته يدُ البلاء .

---

(١) منقرس : مصاب بالنقرس وهو ورم أو وجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين وفى إبهاميهما أكثر

نفع المرض

اعتلّ الفضلُ بن سَهْل بخراسانَ ، ثم برأ ، فجلس للناس فهنّأوه بالعافية وتصرّفوا فى فنون الكلام ، فلما فرغوا أقبل على الناس فقال : إن فى العلل نِعما ينبغى للعاقل أن يعرفَها : تمحيصَ الذنب ، والتعرضَ للثواب ، والإيقاظُ من الغفلة ، والإذكارُ بالنِّعمة فى حال الصِّحة ، والاستدعاء للتوبة ، والحضّ على الصدقة ، وفى قضاءِ الله وقدره الخيار ...

واعتل بعضهم فقال : اللهُمَّ اجْعله أدباً لاغَضَباً ... وفى الحديث الشريف : إن المريض تتحاتُّ عنه خطاياه كما يتحاتُّ ورقُ الشجر (١) ... وذُكِرَت الأدواءُ عند أبى الدرْداء فقال رجلٌ : ما اشتكيتُ قطُّ ، فقال لا جرم أن ذنوبَك لم تحَطّ عنك ...

وصف العلة بأنها تنال الأماثل

قال أبو تمام من أبيات فى مرض الياس بن أسد :

فإن يَكُنْ وَصَبٌ عايَنْتَ سَوْرَتَه فالوِرْدُ حِلْفٌ لِلَيْثِ الغابَةِ الأضِمِ
إنّ الرِّياحَ إذا ما أعْصَفَتْ قَصَفَتْ عَيْدانَ نَجْدٍ ولا يَعبأْنَ بالرَّتَمِ
بناتُ نَعْشٍ ونَعْشٌ لا كُسوفَ لها والشمسُ والبَدْرُ منها الدهرَ فى الرَّقَمِ
قد يُنعِمُ اللهُ بالبَلْوَى وإن عَظُمتْ ويَبتَلِى الله بعضَ القومِ بالنِّعَمِ

« الوصب هنا : المرض ، وسَورَته : شِدّتُه : والوِرد : الحُمّى ، والأضِم : الغضبان : وعَيدان (بالفتح) جمع عَيدانة وهى : النخلة الطويلة والشجرة

(١) تحات الشىء : تناثر ، وتحات الورق : سقط عن الغصن

الصلْبة القديمة . والرتم : نبات من أدق الشجر ، وبنات نَعْش كبرى وهى سبعة كواكب أربعة منها نَعشٌ وثلاث بنات ؛ وصُغْرَى : وهى مثلها ، ومنها أى من دونها ، والرقم : السواد ، ويعنى به الخفاء للكسوف والخسوف »

وقال البحترى :

وما الكلبُ محموماً وإنْ طالَ عُمْرُه   أَلَا إنما الحُمَّى على الأَسَدِ الوَرْدِ

« قيل للأسد وَرْد لأن لونه أحمر يضرب إلى صُفْرة » وفى الحديث الشريف : مثَلُ المؤمن مَثَلُ الخامَةِ من الزَّرْع ، تُفيِّئُها الريحُ مرة وتَعدِلُها مرة ، ومَثَلُ الكافرِ مثلُ الأَرْزَة لاتزالُ حتى يكونَ انجعافُها مرةً واحدة .

« الخامة : الزرع أول ماينبت على ساقٍ واحدة ، وقيل : السُّنبُلة ، وقيل : الطاقة الغَضّة من الزرع ، وقيل : الشجرة الغَضّة الطرية . وتُفيِّئُها : تحركها وتُميلها يميناً وشمالا ، والأرْزَة : واحدة الأرز : شجر معتدل صُلب لا يحركه هبوب الريح يقال له الأَرْزة معروف بلُبنان ، وقيل : شجر الصَّنَوْبر والجمع أَرْز ، وانجعافها : انقلاعها . ومعنى الحديث : أن المؤمن ينبغى له أن يَتلقّى المكارِهَ صابراً راجياً الخير من ورائها ، وأن يَعُدَّ نفسه كأوائل الزرع تُميله الرياح يَمْنةً ويَسرةً ، فهو فى الدنيا هَدَفٌ تَنتضِلُ فيه الرزايا ، فليس له إلا أن يَعتصِمَ بالصبر والرضا ، وأن يَعلمَ علماً ليس بالظن أن كل ما يُرزَؤُه من فُقدان مال وولد وما إليهما ، وما يصيبه من مَرَض ووَصَب ، إنما هو مكفِّرٌ لسيئاته رافع لدرجاته ؛ أما الكافر ، أما العِفْرِية النِّفْرِية ، فإن كل هَمِّه أن يَستمْتِعَ بشهوات الدنيا ولذاتها ، فإذا رُزِئَ فى ماله وولده ونفسه تسخَّط ولم يَدَّخر لنفسه ما ينفعه فى آجله ومن ثَمَّ يموت إذ يموتُ كما تنجعفُ شجرةُ الأَرْزَة وتُجتَثّ من أصلها فيَلْقَى الله بذنوبه حاثة . هذا ، ولك أن

تقول : إن المعنى بسبيل من قولهم : المؤمن مُصابٌ ، ومعنى هذا أن المؤمن لأنه يتقى الله فى سائر أسبابه ولا يُقدِم على ما حرّم الله ، لا تواتيه الدنيا كما تواتى من لا يتقى الله فيعيش من كان هذا شأنه مُرَزَّأً وإن كان فى آخرته من الفائزين. وهذا فى الغالب، وإلا فهناك من المؤمنين الصادقين من كان إيمانهم مَدْرَجةً إلى أن يعيشوا عيشة راضية يُحسدون عليها . وعلى أية حال فإن المراد بمثل هذا الحديث هو تعزية المصابين فى الدنيا من المؤمنين بأن الآخرة خيرٌ وأبقى ...»

عيادة المريض

وجوب عيادة المريض

ورد فى الحديث الشريف : حقُّ المسلم على المسلم ثلاثٌ: عِيادةُ المريض، وتَشميتُ العاطِس ، وتشييعُ الجنازة؛ وفى الحديث أيضاً : من عاد مريضاً لم يَزَلْ فى خُرْفةِ الجنة حتى يرجِعَ ... «الخُرْفة (بضم الخاء وفتحها) : ما يُخترف أى يُجْتنَى من الثمر ، أى لم يزل فى بستانٍ يَجْتنى منه الثمرَ ، شَبَّه صلوات الله عليه ما يحُوزُه من يعودُ المريضَ من الثوابِ بما يَحُوزُه المُخْترِفُ من الثمر»

أدب عيادة المريض

قالوا : سُوءُ العيادةَ تلقيحٌ للعِلة ... وقال الفضْلُ بنُ الربيع : لا تقولوا : كيف حال أمير المؤمنين ، ولا تسْألوه عن حاله فتُكلّفوه الجواب ، ولعله يثْقُلُ عليه الكلام ، ولكن اجعلوا مسألتَكُمُ الدعاءَ له وقولوا بَدَل كيف يجِدُ أميرُ المؤمنين نفْسَه : أنزل الله عليه الشفاءَ والرحمة ... ودخل قومٌ على

السّرِىّ السقطى رحمه الله وهو عليل فأطالوا الجلوس وقالوا : ادْعُ لنا ، فقال : ارْفعوا أيديكم وقولوا : اللهمّ اجعلنا ممّن عَلَّمْتَهم عيادةَ المرْضى ... ودخل قومٌ على مريض فأطالوا الجلوس ثم قالوا : أوصنا ، فقال : أُوصيكم ألّا تطيلوا الجلوس عند المريض إذا عُدْتُموه ... ودخل ثقيلٌ على مريض. فأطال الجلوس ثم قال : ما تشتكى ؟ قال : قُعودك عندى ...

شكاية من لا يعوده إخوانه

قال : جحظة البرمكى (*) :

مَرِضتُ فلم يَكُنْ فى الأرضِ حُرٌّ ... يُشرِّفُنى بـبِرٍّ أو سـلامِ
وضَنُّوا بالعِيادةِ وهْىَ أجْرٌ ... كأن عِيادتى بَذْلُ الطعامِ

الاعتذار عن ترك العيادة

قال شاعر :

إنْ كنتُ فى تَرْكِ العِيادةِ تارِكًا ... حَظى فإنّى فى الدعاءِ لجاهِدُ
ولَرُبّما تَرَكَ العِيـادةَ مُشْفِقٌ ... وأتى على غِلِّ الضّميرِ الحاسِدُ

من عاده ممرّضه

قال العوّام بن كعب بن زهير فى ليلى الغطفانية :

وخُبِّرْتُ لَيْلَى بالعراقِ مريضةً ... فأَقبلْتُ من أهلى بمِصْرَ أعُودُها

(*) هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ، فهو من ذرية البرامكة كما ترى وكان من ظرفاء عصره وكان أديباً شاعرا صاحب فنون وأخبار ونوادر ومنادمة ، وجحظة لقب لقبه به عبد الله بن المعتز توفى سنة ٣٢٦ « انظر ترجمته فى معجم البلدان لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان »

فواللهِ ما أدرِى إذا أنا عُدتُها أأُبرِئُها من دائِها أم أزيدُها

مريض عاد صحيحا

قال العباس بن الأحنف :

قالت : مَرِضتُ فعُدْتُها فتبرَّمَتْ وهْيَ الصحيحةُ والمريضُ العائدُ

والله : لو أنَّ القلوبَ كقلْبِها ما رَقّ للولَدِ الضعيفِ الوالدُ

وقال آخر :

إذا مَرِضْنا أتيناكم نعودُكُمُ وتُذنِبون فنأتيكم ونَعْتَـذِرُ

حثهم العائد على تنشيط المريض

قال بعضُ الأطباء القُدامَى : بشِّرُوا المريض بالبُرْء ، ونَشِّطوه لشُرْبِ الدواء ، ولا تُصَعِّبوا عليه العِلة ، فتخافَ نفسُه ، ويموتَ حِسُّه ، وقال : أبُقْراطُ : حدِّثوا المريضَ بحالِ مَن كان فى أصْعَبَ من عِلّتِه فبَرأ ، ولا تحدِّثوه عمَّن كان فى مِثْل علته فمات ...

حثهم على تخويفه ليتجنب المضارّ

قالوا : خَوِّفوا المريض ليَتجنَّبَ المضارّ ، فمن خَوَّفكَ لِتَأْمَنَ الأمْنَ خيرٌ لكَ مِمّنْ أمَّنكَ لتلقَى الخوف . . . وقالوا : مَن أوْجَرَك المُرَّ لِتَبْرأَ خيرٌ ممّن أوْجَرَكَ الحُلوَ لِتَسْقَمَ .

تغير اللون

قال الصُّولى : لم يُسْمَعْ أحسنُ من قول البُحتُرِىِّ فى صُفْرةِ اللون :

بَدَتْ صُفْرةٌ فى لونِه ، إنَّ حَمْدَهُم مِنَ الدُّرِّ ماآصْفَرَتْ نواحِيه فى العِقْد

وقال أبو تمام :

لم تَشِنْ وَجْهَهُ البهيجَ ولكن جَعَلَتْ وَرْدَ وَجْنَتَيْهِ بَهارا

« البهار : نبتٌ برّى طيب الرائحة له فُقّاحةٌ — زهرة — صَفْراءُ يَنبُتُ أيام الربيع ، يقال له : العَرار وعين البقر .. »

تهنئة من برأ من المرض

قال أبو تمام :

سُقْمٌ أُتِيحَ له بُرءٌ فزعْزَعَهُ والرُّمحُ يَنْآدُ طوراً ثمَّ يعتدِلُ

قد حالَ لَونٌ فرَدّ الله نَضْرَتَهُ والنجْمُ يَخْمُدُ حيناً ثم يَشْتَعِلُ

يقال : زعزع الشيءَ : حَرّكهُ ليَقْلَعَه ، والمراد هنا : دفعه وأزاحه ، وينآد : يميل ، وحال لونٌ : تغيّرَ ، والنّضرة : الحسن والجمال »

وقال أشجع بن عمرو السُّلَمىّ : (١)

لئن جرحت شكاتُكَ كلَّ قلب لقد قَرّتْ بِصحّتِكَ العيون

وقيل لأعرابى برأ من علته : الحمد لله الذى سلمكَ ، فقال : أوَ يَسْلَمُ مَن الموتُ فى عُنقِه ؟ وقد تقدم

وقال المتنبى :

المجدُ عُوفِىَ إذ عوفيتَ والكَرَمُ وزالَ عنك إلى أعدائِك الألمُ

صَحّتْ بصحّتِك الغاراتُ وابتَهَجتْ بها المكارِمُ وانهلّتْ بها الدِّيَمُ

(١) كان شاعرا فحلا ولد فى اليمامة ونشأ فى البصرة ومدح البرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيى فقربه من الرشيد ومن أبياته السائرة قوله فيه :

وعلى عدُوّك يا ابنَ عمِّ محمد رَصَدان ضوءُ الصبح والإظلامُ

فإذا تنبّه رُعْتَه وإذا غفا سلتْ عليه سُيوفَك الأحلامُ

وراجعَ الشَّمْسَ نُورٌ كان فارَقَها كأنما فَقْدُهُ فى جِسْمِها سَقَمُ

قوله : وزال عنك إلى أعدائك الألم : إنما هو خبرٌ وليس دُعاءً ، يريد : أن أعداءَه تُؤْلِمُهُم عافيتُه لعوده بعد ذلك إلى غزوهم ، كما أشار إلى ذلك فى البيت التالى . وانهلت : سالت ، والديم جمع ديمة وهى : المطر الدائم فى سكون . يقول : كانت الغارات على بلاد الروم قد انقطعت فلما شُفِىَ وصح اتصلت الغارات عليها ، فكأن الغارات كانت عليلة بعلته ثم صحت بصحته ، وسُرَّتْ المكارمُ بصحته لأنه صاحبها ، وكانت الأمطارُ مُنْقَطِعةً فلما شُفِى صادف اتصالها شفاءَه ، ويقول فى البيت الثالث : إن الشمس فقدتْ بهجتَها فى عيون أوليائه لاغتمامِهم لِعلته فلما شفى عاد إليها حُسْنُها »

تفدية المريض

قال البُحتُرىُّ :

بأنفُسِنا لا بالطَّوارف والتُّلْدِ
نَقِيكَ الذى تُخْفِى من الشكْوِ أو تُبْدِى

بِنا معشرَ العافِينَ مابك من أذًى
فإنْ أشفقوا مما أقول فبي وحدى

« الطوارف : جمع طارفة مؤنث طارف وهو المال المستحدث وعكسه التُّلْد وهو المال القديم ، والشكو مصدر شكا كالشكوى والشكاة ، والعافى طالب المعروف ، وأشفقوا : خافوا »

وقال آخر :

يالَيْتَ علتَه بى غيرَ أن له أجرَ العليل وأنِّى غيرُ مأجورِ

عبقريات شتى

فى الطب والمرض والعيادة

قال جالينوس: المرَضُ هَرَم عارض، والهرم مرَضٌ طبيعىّ؛ وله: مجالسَةُ الثقيل حُمّى الرُّوح.

وقال ثابت بن قُرَّة: ليس شىء أضر بالشيخ من أن تكون له جاريةٌ حسناء، وطبّاخ حاذِق؛ لأنه يُكثر من الطعام فيسْقَم، ومن الجماع فيهْرَم:

وقال آخر: ليس لثلاثٍ حيلة: فقرٌ يخالطُه كسَل، وخصومة يخامِرُها حسَد، ومرَضٌ يمازِجُه هَرَم...

وقالوا: ثلاثةٌ يُعْذَرُون على سوءِ الخلق: المريض، والمسافر، والصائم...

وقالوا: فَرْط الغمّ والسرور يَقتُلان، أما الغم فإنه يُجمِّد الدم. والسرور يُلهبُه حتى تعلُوَ حرارَته على الحرارة الغريزية... وقال كسرى لوزيريه يوماً: أىُّ الفراش ألذّ؟ فقال أحدهما: ألذُّ الفراش الخَزُّ محشُوًّا، وقال الآخر: ألذُّ الفراش الحرير محشُوًّا — وكان بين يديه غلام من الحجّاب فقال: أيها الملك، أتأذن لى فى الكلام؟ فقال: نعم، قال: ألذُّ الفراش الأمْنُ، قال: صدقت، قال: فما ألذ الطعام؟ قال: ما لا يهيج على طبيعة علةً، ولا يقلِّدُ فى عُنق آكله منّة، فقال: أحسَنْت، فما ألذ الشراب؟ فقال: ما لا يُزيلُ عَقْلًا عن محله ولا يهيجُ على طبيعة شيئاً من عِللٍ؛ قال: أحسنت، فما ألذ الرَّيحان؛ قال: الولد السارُّ ريحانُ أبيه فى حياته وخلَفٌ له بعد وفاته؛ فرفع محله وألحقه بأكابر حشمه...

ونالت أبا الطيّب المُتَنَبِّي وهو بمصر علةٌ؛ فكان بعضُ إخوانه المصريين

يكثر الإلمام به ، فلما أبلَّ قطعه ، فكتب إليه : وصلتني — أعزَّك الله — مُعتلاً ، وقطعْتَني مُبِلاً ، فإن رأيت أن تُكدر الصحة عليَّ ، وتُحبِّبَ العلة إليَّ ، فعلتَ . . .

وقال شاعر :

إن الجهولَ تضُرُّني أخلاقُه ضررَ السُّعالِ لِمَنْ بِهِ استسقاء[1]

وقال البُسْتي[2]

أنا كالورْدِ فيه راحةُ قومٍ ثم فيه لآخرينَ زُكامُ[3]

---

(١) الاستسقاء لدى الأطباء : تجمع سوائل مصلية فى تجويف أو أكثر من تجاويف الجسد أو فى خلاياه .

(٢) هو أبو الفتح على بن محمد البستى الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٤٠٠ هـ ومن شعره :

وقد يَلْبَسُ المرءُ خزَّ الثياب ومن دونها حالةٌ مُضْنِيَهْ
كمن يكتسى خَدُّهُ حُمْرَةً وعِلَّتُها ورمٌ فى الرِّيَهْ

وله :

تحمَّلْ أخاك على مابه فما فى استقامته مطمعُ
وأنَّى له خُلقٌ واحدٌ وفيه طبائعُه الأربعُ

ومن ألفاظه : مَن أصلَح فاسِدَه أرغَمَ حاسِدَه . من أطاع غَضَبه أضاعَ أدَبه . الفَهم شُعاعُ العقل . المنية تضحك من الأمنية . حدُّ العفاف الرضا بالكفاف

(٣) قبله :

لايغرُّنك أننى ليّن المَسّ فعَزْمى إذا انتضيت حُسام

وقال المتنبي :

لعلَّ عَتْبكَ محمودٌ عواقبُهُ ورُبما صحَّتِ الأجسامُ بالْعِلَلِ

وقال :

أُعيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسَبَ الشحمَ فيمن شحْمه وَرَمُ

وقيل لبعض الأطباء وقد تمكّنته العلة : ألا تتعالج ؟ فقال : إذا كان الداء من السماء ، بطل الدواء ، وإذا قدَّر الربُّ بطل حذرُ المربوب ، ونِعمَ الدواءُ الأمل ، وبئس الداءُ الأجل .

ومن أدعيتهم : أغناك الله عن الطِّبِّ والأطباء ، بالسلامة والشفاء ، وجعل علتك تمحيصاً لا تنغيصاً ، وتذكيراً لا تنكيراً ، وأدباً لا غضباً .



الباب الرابع

فى

كتمان السر وإفشائه

وعبقرياتهم فى ذلك وفيما يجرى هذا المجرى

من الشورى والاستبداد بالرأى والنصح والأناة والعجلة

وهذا كتمان السر هو الآخَرُ لَوْنٌ من ألوان الصبر الذى أسلَفْنا القول عليه فى الباب الثالث ، وهو معنى من المعانى الخُلُقِيَّة التى عُنى بالقول عليها والحث على الاستمساك بعروتها سائر عقلاء الناس فى كل جيل ممن حنَّكتهم التجاريب ، ذاهبين إلى أن إفشاء السر – كان ما كان لونه – آيةٌ من آيات الضعف ودليل على أن فى عقل صاحبه عُهْدَةً تُغْتَمَزُ فيه ، وأنه ناشئ من قلة الصبر وضيق الصدر ، وأنه من خلائق ضَعَفَة الرجال والنساء والصبيان .

ومن السر ما يعدّ كتمانه من الحزم والاحتياط . وهذا أخصُّ ما يكون بالملوك والساسة ومن إليهم ، وهذا اللون من السر قد يؤدى إفشاؤه إلى سفك الدماء وضياع الممالك والدول والدمار وخراب الديار . . . ومن السر ما يحدث من الإنسان مما تستقبح إشاعته ويشنُعُ سماعه . وإلى هذا اللون يشير سيدنا رسول الله بقوله صلوات الله عليه : من أتى منكم من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله . . .

وبعد فإياك إياك يا أخى أن يَخدَعكَ عن سرك مثل قول القائل :

* وأكتمُ السر فيه ضَرْبَةُ العُنُق *

وقول الآخر :

وُيكاتم الأسرارَ حتى إنه ليصونها عن أن تَمُرَّ بباله

فذلك قول من يستنزلُكَ عما فى نفسِكَ حتى إذا استقْصَى ما عندك لم يَرْعَ فيه حقك ، وقد قالوا : إن الصبر على القبض على الجمر أيسر من الصبر على كتمان السر . . .

حفظ اللسان

من قديم ما قيل فى حفظ اللسان قولُ امرئ القيس :

إذا المرءُ لم يَخزُن عليه لسانَهُ فليس على شىء سواه بخزّانِ

« لم يخزُن عليه لسانه : لم يُحرِزْ لسانه فيجعله فى خِزانة قلبه ، قال صاحب اللسان : وخِزانة الإنسان قلبه ، وخازِنُه : لسانه ، وقال لقمان الحكيم لابْنه : إذا كان خازنك حفيظا وخزانتك أمينةً رَشَدْتَ فى أمرَيْكَ : دُنْياك وآخرتك ، يعنى : اللسان والقلب »

وقالوا : من ضاق قلبُه اتّسع لسانه ...

وقال أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن البصرى : لسان العاقل من وراء قلبه . فإن عرَض له القول نظر فإن كان له أن يقول قال ، وإن كان عليه القول أمْسَك ، ولسان الأحمق أمام قلبه ، فإذا عرَض له القول قال ، كان عليه أو لَهُ . . . وقالوا : مقتَلُ الرجل بين فَكّيْه .

ومن كلامهم : قِ فاك ما يقرع قفاك « قِ : فعل أمر من الوقاية » ومنه : إن لم تملك فضل لسانك ، ملَكت الشيطان فضل عنانك .

وفى اللسان ومكانته يقول زُهيرٌ :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم

منع إظهار السر قبل تمامه

قال سيدنا رسول الله : استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كلَّ ذى نِعْمَة مَحْسُود ... « يقول صلوات الله عليه : إنكم إن أظهرتم الناس على حوائجكم حسدوكم فعارضوكم فيما تترامون إلى قضائه ووقفوا فى سبيل تحقيقه »

وقالوا : مِن وَهْيِ الأمر إعلانُه قبل إحكامه ؛ وقالوا : مَن حصَّنَ سِرَّه فله من تحصينه إياه خَلَّتانِ : إما الظفرُ بما يريد ، وإما السلامة من العيب والضرر إنْ أخطأهُ الظَّفر ...

حثهم على حفظ السرّ

قال الشاعر الجاهلى قيس بن الخطيم :

إذا ماجاوزَ الإثنينِ سرٌّ فإنهُ بِبَثٍّ وإفشاءِ الحديثِ قمينُ (١)

وإن ضيّعَ الإخوانُ سرًّا فإننى كَتُومٌ لأسرارِ العشيرِ أمينُ

يكونُ له عندى إذا ماضَمَمْتُهُ مَقَرٌّ بسوْدَاءِ الفؤاد كَنِينُ

رووْا : أن ابن المقفع لما سمع هذا البيت قال : أراد بالإثنَيْن الشَّفتَيْن كأنه يقول : لا تُفْشِ سرك إلى أحد ... وهذا لَعَمْرِى بديع من ابن المقفع

(١) هو معلوم أن الألف فى اثنين ألف وصل فإذا جاءت مقطوعة فى الشعر كما فى هذا البيت فإنما ذلك ضرورة شعرية ، والبث : نشر الحديث الذى كتمانه أحق من نشره ، وقمين : خليق وجدير ، وببث متعلق بقمين

وكان علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين :

فلا تُفشِ سِرَّك إلا اليك ... فإن لكلّ نصيح نصيحا

وإنى رأيتُ غُواةَ الرجا ... ل لا يتركون أديماً صحيحاً

وقال الصّلَتانُ العبْدِىُّ من أبيات أورَدَها أبو تمّام فى حماسته :

أشابَ الصغيرَ وأفنى الكبيـرَ كَرُّ الغداةِ ومَرُّ العشِىْ

إذا ليـلةٌ هَرّمَتْ يومها ... أتى بعد ذلك يومٌ فتىْ

نروحُ ونغْدُو لحاجاتنا ... وحاجةُ من عاش لا تنقضىْ

تموت مع المرءِ حاجاتُه ... وتبْقَى له حاجةٌ ما بَقِىْ

بُنَىَّ بدا خِبُّ نجوى الرجا ل ... فكُنْ عندَ سرِّكَ خَبَّ النَّجِى[1]

وسِرُّك ماكان عند امْرِئٍ ... وسرُّ الثلاثةِ غيرُ الخفِىْ

كالصَّمْتُ أدْنَى لبعْضِ الرشاد ... فَبَعْضُ التكلمِ أدْنَى لِغَىْ

ومن قولهم : سرُّك مِن دمِك « يعنون : أنه ربما كان فى إفشاء السِّرِّ سَفْكُ الدم » وقال آخر لأخ له وحدَّثَهُ بحديث : أجعلْ هذا فى وعاءٍ غير سَرِبٍ « السرب : السائل »

من يُكره اطّلاعه على السر

قيل : لا تُطْلِعوا النساءَ على سِرِّكم تَصْلُحْ أمورُكم ، وقالوا : ما كَتَمْتَهُ عدُوَّك فلا تُطْلِعْ عليه صديقك

(١) الخب بكسر الخاء : المكر وبفتحها : المكار ، والنجوى مصدر ، وهو مستعمل فيما يتحدث فيه اثنان على طريق السر والكتمان ، يقول : إذا ناجيت صاحبا لك فكن خبا فيما تودعه من سرك فإن نجوى الرجال إذا بدا خبها عادت وبالا

المفتخر بحفظ السر

قال المتنبي :

وللسر مني موضع لا يناله نديم ولا يفضى إليه شراب

وقال مسكين الدارمي :

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم على سر بعض غير أنى جماعها (١)
لكل امرئ شعب من القلب فارغ وموضع نجوى لا يرام اطلاعها (٢)
يظلون شتى فى البلاد وسرهم إلى صخرة أعيا الرجال انصداعها

الممدوح بحفظ السر

قال الأحوص — شاعر إسلامى ترجم له صاحب الأغانى فى الجزء الرابع — :

كريم يميت السر حتى كأنه عم بنواحى أمره وهو خابر

وقال قيس بن الخطيم :

---

(١) أضاف الفتيان إلى الصدق كما يقال : فتيان خير ، والمعنى : أنهم يصدقون فى الود ولا يخونون ؛ والجماع : اسم لما يجمع به الشىء كما أن النظام اسم لما ينظم به الشىء ، والضمير فى جماعها : لك أن ترجعه إلى الفتيان أو إلى ما دل عليه الكلام من ذكر الأسرار يقول : رب فتيان هكذا استناموا إلىّ واستودعونى أسرارهم فكنت أنا نظامها لا يفوتنى من خبيآت صدورهم شىء ثم أفردت كلا منهم بالوفاء وكتمان ما أودعنى من سره

(٢) يقول : لكل رجل منهم جانب من القلب فرغ له وخص بموضع سره ، والشعب فى الأصل : الطريق فى الجبل وجمعه شعاب أراد به مكانه من قلبه ، والنجوى اسم للسر ، واطلاعها : علمها يقال : اطلع الشىء واطلع عليه : علمه ، وأنث الضمير العائد على الموضع لتأنيث المضاف إليه

كَتومٌ لأسرارِ الخليلِ أمينُها ... يَرى أنّ بثّ السرّ قاصِمةُ الظّهْرِ

وقال كُشاجِم :

ويُكاتِمُ الأسرارَ حتى إنه ... لَيَصونُها عن أنْ تَمُرَّ ببالِهِ

« وقد تقدم آنفاً »

ودخل ابنُ أبي مِحْجَن الثَّقفي [1] على مُعاويةَ ، فقال له معاويةُ : أبوك الذي يقول :

إذا مُتُّ فادْفِنّي إلى أَصْلِ كَرْمةٍ ... تُرَوِّي عِظامي بعد مَوْتي عُروقُها

ولا تدْفِنَنِّي في الفَــلاةِ فإنني ... أخافُ وراءَ الموتِ أنْ لاأذوقُها

فقال ابنُ أبي مِحْجَن : لو شئتَ ذكرت أحسنَ من هـذا من شِعرِه ! فقال معاويةُ : وما ذاك ؟ قال : قوله :

---

(١) أبو محجن الثقفي هو الصحابي الشاعر المشهور بقصته مع سعد بن أبي وقاص في يوم القادسية وذلك أنه أتى به إليه وهو سكران ـ وكان صاحب شراب ـ فأمر به فقيد ، وكان بسعد جراحة فاستعمل غيره ، وصعد سعد فوق البيت لينظر ما يصنعه الناس فجعل أبو محجن يتمثل :

كفى حزناً أن ترتدى الخيلُ بالقَنا ... وأُترَكَ مشـدوداً عليَّ وَثاقيا

ثم قال لامرأة سعد : ويلك خليني ولك على إن سلمت أن أرجع فأضع رجلي في القيد وإن قتلت استرحتم مني ؛ فخلته ووثب على فرس لسعد يقال لها البلقاء ، ثم أخذ الرمح وانطلق حتى أتى الناس فجعل لايحمل في ناحية إلاهزم الناس ، فجعل الناس يقولون : هذا ملك ، وسعد ينظر فجعل يقول : الضبر ضبر البلقاء [1] والطفر طفر أبي محجن وأبو محجن في القيد ، فلما هزم العدو رجع أبو محجن فوضع رجله في القيد ، فأخبرت امرأة سعد سعداً بالذي كان فقال : لاوالله لاأحد اليوم رجلاأبلى الله المسلمين على يديه ما أبلاهم ، فخلى سبيله فقال أبو محجن : لقد كنت أشربها إذكان يقام عليّ الحد أطهر منها فأما إذ بهرجتني فوالله لاأشربها أبدا

---

(١) الضبر : عدو الفرس

لا تسألى القومَ ما مالى وما حَسَبى   وسائلِى القومَ ما حزْمى وما خُلُقى
ألقومُ أعلمُ أنى مِن سَراتِهِم   إذا تَطايشُ يدُ الرِّعْدِيدَةِ الفَرِقِ
أُعطِى السِّنانَ غَداةَ الرَّوْعِ حِصَّتَه   وعامِلَ الرُّمح أُرْوِيه من العَلَقِ[1]
قد أطْعَنُ الطَّعْنَةَ النَّجلاءَ عنْ عُرُضٍ   وأَكْتُمُ السِّرَّ فيه ضَرْبَةُ العُنُقِ

فقال معاويةُ : لئنْ كنا أسأنا القولَ لنُحْسِنَنَّ الفعلَ ، وأجزلَ صِلتَه . .

صعوبة حفظ السرّ

قالوا : أصْبَرُ الناس من صبر على كتمان سرّه فلم يُبْدِه لصديق فيوشِكَ أنْ يَصيرَ عدوًّا فيُذيعَه

وقالوا : الصبرُ على لَهَبِ النار أهْونُ من الصبرِ على كِتمان السِّر ...

من لا يحفظ سره ويستحفظه غيره

قال الشاعر :

فلا تُودِعَنَّ الدَّهرَ سِرَّكَ أحمَقاً   فإنك إنْ أوْدَعْتَه منه أحمقُ
إذا ضاق صدْرُ المرءِ عن كتْمِ سرِّه   فصدْرُ الذى يُستودَعُ السرَّ أضيقُ

وقال بشار :

تَبُوحُ بسِرِّكَ ضِيقاً به   وتَحْسَبُ كلَّ أخٍ يَكْتُمُ
وكِتمانُك السِّرَّ ممَّنْ تخافُ   ومَنْ لا تخافَنَّهُ أحْزَمُ
إذا ذاع سِرُّكَ من مُخْبَرٍ   فأنْتَ متى لُمْتَه ألْوَمُ

ذمّ من يفشى السر

يقولون : فلانٌ أضْيَعُ للأسرار من الغِرْبالِ للماء ، وقال الحُطيئة :

---

(١) العلق : الدم

أغِرْبالاً إذا اسْتُودعْتَ سِرًّا ... وكانُوناً على المتحــدِّثينا

« الكانون : الثقيل من الناس ، وقيل : الكانون : الذى يجلس حتى يَتحسَّى الأخبارَ والأحاديثَ لينقُلَها ، قال أبو دَهْبَل :

وقد قَطَعَ الواشُـون بينى وبينَها ... ونحنُ إلى أن يُوصَلَ الحَبْلُ أحْوَجُ

فـلَيْتَ كَوانينا منَ آهلى وأهلِها ... بأجْمَعِهم فى لُجَّـةِ البحرِ لَجَّوا »

وقالوا : فلانٌ أنَمُّ من النسيمِ على الرِّياض . وقال ابنُ الرومىّ :

كأنَّ سِرِّىَ فى أحشائِهِ لَهَبٌ ... فما تُطيقُ لهُ طَيًّا حَواشيها

الأحوال التى يفشو فيها السرّ

قالوا : إذا أردتَ أن تُنزِل الرجُلَ عن سِرِّه فتوصَّلْ إليـه فى حال سُكْرِه ... * فالسُّكرُ يُظهِرُ سِرَّه المكْنونا *

المسازرة فى المحافل

قال سيدنا رسولُ الله : إذا كنتم ثلاثةً فلا يتناجَى اثنان دونَ الثالث .

وكان مالكُ بنُ مِسْمَع إذا سارَّه إنسانٌ يقول : أظهِرْه فلو كان خيراً لم يكن مكتوماً ، وهذا من قول زهير بنِ أبى سُلْمى :

والسِّتْرُ دونَ الفاحشات ولا ... يَلقاكَ دون الخيرِ من سِترِ

« يقول : إنّ بين الممدوح وبين الفاحشاتِ سِتراً من الحياء والتُّقى ، ولا سِتْرَ بينه وبين الخير يحجبه عنه »

وقال الخُبْزَأرْزِىّ :

إذا أنت سارَرْتَ فى مجْلِسٍ ... فإنك فى أهــلِه مُتَّهَمْ

فهذا يقول : قـد آغتابنى ... وذا يَسْتريبُ وذا يَتَّهِم

المتبجح بإظهار أسرار أصدقائه

قال أعرابيّ :

ولا أَكْتُمُ الأسرارَ لكن أَنُمُّها ولا أَدَعُ الأسرار تَغْلِى على قلبى
وإنَّ قليلَ العقْلِ مَن بات ليْلَه تُقَلِّبُه الأسرارُ جَنْباً إلى جَنْبِ

وقال آخر :

ولا تُودِعِ الأسرارَ قلبى فإنما تُصَبُّنَّ ماءً فى إناءٍ مُثَلَّمِ

وقال رجل لصديق له : أُريدُ أن أُفْشِىَ إليك سرًّا تحفظُه ، فقال : كلا لستُ أُشْغِلُ قلبى بنجواك ، ولا أجْعَلُ صدرى خِزانة شكواك ، فيُقْلِقَنى ما أقْلَقك ، ويُؤَرِّقَنى ما أرَّقَك ، فتَبِيتَ بإفْشائِه مُستريحاً ، ويبيتَ قلبى بحَرِّه جريحاً ... ولَعَمْرِى ما أصْدَقَ هذا وأكثَره انطباقاً على الواقع ! وفى الحق أن هذا وأمثاله يجب أن يكون عظةً لمن لايطيقون كتمان أسرارهم

الرخصة فى إفشاء السر إلى الصديق

قال بعض الشعراء :

وأبثَثْتُ عَمْرًا بعضَ ما فى جوانحى وجَرَّعْتُه من مُرِّ ما أتجرَّعُ
فلا بُدَّ من شَكْوَى إلى ذى حَفِيظةٍ(١) إذا جعلت أسرارُ نَفْسِى تَطَلَّعُ

(١) الحفيظة : إما يراد بها : حفظ الأسرار ، وإما أن يراد بها : الغضب لحرمة تنتهك من حرماتك أوجار ذى قرابة يظلم من ذويك أوعهد ينكث قال الحطيئة :

يَسُوسون أحلاماً بعيداً أناتُها وإن غَضِبُوا جاءَ الحفيظةُ والجِدُّ

والمحفظات : الامور التى تحفظ الرجل أى تغضبه إذا وتر فى حميمه أو جيرانه قال القطامى :

أخوكَ الذى لاتَملكُ الحِسَّ نفسُه وتَرفضُّ عندالمحفظاتِ الكتائفُ =

وقال أبو تمام :

شَكوتُ وما الشّكْوَى لِمِثْلِىَ عادةٌ ولكن تَفيضُ الكأسُ عند امتلائها

وقالوا : لايزالُ المرْءُ فى كُربة ووَحْشة مالم يجدْ من يشكو إليه ... ومما يتصل بهذا أن يُخبِرَ المريضُ طبيبَه بكُنْه دائه .

وقال محمود الورّاق :

إذا كتَم الصّديقُ أخاه سراً فما فضْلُ الصديقِ على العدُوّ

عبقريات شتى فى كتمان السر

قال المهَلّبُ بن أبى صُفرة : أدْنى أخلاقِ الشريف كتمانُ السرّ ، وأعْلا أخلاقِه نسيانُ ما أُسِرّ إليه .

ويُروَى أن معاويةَ بن أبى سُفيانَ أسَرّ إلى ابن أخيه عثمانَ بن عنبسة بن أبى سفيان حديثاً ، قال عثمانُ : جِئْتُ إلى أبى فقلتُ : إن أمير المومنين أسَرّ إلىّ حديثاً أفأُحدِّثُك به ؟ قال : لا ، إنه مَن كتَم حديثَه كان الخيار إليه ومن أظهرَه كان الخيارُ عليه ، فلا تجعلْ نفسَك مملوكا بعد أن كنتَ مالكا ، فقلت له : أوَيَدخُلُ هذا بين الرجل وأبيه ؟ فقال : لا ، ولكنّى أكْرَهُ أنْ تذلّلَ لسانَك بإفْشاء السر ! قال : فرجعتُ إلى معاويةَ فذكرتُ ذلك له ، فقال مُعاويةُ : أعتقكَ أخى من رِقّ الخطإ ...

وكان معاويةُ يقول : أُعِنْتُ علىَ علىٍ رحمه الله بأربعٍ : كنتُ رجلا

= « الكنائف : جمع كنيفة وهى السخيمة والحقد والعداوة يقول القطامى : إذا استوحش الرجل من ذى قرابته فاضطغن عليه سخيمة لإساءة كانت منه إليه فأوحشته ثم رآه يضام زال عن قلبه ما احتقده عليه وغضب له فنصره وانتصر له من ظلمه »

أكْتُمُ سِرّى ، وكان رجلا ظُهَرَةً (١) وكنت فى أطْوَعِ جُنْدٍ وأصْلَحِه ، وكان فى أخْبَثِ جُنْدٍ وأعصاه ، وتركْتُه وأصحابَ الجمَلِ وقلت : إنْ ظَفِروا به كانوا أهونَ علىَّ منه ، وإن ظَفِرَ بهم اعتَدَدْتُ بها عليه فى دينه ، وكنتُ أحبَّ إلى قريشٍ منه ...

« وجاء رجلٌ إلى القاضى شُرَيح فكلمه بشىء وأخفاه ، فلما خرج قال له رجـــلٌ : يا أبا أميَّةَ ، ما قال لك ؟ قال : يا ابنَ أخى ، أوَ ما رأيتَه سَتَرَه عنك !

وأسَرَّ رجلٌ إلى صديق له حديثاً فلما آستقْصاهُ قال : أفَهِمْتَ ؟ قال : لا ، بل نَسيتُ ..

وقال عُبيدُ الله بنُ عبدِ الله بنِ عُتْبةَ بن مسعودٍ الفقيه :

إذا كان لى سِرٌّ حَـدَّثْتُه العِدا   وضاق به صَدرى فلَلناسُ أعْذَرُ
هو السِّرُّ ما اسْتُودِعْتَه وكَتَمْتَه   وليس بِسِرٍّ حين يَفْشُو ويَظْهَرُ

ويقال : إذا انتهى السرُّ من الجَنان إلى عَذَبةِ اللسانِ فالإذاعةُ مُسْتَوْليةٌ عليـه ..

وقال عمر بن عبد العزيز : القلوبُ أوعيةٌ للأسْرارِ ، والشِّفاهُ أقفالُها والألْسُنُ مفاتيحُها ، فلْيَحْفَظْ كُلٌّ امرئٍ مِفتاحَ سِرِّه ..

وقال شاعر :

صُنِ السِّرَّ عن كلّ مُسْتَخْبِرٍ   وحاذِرْ فما الحَزْمُ إلا الحَذَرْ
أسِيرُكَ سِرُّك إنْ صُنْتَه   وأنت أسيرٌ له إنْ ظَهَرْ

وقال جَميل بنُ مَعْمَر :

---

(١) ظهرة بضم ففتح : يظهر أمره للناس

أموتُ وألقَى اللهَ يا بثْنُ لم أبُحْ … بسِرِّكِ والمُستَخبِرون كثيرُ

وقال عمر بن أبي رَبيعة :

ولما تلاقَينا عَرفتُ الذي بها … كمِثْلِ الذي بي حَذوَكَ النَّعْلَ بالنَّعْلِ

فقالتْ وأرْخَتْ جانِبَ السِّترِ إنما … مَعِي فتكلَّمْ غيرَ ذي رِقْبةٍ أهْلِي

فقلتُ لها ما بي لهمْ من ترقُّبٍ … ولكنّ سِرّى ليس يَحمِلُه مثلي

«يريد : أنه ليس يَحمِلُه أحدٌ مثلي في صيانتِه وسَترِه ، أي فلا يُبْدِيه لأحد»

وقال شاعر :

اخْفِضِ الصَّوتَ إنْ نَطقْتَ بليْلٍ … والْتفِتْ بالنَّهارِ قبلَ الكلامِ

وقال مسلم بن الوليد صَريعُ الغواني في الكتاب يأتيكَ فيه السر :

الحزمُ تخريقُه إنْ كنتَ ذا حَذَرٍ … وإنما الحزمُ سُوءُ الظَّنِّ بالناسِ

إذا أتاكَ وقد أدَّى أمانتَــه … فاجعَلْ صِيانتَه في بطْنِ أرْماسِ

« أرماس جمع رَمْس وهو القبر ، والمراد إخفاؤه وتَعفِيتُه حتى لا يبقى له أثر »

وقال المعرّى :

فظُنَّ بسائرِ الإخوانِ شراً … ولا تأمَنْ على سِرٍّ فؤادا

وقبله :

نلومُ على تبلدِها قلوباً … تُكابِدُ من معيشتِها جهادا

إذا ما النّارُ لم تُطعَمْ وَقوداً … فأوشِكْ أن تمُرَّ بها رَمادا

فظُنَّ … … … … … … … … … … البيت

وبعده :

فلو خَبَرتْهمُ الجَوْزاءُ خُبْرى … لما طلعَتْ مخافةَ أن تُكادا

عبقرياتهم فى المشورة
والاستبداد بالرأى

المشورة مُشتقة من : شُرْت الدابة : إذا أجريتها لتعرف قوّتها، وهى : استنباط المرء رأىَ غيره فيما يعرض له من الأمور المعضلة . حتى ينبثق له حاق الأمر . . ونعمت العُدَّة هى إذا كان المستشار صديقاً مجرّباً حازماً ناصحاً رابط الجأش غيرَ مُعجب بنفسه ولا مُتلوّن فى رأيه ولا كاذب فى مقاله ـ فإنّ من كذَبَ لسانُه كذَبَ رأيُه ـ فارغ البال حين استشارته :

فأنفعُ مَن شاورْتَ مَن كان ناصِحاً شفيقاً فأبصِرْ بَعدَها من تُشاوِر
وليس بشافيكَ الشفيقُ ورأيُه عزيبٌ ولا ذُوالرأىِ والصدْرواغِرُ [١]

✡ ✡ ✡

وما كُلُّ ذِى لُبٍ بمُؤتيك نُصْحَه وما كلُّ مُؤتٍ نُصحَه بلبيبِ
ولكن إذا ما استَجمَعا عند واحدٍ فحُقّ له من طاعةٍ بنصيبِ [٢]

مدح المشورة

أمرَ اللهُ عزّ وجل نبيَّه صلوات الله عليه بمشاورة من هو دونَه من أصحابه فقال سبحانه : (وشاوِرْهم فى الأمرِ فإذا عزَمْتَ فتوكلْ على الله) ذهَب المفسّرون إلى أن الله تعالى لم يأمُرْ نبيَّه بمشاوَرة أصحابه لحاجة منه إلى رأيهم ولكن ليُعْلَم مافى المشاورة من البركة والنّماء ، وقيل: أمره

(١) عزيب : بعيد غائب

(٢) لأبى الأسود الدؤلى وقوله : فحق له من طاعة بنصيب ، يريد : فهو إذن فى هذه الحالة جدير بأن يطاع وينتصح بنصحه

بذلك تألفاً لهم وتطييباً لنفوسهم، وقيل: لِيَسْتَنَّ بذلك المسلمون ... وقال سبحانه: وأمرُهم شُورَى بينهم

وفى الأثر: والمشاورة حِصْنٌ من الندامة وأَمْنٌ من الملامة وقالوا: ماهَلَكَ امرؤٌ عن مَشورة

وقال عُمَر بن الخطاب: الرأىُ الفَرْدُ كالخَيْط السَّحِيل، والرَّأيان كالخَيْطَيْنِ المُبْرَمين، والثلاثةُ مِرارٌ لايكادُ يُنتقض ...

«السحيل: الخيط غير المفتول، والمِرار: الحَبْلُ الذى أُجيدَ فَتْلُه»

وقالوا: نِصْفُ رأيكَ مع أخيك فاستشِرْه ...

حثهم على مشاورة الحازم اللبيب

قال بَشارُ بنُ بُرْدٍ:

إذا بلَغَ الرأىُ المَشورةَ فاستَعِنْ بعَزْمِ نَصيحٍ أو بتأييد حازِمِ
ولا تجعَلِ الشُّورَى عليك غَضاضةً مكانُ الخَوافى نافعٌ للقَوادِمِ (١)
وخَلِّ الهُوَيْنَى للضعيفِ ولا تكنْ نَؤوماً فإن الحَزْمَ ليس بنائمِ (٢)
وما خيرُ كفٍّ أمسَكَ الغُلُّ أُخْتَها وما خيرُ سَيْفٍ لمْ يُؤيَّدْ بقائمِ (٣)
وأَدْنِ مِنَ القُرْبِى المُقرِّبَ نفْسَه ولا تُشْهِدِ الشُّورَى امرَأً غيرَ كاتِمِ
فإنكَ لا تَستَطْرِدُ الهَمَّ بالمُنَى ولا تَبلُغُ العُلْيا بغيرِ المكارِمِ (٣)

(١) الخوافى: ريشات صغار من الجناح إذا ضم الطائر جناحيه خفيت، والقوادم: الريشات الكبار التى فى مقدم الجناح يقول: إن الضعيف قد يمد القوى بالمعونة

(٢) الهوينى: تصغير الهونى والهونى تأنيث الأهون يقال: إنك لتعمد للهوينا من أمرك: أى لأهونه

(٣) الغل: واحد الأغلال طوق من حديد أو جلد يجعل فى اليد أو فى العنق

(٤) الهم: ما يهم به الرجل أو أجال فكره فيه ليفعله

إذا كنتَ فَرْداً هَرَّكَ الناسُ مُقْبِلا وإن كنتَ أَدْنَى لم تفُزْ بالعزائمِ (١)

وما قَرَعَ الأقوامَ مثلُ مُشَيَّعٍ أريبٍ ولا جَلَّى العَمَى مثلُ عالمِ (٢)

قال الأصمعى : قلت لبشار : إنى رأيت رجال الرأى يتعجبون من أبياتك فى المشورة ؛ فقال : أَمَا علمت أن المشاور بين إحدى الحُسْنَيَيْن : بين صواب يفوز بثمرته أو خَطَإٍ يُشَارَك فى مكروهه ؛ فقلت أنت والله أشْعَرُ فى هذا الكلام منك فى الشعر .

استشارة الكبار والصغار

ومن يُعتمد على مَشورته ورَوِيَّته

كانت العربُ تَحْمَدُ آراء الشيوخ ؛ لتَقَدُّمها فى السن ، ولما مرَّ عليها من التجارِب التى عَرفت بها عواقب الأمور حتى كأنها تنظُرُها عِياناً ، وطرأ عليها من الحوادث التى أوضَحَتْ لها طريق الصواب وبيَّنَتْه تِبيانا ، ولما مُنِحَتْهُ من أصالةِ رأيها ، واستفادَتْه بجميل سَعْيِها ، قال علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه : رأْى الشيْخ خيرٌ من مَشْهَدِ الغُلام . ومن أمثالهم «زَاحِمْ بِعَوْدٍ أوْ دَعْ» (٣)

وقال بعض الحكماء : عليك بمشورة من حلَبَ أَشْطُرَ دهره ، ومَرَّتْ عليه

---

(١) يقال : فلان هرّه الناس إذا كرهوا ناحيته ، والعزائم : الحاجات التى يعتزم المرء فعلها يقول : إذا انفردت برأى نفسك ولم تستعن بآراء ذوى التجارب باعدك الناس وأصغروا من شأنك وإن كنت أدنى القوم شأناً لم تفز بحاجاتك التى اعتزمت عليها .

(٢) المشيع : الشجاع كأنه قد شيع قلبه بما يركب من الأهوال أو بقوة قلبه

(٣) العود : المسن من الإبل أى لا تستعن إلا بأهل السنّ والتجربة فى الأمور

ضروبُ خيره وشره ، وبلغ من العمرِ أشُدَّه ، وأورَتْ التجربة زَنْدَهُ ،

واستشارَ زيادُ بن أبيه رجلا ، فقال الرجل : حقُّ المستشار أن يكون ذا عقلٍ وافر ، واختبار مُتَظاهر ، ولا أراني كذلك .

وقال ابن الرومي يمدح يحيىٰ بن علي المنجم :

أَلْمَعِيٌّ يَرى بأوَّلِ ظَنٍّ آخِرَ الأمرِ من وراءِ المَغيب

لا يُرَوِّي ولا يُقلِّبُ كفاً وأكُفُّ الرجال في تقليبِ

وقال :

تراهُ عَنِ الحَرْب العوانِ بمعْزِلٍ وآراؤه فيها وإن غابَ شُهَّدُ

كما احتجَب المقدار والحكم حُكمه على الخلق طُرّاً ليس عنه مُعَرِّدُ (١)

وقال ابراهيم بن العباس الصُّولي في الفضل بن سهل :

يُمضِي الأمورَ على بَديهَتِهِ وتُريه فكْرَتُه عواقِبَها

فيَظَلُّ يُصدِرُها ويُورِدُها فيَعُمُّ حاضرَها وغائبَها

وإذا الحروب غَلَتْ بعثتَ لها رأياً تفُلُّ به كتائبَها

رأياً إذا نبَتِ السيوفُ مَضَى عَزْمٌ بها فشفَى مَضارِبَها

وإذا الخطوبُ تأثَّلَتْ ورَسَتْ هَدَّتْ فَوَاصِلُه نوائبَها

وإذا جَرَتْ بضميرِه يدُه أبدَتْ بِهِ الدُّنيا مناقِبَها

وقبلهُما قال أوس بن حجر :

الألمعيُّ الذي يَظُنُّ بك الظَّـ ـنَّ كأنْ قَدْ رأى وقَدْ سَمِعَا

وقال عليُّ بنُ أبي طالب في عبد الله بن عباس : إنه ليَنظُر إلى الغَيْب من سِتْر رَقِيق

(١) ليس عنه معرِّد : ليس عنه مهرب

وقال الشاعر :

بصيرٌ بأعقابِ الامورِ كأنما يرَى بصَوابِ الرأى ما هُو واقِعُ

وقال الآخر فى مثله :

عليمٌ بأعقابِ الامورِ برأيِهِ كأنَّ له فى اليَوم عيْناً على الغَدِ

وقال :

بَصيرٌ بأعقابِ الامورِ كأنما يخاطِبُه من كلّ أمْرٍ عواقِبُهْ

وأين مَقَرُّ الحزمِ منه وإنما مَرائِى الامورِ المُشكِلاتِ تجارِبُه

ولقد بالَغوا فى الحَثّ على مُشاورَة ذوى الرأى والتجربة حتى ولوكانوا أعداء، قال ابنُ المقفَّع فى كليلة ودِمْنة : لا ينبغى للعاقل أن يترُكَ استشارة عدوّه ذى الرأى فيما يَشْرَكه ذلك العدوُّ فى نفْعِه وضَرّه ...

وقالوا: اسْتَشِرْ عدوَّك تَعْرِف مقدار عداوتِه ...

وقد رأى قوم خِلاف ذلك وذهبوا إلى أنّ رأىَ الشباب هو الرأى الصائب ، وفهمَهم هو الفهمُ الثاقب ، إذ أن عقولهم سليمةٌ من العوارض ، وآراءَهم خَضِرَةٌ نَضِرةٌ لم يَهْتَصِرْ غُصْنَها هرَم[1] ، ولا أذْوَى زَهْرَتها قِدَم ولاخَبَا من ذَكائِها بِطُولِ المُدّةِ ضرَم . قالوا : إنّ رأىَ الشّيْخ كالزَّنْدِ قد انْثلم ، أما رأىُ الشاب فكالزند الصحيح الذى يُورِى بأيْسَر اقْتداح

وقال الشاعر :

رأيتُ العقْلَ لم يكن انتِهاباً ولم يُقسَمْ على عَددِ السِّنينا

ولو أنّ السنين تَقَسَّمَتْه حَوَى الآباءُ أنصبةَ البَنينا

---

(١) يهتصر الغصن : يقطعه ويكسره من غير انفصال

من يجب أن تجتنب استشارته

قال قُسّ بن ساعدة الإيادى لابنه : لا تُشاوِرْ مشغولا وإن كان حازِماً ولا جائعاً وإن كان فَهِماً ، ولا مَذعوراً وإن كان ناصِحاً ، ولا مَهْموماً وإن كان عاقلا ، فالهَمّ يَعقِلُ العقل فلا يَتولَّدُ منه رأْىٌ ولا تَصْدُقُ به رَوِيَة ...

وقالوا : لا تُدْخِل فى مَشُورَتِك بخيلا فيُقَصِّرَ بفعلِكَ ، ولا جَباناً فيُخوِّفَكَ ، ولا حَريصاً فيَعِدَكَ ما لا يُرْجَى ، وإن البُخلَ والجُبْنَ والحِرصَ طبيعةٌ واحدةٌ يَجمعُها سُوءُ الظنِّ بالله ...

وقالوا : لا تُشاوِرْ مَن ليس فى بيتِه دقيق ...

وكان كسرى إذا أراد أن يستشيرَ إنساناً بَعَثَ إليه بنفقةِ سنةٍ ثم يستشيرُه .

وقال علىٌّ رضى الله عنه : إياكَ ومُشاوَرَةَ النِّساء فرَأْيُهُنَّ إلى أَفْن وعَزْمُهُنَّ إلى وَهْن [1] ... وورَد فى الأثر : شاوِروهُنَّ وخالِفوهُنَّ ...

وجوب نصيحة مستشيرك

قال سيدنا رسول الله : المُستشارُ مُؤْتَمَن ...

وقال صلوات الله عليه : الدِّينُ النصيحة ، قالوا : لِمَن يارسولَ الله ؟ قال : لله ولكتابِه ولرسولِه ولأئمةِ المسلمين وعامَّتِهم ...

« قال ابن الأثير فى النهاية : النصيحة كلمة يُعبَّرُ عن جملةٍ هى : إرادَة الخير للمنصوح له ، وليست كلمةٌ تُعبر عَن هذا المعنى سواها ، وأصل النُّصح فى اللغة . الخُلوص ، يقال : نَصحته ونَصحْتُ له . . هذا : والنصيحة لله : الإيمانُ به

(١) الأفن : النقص ، ورجل مأفون : ناقص العقل ، والوهن : الضعف

وطاعةُ أمرِه واجتنابُ نَهْيِه ، ومُوالاةُ من أطاعه ، ومُعاداة من عصاه وما إلى ذلك مما ترجع عائدته فى الحقيقة إلى العبد ، فهى نصيحة إلى نفسه وكسبُ خيرٍ لها ؛ والنصيحة لكتابه : الإيمان بأنه من عند الله ، وتحليل ما حلله وتحريم ما حرّمه ، والاهتداء بما فيه ، إلى أمثال ذلك ؛ والنصيحة للرسول : تصديقه والاستنان بسُنّته ، إلى آخره ؛ والنصيحة لأئمة المسلمين ـ والمراد بهم أولوا الأمر ـ إعانتُهم على الحق ونصحُهم فى رفق وعدْل ، إلى آخره ، والنصيحة لعامّة المسلمين : إرشادهم إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة » .

وقال حكيم : لا تُشيرَنَّ على عدُوِّك وصديقِك إلا بالنصيحة ، فالصديقُ تقضى بذلك حقّه والعدوُّ يهابك إذا رأى صوابَ رأيك ...

وقال آخر : إذا استشارَك عدُوُّك فجَرِّدْ له النصيحة ، لأنه بالاستشارة قد خرج من عَداوَتِك إلى مُوالاتك . .

ويُروَى : أن زيادَ بنَ أبيه كتب إلى معاويةَ : يا أميرَ المؤمنين ، قد ضبطْتُ لك العراقَ بشمالى وفرَغتْ يمينى لطاعتِك ، فولِّنى الحجازَ ، فبلَغ ذلك الرجلَ الصالحَ عبدَ الله بنَ عُمرَ رضى الله عنه ، ـ وكان مُقيما بمكة ـ فقال : اللهمَّ اشْغَلْ عنا يمينَ زياد ، فأصابه الطاعونُ فى يمينِه ، فجمع الأطباءَ واستشارَهم ، فأشاروا عليه بقطعِها ، فاستَدْعَى القاضىَ شُرَيْحاً وعرَض عليه ما أشار به الأطبَّاءُ ، فقال : لك رِزْقٌ معلوم ، وأجلٌ محتوم ، وإنى أكرهُ إن كانت لك مُدّة أن تعيش فى الدنيا بلا يمين ، وإن كان قد دنا أجلُك أنْ تَلْقَى ربَّكَ مقطوعَ اليدِ ، فإذا سألك لِمَ قطَعْتَها قلتَ : بُغْضاً فى لِقائك ، وفِراراً من قضائك ؛ فمات زيادٌ من يومِه ، فلامَ الناسُ شُريحاً على مَنْعِه من القطع ، لبُغْضِهم زياداً ، فقال : إنه استشارَنى والمُستشارُ مُؤْتمَن ... ولولا

الأمانةُ في المشورة لوَدِدْتُ أن تُقطَعَ يدُه يوماً ورِجلُه يوماً وسائرُ جسدِه يوماً يوماً ...

الحث على قبول النصح وإن كان مُرًّا

قالوا : مَن أحبَّك نهاك ، ومَن أبغضَك أغْراك

وقال بعضُ الحكماء : مَن أَوْجرَك المُرَّ لِتَبرَأَ أشفقُ عليك ممن أوْجرك الحُلْوَ لتَسْقَم . « يقال : أوْجَره الدواء : سقاه إياه . والوَجور : الدواء الذي يصب في الفم »

عتاب من لم يقبل النصح

قالوا : مَن لم يَقبلْ رأيَ أصحابِه وإن أحزَنُوه عاد ضررُه عليه ، كالمريض الذي يَترُكُ ما يَصِفُ له الطبيب ويَعْمِد إلى ما يشتهيه فيَهْلِك . وقال الله تعالى حكايةً عن صالح : « لقد أبْلغتُكم رسالاتِ ربي ونَصحْتُ لكم ولكن لا تُحِبون الناصحين »

وقال العَرْجِيُّ [1] :

عَرَضْتُ نصيحةً مني لِيَحْيَى ... فقال : غَشَشْتَني والنُّصْحُ مُرُّ

ضياع النصح لمن لا يقبله

قال الشاعر : ☆ وما خيرُ نُصْحٍ قِيلَ لا يُتقبَّلُ ☆

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، سمى العرجى لأنه ولد بالعرج في الطائف وقيل : بل كان له فيه مال فكان يكثر الاختلاف إليه فشهر به ، شاعر مطبوع في الغزل والنسيب ، ترجم له صاحب الأغاني (ج ١)

وقال غيره :

إن كان حمدىَ ضاع فى نُصْحِكم   فإنّ أجرىَ ليس بالضائع

وقيل : أخذ رجلٌ ذئباً فجعل يَعِظه ويقول له : إياك وأخذ أغنامِ الناس فيُعاقِبَك الله ، والذئب يقول : خفِّفْ واختصِرْ فقُدَّامى قطيعٌ من الغَنَم لئلا يفوتَنى ...

معاتبة من يستنصح الناس

ويستغش الناصح

قال عبد الله بن هَمَّام السَّلُولىُّ : (١)

وقد يَستغِشُّ المرءُ مَن لا يَغُشُّه   ويأمَنُ بالغيبِ آمرءًا غيرَ ناصِح

وقال أيضا :

ألا رُبَّ مَنْ تَغتَشُّه لك ناصحٌ   ومُؤتمَنٍ بالغيْبِ غيرُ أمين

« تغتشُّه : تعُدُّه غاشًّا لك »

وقال غيره :

نَصَحْتُ فلم أفلِحْ وغشُّوا فأفلَحُوا   فأنزَلَنى نُصحى بشرِّ مكانِ

---

(١) هو القائل :

وأنتَ آمرُؤٌ إما ائتَمَنْتُكَ خاليا   فخُنْتَ وإما قلتَ قولا بلا عِلْمِ

فأنتَ من الأمر الذى كان بيننا   بمنزلة بين الخيانةِ والإثمِ

وكان قد وشى به واش إلى زياد بن أبيه وقال له : انه هجاك ، فقال : أأجمع بينك وبينه ؟ قال : نعم ، فبعث زياد الى ابن همام فأتى به وأدخل الرجل بيتاً فقال زياد : ياابن همام ، بلغنى أنك هجوتنى ، فقال : كلا . أصلحك الله ! مافعلت ولا أنت لذلك أهل ، فقال : إن هذا الرجل أخبرنى ! وأخرج الرجل، فأطرق ابن همام هنيهة ثم أقبل على الرجل وقال هذين البيتين :

وقال يزيدُ بن الحكَم الثقفى [١] من قصيدة جيدةٍ فى بابها [٢] يُعاتِبُ ابنَ عمّه عبدَ الرحمن بنَ عُثمانَ بنِ العاص وأولها :

تُكاشِرُنى كُرْهاً كأنك ناصحٌ
وعَينُكَ تُبْدِى أنَّ صَدْرَكَ لى دَوِى [٣]

لسانُك لى أرْىٌ وغيْبُك عَلْقمٌ
وشرُّكَ مبسوطٌ وخيرُكَ مُنْطَوِى [٤]

تُصافِحُ مَن لاقيْتَ لى ذا عَداوةٍ
صِفاحاً وعَنِّى بين عينيْكَ مُنزَوِى [٥]

تُفاوِضُ مَن أطْوِى طَوَى الكَشْحِ دونَهُ
ومِنْ دونِ مَنْ صافيْتُه أنتَ مُنْطَوِى [٦]

الناصح متهم

من أمثالهم : المبالغة فى النصيحة تهْجمُ بك على عظيم الظِّنّة . « الظِّنّة : التُّهْمة » وقال أكثمُ بنُ صَيْفِيّ : إياكم وكثرةَ التَّنصُّح فإنه يورثُ التُّهْمة . « التنصُّح : كثرة النصح » وقال قائلهم :

* وقد يَستفيدُ الظِّنّةَ المُتنصِّحُ *

---

(١) شاعر إسلامى فحل ، ترجم له صاحب الأغانى ج ١١ ساسى

(٢) انظرها فى الأمالى والخزانة

(٣) يقال : كاشر الرجلُ الرجل إذا كشر كل واحد منهم لصاحبه ، وهوأن يبدى له أسنانه عند التبسم ، وكرهاً : بضم الكاف وفتحها مصدر وضع موضع الحال ، والدوى وصف من الدوى بالفتح : المرض ودوى صدره : ضغن

(٤) الأرى : العسل ، والعلقم : الحنظل

(٥) وغي يروى وحقدى ، وزوى ما بين عينيه : قبضها

(٦) فاوضه : أظهر له أمره . وأطوى ضد أنشر ، والطوى : الجوع يقول : تظهر أمرك لمن أخفى عنه جوعى أى تنبسط فى الكلام عند عدوّى لا أظهره على شىء من أمورى ، وتنقبض عن أصدقائى ولا تظهرهم على شىء من أمرك نكاية فىّ .

وشاوَر المأمونُ يَحيىٰ بنَ أكْثم، فكان الرأىُ مخالفاً لِهوى المأمون، فقال يحي: ما أحدٌ بالَغ فى نصيحة الملوكِ إلا استغشُّوه، قال: ولِمَ يايحي؟ قال: لِصَرْفِهِ لهم عما يُحبُّون إلى ما لعلَّهم يَكرَهون فى الوقْتِ! والهوى إلهٌ مَعْبود!

وصف غاش فى نصحه

من أمثالهم فى الذى يَنصَحُ القومَ وهو غاش: «أنت شَوْلةُ الناصِحةُ» قال ابن السِّكِّيت: كانت شولة أَمَةً رَعْناءَ تَنْصَحُ لمواليها فتعودُ نَصيحتُها وبالا عليهم، لحُمقِها.

وقال معاويةُ يوماً لعَمْرو بن العاص: هل غَشَشْتنى مُذ استنْصَحْتُك؟ قال: لا، فقال: ولا يومَ أشرْتَ علىَّ بمبارَزةِ علىّ وأنت تعلمُ مَن هو؟ فقال: كيف وقد دعاكَ رجلٌ عظيمُ الخَطر كنتَ من مُبارَزَتِه إلى إحْدَى الحُسنيَيْن!! إن قتلْتَه فُزتَ بالمُلْكِ وازددْتَ شرَفاً إلى شرف، وإن قتَلكَ تعجَّلْتَ من الله تعالى ملاقاة الشهداء والصِّديقين! فقال: وهذه أشدُّ من الأولى! فقال: أوَ كنتَ من جهادِكَ فى شكٍّ؟ فقال: دَعْنى من هذا ....

وقال شاعر:

أعاذِلَ إنَّ نُصْحَكِ لى عَناءٌ   فحَسْبُكِ قد سمِعْتُ وقد عَصَيْتُ

الاستبداد وكراهة المشورة

ومِنَ الناس مَن آثر الاستبدادَ برأيه وكَرِه أن يستشيرَ، قال المُهلّب ابن أبى صُفْرَة: لوْ لَمْ يكن فى الاستبداد بالرأى إلا صونُ السِّرِّ وتوفيرُ

العقل لوجب التَّمَسُّكُ به ... وقال عبد الملك بن صالح : ما استَشَرْتُ أحداً قطُّ إلا تكَبَّر عليَّ وتصاغرْتُ له ، ودخلَتْه العِزَّةُ ودخلَتْنى الذِّلة ؛ فعليك بالاستبدادِ ، فإن صاحبَه جليلٌ فى العُيون ، مَهِيبٌ فى الصدور ؛ واعلم أنك متى استشرت تضَعْضَعَ شأنُك ، ورَجَفَتْ بك أركانك ؛ وما عَزَّ سلطانٌ لم يُغنِه عقْله عن عقولِ وُزرائه ، وآراءِ نصحائه ؛ فإياك والمشورةَ وإن ضاقَتْ عليك المذاهب ، واشتبهَتْ لديك المسالك .

ورَوَوا : أن أبا جعفرٍ المنصور كان يَسْتَشِير أهلَ بيته حتَّى مدحه ابن هَرْمَة [1] بقوله :

يَزُرْنَ امرَاً لا يُصْلِحُ القوْمُ أمرَه
ولا يَنْتَجِى الأدْنَيْنَ فيما يُحَاوِلُ [2]

فاستوى جالساً وقال : أصبتَ والله ! واستعادَه ، وما استشار بعدها .

وقال بعضُ جُلساء هارونَ الرشيد . أنا قتلتُ جعفَر بن يحيى البرمكى وذلك أنى رأيت الرشيد يوماً وقد تنفَّس تنفُّساً مُنْكراً فأنشدت فى إثر تنفسه :

واسْتَبَدَّت مرةً واحدةً إنما العاجزُ من لا يستبِدْ [3]

فأصغى إليه واستعاده ، ثم قتل جعفراً ...

---

(١) هو إبراهيم بن على بن سلمة بن هرمة ، من متقدمى الشعراء وممن أدرك الدولتين الأموية والهاشمية ترجم له صاحب الأغانى « ج ٤ »

(٢) انتجاه : إذا أفضى إليه بسره وخصه به

(٣) لعمر بن أبى ربيعة وقبله :

ليت هِنداً أنجزتنا ما تَعِدْ وشَفَتْ أنفُسَنا مما نجد

وكانت الفُرْسُ والرُّومُ مُخْتَلِفِيْن فى الاستشارة ، فقالت الروم : نحن لا نُمَلِّكَ من يحتاج إلى أن يستشيرَ ، وقالت الفُرْسُ : ونحن لا نُمَلِّكُ من يستغنى عن المشاوَرَة ؛ وقد فُضِّل الفُرْسُ لقوله تعالى « وشاوِرْهم فى الأمر » .

المتفادى من أن يُستشار

ومن الناس من يَكْرَه أن يُشير :

استشارَ عبدالله بن عليّ عبدَ الله بن المُقَفَّع فيما كان بينَه وبين أبى جعفر المنصور ، فقال ابنُ المقفع : لَسْتُ أقودُ جيشاً ، ولا أتقلَّدُ حرْباً ، ولا أُشِير بسفْكِ دم ، وعَثْرَةُ الحرْب لا تُستقال ، وغيرى أولى بالمشورة فى هذا المكان ...

واجتمع رؤساءُ بنى سعد إلى أكْثَم بن صيْفِيّ يستشيرونه فيما دهمهُم يوم الكُلَاب ، فقال : إنّ وَهْنَ الكِبَر قد فشا فى بدنى ، وليس معى من حِدَّةِ الذهن ما أبتدئُ به الرأى ، ولكن اجتمِعوا وقولوا ، فإنِّى إذا مَرَّ بى الصوابُ عرفته .

الأناة والروية والعجلة

مدح الأناة والروية وذم العجلة

وكانوا يَمدحون الأناةَ فى الرأى وإجالةَ الفِكْرَة فيه وعدمَ التسرُّع .

كان عبدُ الله بنُ وهْبٍ الراسبيُّ يقول : إيّاىَ والرأىُ الفَطِير ! وكان يستعيذُ بالله من الرأيِ الدَّبَرِيّ .

« الفطير : كلُّ ما أُعْجِل عن إدراكه ، تقول : فَطرْتُ العجينَ ، وهو

أن تَعْجِنَهُ ثم تختبزَه من ساعَتِه . والدَّبَرِى : الذى يسنح بعد الفَوْتِ يقال : شَرُّ الرأى الدَّبَرِىّ ، وهو الذى يَسْنَحُ أخيراً عِنْد فوْتِ الحاجة ، أى أنّ شرَّه إذا أدْبَرَ الأمرُ وفات ، ومن ذا قولهم : عَرَف الأمرَ تدبُّراً ، أى بأَخَرَة قال جرير :

ولا تتَّقون الشَّرَّ حتى يصيبَكم ولا تعرفون الأمر إلا تدبُّرا

ويقال : إن فُلاناً لو استقبَل من أمره ما استَدْبَره لَهُدى لوِجْهَةِ أمرِه ، أى لو علم فى بدْءِ أمْرِه ما علِمَه فى آخِرِه لاسْتَرْشَد لأمره »

وكان عامرُ بنُ الظَرِب حكيمُ العرب يقول : دعوا الرأى يَغِب حتى يختَمِر ، وإياكم والرأىَ الفطير ! يريد الأناة فى الرأى والتثبُّتَ فيه

وقال الشعبى — عامر بن شراحيل — : أصابَ مُتَأَمِّلٌ أو كاد ، وأخطأ مُسْتَعْجِلٌ أو كاد « المُتأمّل : المُتَثَبِّت تقول : تأمل فلان : إذا تثبَّت ونظر فى الأمر »

وقال شاعر :

تأنَّ وشَاوِرْ فإن الأمو رَ منها مُضِيءٌ ومُسْتَغْمِضُ

فرأيانِ أفضَلُ من واحد ورأىُ الثلاثةِ لا يُنْقَضُ

وقال المتنبى :

الرأىُ قبلَ شجاعةِ الشُجعانِ هو أوّلٌ وَهْىَ المحَلُّ الثانى

فإذا هما اجتَمَعا لنفسٍ مُرةٍ بَلَغَتْ من العَلْياءِ كُلَّ مكانِ [1]

ولَرُبَّما طَعَن الفَتَى أقْرانَهُ بالرأىِ قبلَ تطاعُنِ الأقرانِ

---

(١) لنفس مرة : من المرارة ، وتروى مرة بكسر الميم : القوة والشدة ، وأصل المرة إحكام الفتل يقال : أمرّ الحبل إمرارا ، وتروى : حرة

لولا العقولُ لكان أدْنَى ضَيْغمٍ أدنى إلى شرف من الإنسانِ (١)
ولما تفاضلتِ العقولُ ودبَّرَتْ أيْدِى الكُماةِ عَوالِىَ المُرّانِ (٢)

وفى الأثر : ما دَخل الرفْقُ فى شىء إلا زانَه ، ولا الخُرق إلا شانَه .

وقال القطامى :

قد يُدْرِكُ المُتأَنِّى بعْضَ حاجتِه وقد يكونُ مع المُسْتعْجِلِ الزَّلَلُ

وقال :

وخيرُ الأمرِ ما اسْتقْبَلْتَ منه وليس بأن تَتَبَّعَهُ اتِّباعا (٣)

وقبـــله :

ومعصـــية الشَّفيقِ عليك ممـا يَزيدُك مرة منه اسْتِماعا (٤)

مدح العجلة وانتهاز الفرص

وهناك من الخطوب ما تُمدَحُ فيه العَجَلة :

قيل لأبى العَيناء : لا تَعْجَلْ فالعَجلةُ من الشيطان ! فقال : لو كان ذلك كذلك لما قال نبىُّ الله موسى « وعَجِلْتُ إليك رَبِّ لِتَرْضَى »

وقال معاوية : مامِن شىءٍ يَعْدِلُ التثبُّتَ ! فقال الأحنف بن قيس : إلا أن تُبادِرَ بالعملِ الصالحِ أجلك ...

(١و٢) الضيغم : الأسد والمراد بأدنى ضيغم : أدون وأخس ، وأدنى إلى شرف : أقرب ، والعوالى : صدور الرماح ، والمران : الرماح اللينة ، والكماة جمع كمى وهو البطل المشتمل بالسلاح

(٣) يقول : خير الأمر ما قد تدبرت أوله فعرفت إلام تؤول عاقبته ، وشره ماترك النظر فى أوله ، وتتبعت أواخره بالنظر

(٤) يقول : اذا عصيت الشفيق عليك الحريص على رشدك تبينت فى عواقب أمرك الزلل فزادك حرصاً على أن تقبل نصحه .

وقالوا : المتأنِّى فى علاجِ الدَّاء ، بعد أنْ عرف الدواء ، كالمتأنى فى إطفاء النار وقد أخذت بحَواشى ثيابِه ...

وسأل أبو علىّ البصيرُ بعضَ الأمراء حاجة : فقال له : رُحْ إلى وقتِ العصْرِ ، فجاء وقتَ الظُّهر ، فقال : ألم أعِدْكَ وقتَ العصر ؟ فقال : نعم ، ولكن رأيتُ الإفراطَ فى الاستظْهارِ أحْمَدَ من الاستظهارِ فى التوانى ... « والاستظهار هنا معناه : الاحتياط والاستيثاق »

ومن قولهم فى انتهاز الفرص : الهَيْبة خَيْبة والفُرصة تمُرُّ مَرَّ السحاب ... وقالوا : انْتَهِز الفُرصة قبل أن تعودَ غُصَّة . وقالوا : الافتراصُ اقْتِناص ...

عبقريات شتى فى المشورة

قال عبد الله بنُ معاويةَ بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب — شاعر ضخم أدرك الدولة العباسية — :

إذا كنتَ فى حاجة مُرْسِلا ... فأَرسِلْ حكيما ولا تُوصِه
وإنْ بابُ أمرٍ عليك الْتَوَى ... فشاوِرْ لَبيباً ولا تَعْصِه
ولا تَنطِقِ الدهرَ فى مجلسٍ ... حديثا إذا أنتَ لم تُحْصِه
ونُصَّ الحديثَ الى أهلِه ... فإنَّ الوثيقةَ فى نَصِّه [1]
وإنْ ناصحٌ منك يوماً دَنا ... فلا تَنْأَ عنه ولا تُقْصِه
وكم من فتًى شاخص عقلُه ... وقد تَعجَبُ العينُ من شخصِه
وآخَرَ تحْسَبُه جاهلا ... ويأتيك بالأمرِ من فَصِّه [2]

(١) نص الحديث : رفعه وأسنده ؛ والوثيقة فى الأمر : إحكامه والاخذ بالثقة

(٢) فص الأمر : أصله وحقيقته تقول : أنا آتيك بالأمر من فصه ، يعني : من مخرجه الذى قد خرج منه

وقال ابنُ المقفّع : لا يُقْذَفَنَّ فى رُوعِكَ أنك إذا اسْتَشَرْتَ الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأى غيرك فتنقَطعَ بذلك عن المشورة ، فإنك لاتريد الرأى للفخرِ ولكن للانتفاع به ، ولو أنك أردْت الذكر لكان أحسنُ الذِّكر عند الألبَّاءِ أن يُقال : لا ينفرِدُ برأيه دون ذوِى الرأى من إخوانِه ...

ولما سار سيدنا رسول الله إلى قُريشٍ فى غَزاة بدْر نزل صلى الله عليه وسلم أدْنى ماءٍ من مياه بدْر ، فقال له الحبَاب بنُ المُنْذِر : يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل أمنزِلٌ أنزلَكَهُ اللهُ عز وجل ليس لنا أن نتقَدَّمه ولا أن نتأخر عنه ، أم هو الرأىُ والحربُ والمكيدة ؟ قال : « بل هو الرأىُ والحربُ والمكيدة » ؛ فقال : يارسول الله ، فإن هذا ليس لك بمنزل ، فانهضْ بالناس حتى نأتىَ أدْنى ماءٍ من مياهِ القوم فننزلَه ، ثم نُعَوِّرَ [1] ما سواهُ من القُلُبِ ، ثمَّ نبْنِىَ عليه حوْضاً فنمْلأهُ ماءاً ، ثمَّ نُقاتِلَ القومَ فنَشْرَب ولا يشْرَبوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقدْ أشرْتَ بالرأى » وفعلَ ما أشارَ به الحُبَاب .

وفى حديث أبى هريرةَ : مارأيتُ أحداً أكثر مشورة لأصحابه من النبي صلى الله عليه وسلم ... « أقول : وإنما كان يشاوِرُهم — كما قال علماؤنا — فيما ليس فيه نصٌّ ، وفى أمور الدنيا ، ومن ظنَّ أنَّهُ كان يشاورُهم فى الأحكام فقد غفل غفلةً عظيمة كما قال الأئمة ، وكذلك إنما كانت المشاورة قبل العزم والتبيُّنُ ، فإذا عزم الرسول لم يكن لِلبَشرِ التّقَدُّمُ على الله ورسوله ، قال العلماء : فلقد شاورَ النبي أصحابه يوم أُحدٍ فى المُقام

(١) عور الركية : كبسها بالتراب حتى تنسد عيونها

والخروج ، فرأَوْا له الخروج ، وكان صلوات الله عليه يرى أن يُقيمَ بالمدينة فيقاتلهم فيها ، فما زالوا برسول الله حتى لبِسَ لأْمَتَه [١] فلما لبسها نَدِموا وقالوا : يارسول الله أقِمْ فالرأيُ رأيُك ، فلم يَمِلْ إليهم بعد العزم وقال : لا ينبَغِي لنبي يلبَسَ لأْمَتَه أن يضعَها حتى يحْكُمَ الله ... وكذلك كان الخلفاء الراشدون يستَشِيرون الأُمناءَ من أهلِ العلم فى الأمور التى لم يكن فيها نَصٌّ بحُكمٍ مُعَيَّنٍ ليأخُذُوا بأيْسَرِها ، فإذا وَضَحَ الكتابُ والسنة لم يتعدَّوه إلى غيره ، فقد كان أبو بكر رضى الله عنه إذا ورَد عليه أمرٌ نَظَر فإن وجد فى كتاب الله أو سُنَّةِ رسوله ما يَقْضِى به قضى وإلا دعا رؤس المسلمين وعلماءَهم واستشارهم ، وكذلك كان يفعل الفاروق وسائر الخلفاءِ رضى الله عن الجميع »

قالوا : وكانت الرومُ والفُرْسُ لايجمعون وُزرَاءهم على الأمْرِ يستشيرون فيه ، وإنما كانو يسْتَشِيرون الواحِدَ مِنْهُم من غير أن يعلمَ الآخرُ به ؛ وذلك لمَعانٍ : مِنْها أن لايقعَ بين المُستَشارِينَ مُنافَسةٌ تذهب بأصالةِ الرأيِ وصحةِ النظر ، لأن من طِباع المشتركين فى الأمر التنافُسَ والتغالُبَ والطَّعْنَ من بعضِهِمْ على بعْض ، وربما أشار أحدُهم بالرأى الصواب وسبق إليه فحسده الآخرون فتعقَّبُوه بالإعراض والتأويل والتَّهْجين وكدروه وأفسدو ومنها أن فى اجتماعهم على المشورة تعريضَ السر للإضاعةِ والإفشاء والإذاعة ولذلك قالت الفُرْسُ : إنما يُرَاد الاجتماع والكَثْرَةُ والتناصُرُ فى الأمور التى يُحْتاج فيها إلى القوة ، أما الأمورُ الغامضة فإن الاجتماعَ يُفسِدُها ويُوَلِّدُ فيها التضاغُنَ والتَّنافُس ...

وجاء فى كتاب للهند : أنَّ ملكا استشارَ وُزراء له ، فقال أحدُهم :

(١) أداة الحرب من درع وبيضة وغيرهما من السلاح

الملك الحازمُ يزدادُ برأيِ الوزراء الحزَنة كما يزدادُ البحرُ بموادِّه من الأنهار وينال بالحزم والرأى ما لا يناله بالقوة والجنود ؛ وللأسرار منازلُ : منها ما يدْخُلُ الرهْطُ فيه ، ومنها ما يُستعان فيه بقوم ، ومنها ما يُسْتَغْنَى فيه بواحد وفى تحصين السر الظَّفر بالحاجة والسلامةُ من الخَال ، والمُستشير وإن كان أفضلَ رأياً من المُشير فإنه يزداد برأيه رأياً كما تزداد النارُ بالسّليط ضَوْءاً [١] ؛ وإن كان الملِكُ مُحَصِّناً لسِرِّه بعيداً من أن يُعرَف ما فى نفسه مُتَخَيِّراً للوُزَرَاء مَهِيباً فى أنفُسِ العامّةِ كافياً بحُسْن البلاء لايخافُهُ البرىء ولا يأمَنُه المُرِيب مُقَدِّراً لما يُفيد وينفق ، كان خليقاً لبقاءِ مُلكه . ولا يصْلُح لسرِّنا هذا إلا لسانان وأربعُ آذانٍ . ثم خلا به ...

☆ ☆ ☆

(وبعد) فإن دولة الاستبداد قد أُديل منها فى هذه الأجيال وشال أمرها فى الميزان ، ورجحت كِفَّة الشورى ونفقت سُوقها ، وخطت فى عصرنا هذا خُطُوَاتٍ رغيبةً مُوَفَّقَةً ، وعمّت أكثر الأمم التى أعرقت فى الحضارة ، وظهر أن مجالسَ الشورى على عِلاتها هى خيرُ ألوان الحُكم ، ومَن الذى يقول إن الاستبداد أو الحكم المطلق الذى لا رِقبة عليه هو أفضل من الشورى أيّاً كان لونها ! اللهم إلا رَجُلٌ أحمق مأفون ليس بثاقب الرأى ، وإذا كانت الشورى لا تعرى من العيوب فأين لا أين الخير مَحْضاً والكمال صرفاً ...

---

(١) السليط : الزيت والمراد زيت المصباح

عبقرياتهم فى الوعظ
والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

ومما يتصل بهذا الباب عبقرياتهم فى الوَعْظِ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فلنورد لك صدراً من ذلك إن شاء الله

نهى من لم يتعظ عن الوعظ

قال رجلٌ لعلىِّ بن أبى طالب رضى الله عنه : عِظْنِي وأوْجِزْ ، فقال : تَوَقَّ ما تَعِيب .

وجاء رجل إلى عبد الله بن عباس رضى الله عنه فقال : إنِّى أريد أن أعِظ ، فقال : أوَ بَلَغْتَ ذلك ! إن لم تخش أن تفتَضِح بثلاث آياتٍ من كتاب الله فافعَلْ ، قال : ماهى ؟ قال : قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون ! كَبُرَ مَقْتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون» وقوله تعالى : «أتأمرون الناس بالبرِّ وتَنْسَوْنَ أنفُسَكُمْ » ، وقول العبد الصالح شُعيب « ما أُريد أن أُخالِفَكُمْ إلى ما أنهاكم عنه » أأحكَمْتَ هذه الآيات ؟ قال : لا ، قال : فابدأ إذن بنفسك .

وقال شاعر :

يا واعِظَ الناسِ قد أصبَحْتَ مُتَّهَماً ... إذْ عِبْتَ منهم أموراً أنت تأتِيها
كَمَنْ كسا الناس مِن عُرْيٍ وعورَتُهُ ... للناسِ بادِيةٌ ما إنْ يُوَارِيها

حثهم على الوعظ بالفعال دون المقال

قال بعضهم : ليس الحكيم الذى يُلَقِّنُك الحِكمة تلقينا ، إنما الحكيم

الذى يعملُ العَمَل الحكيم فتقْتَدِى به .

وقال آخر : أخْذُ المرءِ نَفسَه بحُسْنِ الأدب تأديبٌ لأهْله .

ومن هذا يقول محمود الورّاق :

رأيتُ صلاحَ المرْءِ يُصْلِحُ أهلَهُ ويُعْدِيهُمْ داءُ الفسادِ إذا فَسَدْ

التلطف واللين فى الوعظ

تَصدَّى رجل للرشيد فقال : إنِّى أُريد أن أُغْلِظَ عليك فى المقال ، فهل أنت مُحْتَمِل ؟ قال : لا ؛ لأن الله تعالى أرْسل من هو خيرٌ مِنْكَ إلى من كان شرًّا منى ، وأمره باللِّين ، فقال تعالى : « فقولا له قولا لَيِّناً لعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أوْ يَخْشَى »

وقالوا : واجِبٌ مَن يَعِظُ أن لا يَعْنُفَ ، ومَن يُوعَظُ أن لا يأنَف

الحث على الاتعاظ

قالوا : السعيد من وُعِظ بغيره والشَّقِىُّ من وُعِظ به غيره . وقالوا : مَن لم يتّعظ بغيره وعَظَ الله به غيره .

وعظ من لا يتعظ

قالوا : لا يَنْجَحُ الوعظُ فى القلوب القاسية ، كما لا يزكو البَذر فى الأرضِ الجاسية .

وقالوا : صَقْلُكَ سيفاً ليس له سِنْخٌ[1] تعَب ، وبَذْرُكَ أرْضاً سَبِخة نَصَب .

---

(١) السنخ : الأصل من كل شىء تقول : رجع فلان إلى سنخه الكريم وإلى سنخه الخبيث

وقالوا : من استثقل سماع الحق فهو للعمل به أكثرُ استثقالا ...

حثهم على قبول وعظ من ليس بمتعظ

قالوا : لا يَمْنَعَنَّكُمْ سوءُ ما تعلمون عنا أن تعملوا بأحسن ما تسمعون منا .

وورد فى الأثر : مُرُوا بالمعروف وإن لم تعملوا به ، وانْهَوْا عن المنكر وإنْ لم تَنْتَهُوا عنه :

وقال الحسنُ البَصْرِىُّ يوماً لبعض الصالحين : عِظْ أصحابَك ، فقال له : إنِّى أخاف أن أقول مالا أفعلُ ، فقال له : يَرْحَمُكَ الله ، وأَيُّنا يقول ما يفعل ! يَوَدُّ الشيطانُ أنه ظَفِرَ بهذه منكم فلم يأمر أحدٌ بمعروف ولم يَنْهَ عن مُنكر ...

النهى عن الاقتداء بذوى الزلات

قال بعض العلماء : إياك والاقتداءَ بزَلاتِ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فتقول : فلانٌ شرب النبيذ ، وفلان سمع الغِناء ، وفلانٌ لعب بالشِّطْرَنج فيخرُجَ منك فاسِقٌ تامّ ... وقالوا : من أخذ برُخْصةِ كلِّ فقيه خرج منه فاسق ...

الحث على الأمر بالمعروف والحال التى يجوز فيها

قال الله تعالى : « وَلْتَكُنْ مِنْكُم أُمَّةٌ يَدْعُون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ويَنْهَوْنَ عن المُنكر وأولئك هم المُفلحون »[1]

(١) قال الإمام البيضاوى فى تفسيره : مِن فى منكم للتبعيض لأن الأمر

وقال سيدنا رسول الله : «مَن رأى منكم منكراً واستطاع أن يُغَيِّرَه بيده فليُغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعفُ الإيمـان .

وفى الأثر : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده عمَّهم الله بعقابه .

وأما قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسَكم لا يضُرُّكم مَن ضلَّ إذا اهتديتم » فقد قال الإمام البيضاوى : قوله : عليكم أنفسَكم ، أى احفظوها والزموا إصلاحها ، ولا يضركم ... الآية : أى لا يُضُرُّكم الضلال إذا كنتم مُهتدين ، قال : ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته ، وقال : نزلت هذه الآية لمّـا كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنّون إيمانهم ، وقيل كان الرجل إذا أسلم قالوا له : سَفَّهْتَ آباءَك ، فنزلت »

وقال الراغب الأصبهانى : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلوات الله عليـه : ائتمروا بالمعروف وتناهَوا عن المنكر ، وإذا رأيت شُحّاً مُطاعاً وهَوًى مُتّبعاً وإعجابَ كلِّ امرئ برأيِه فعليك بخُوَيْصَّةِ نفسِكَ

بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية ، ولأنه لا يصلح له كل أحد إذ للمتصدى له شروط لا يشترك فيها جميع الأمة ، كالعلم بالأحكام ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها والتمكن من القيام بها ، خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم ليدل على أنه واجب على الكل حتى لو تركوه رأساً أثموا جميعاً ، ولكن يسقط بفعل بعضهم ، وهكذا كل ماهو فرض كفاية ثم قال : والدعاء إلى الخير يعم الدعاء إلى مافيه صلاح دينى أودنيوى ، وعطف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عليه عطف الخاص على العام للإيذان بفضله

ودَعْ أمْرَ العَوامّ [١] ، ثم قال الراغب : وقال أكثر المتكلمين : لا يجوز ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى كلّ موضع ، لكن مَن علم أوظن أنّ قوله يَنْفُذُ وأن لا يناله مكروه إذا أمرَ أو نهى فعليه أن يفعل ذلك ، ومتى خافَ على نفسه فعليه أن يُنكرَ المنكر بقلبه دون لسانه ...

---

(١) خويصة : تصغير خاصة بسكون الياء لأن ياء التصغير لاتكون إلا ساكنة وجوز التقاء الساكنين فيها أن الأول حرف لين والثانى مدغم ، وعليك بخويصة نفسك : جاهد نفسك وانكمش فى الأعمال الصالحة ، ثم قال : ودع أمر العوام يريد : دع السواد الأعظم فيما هم فيه سادرون

الباب الخامس

فى

الحلم وكظم الغيظ

والعفو والغضب والانتقام

وما إلى هذه المعانى

والحلم كذلك لونٌ من ألوان الصبر ، أليس هو تجرُّعَ الغيظ أو إمساكَ النفس عن ثورةِ الغضب وهيْجِه وانبعاثه ؛ وهو فضيلة عليا ما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلَقَّاها إلا ذو حظٍ عظيم[1] ومن كلام النُّبُوَّة : كادَ الحليم أن يكون نبيًّا . وهو نِتاجُ العقل والأناة ، أو قُلْ : إنه هُما . قال عَزَّ وَجَلَّ يَذُمُّ الكُفَّار مُتَعَجِّباً منهم : « أمْ تأمُرُهم أحلامُهم بهذا ! »

وسأل عليٌّ رضى الله عنه كبيرَ فارِسَ عن الغالِبِ كان على كِسْرَى أنو شروان ؛ قال : الحلم والأناة ، قال : هما توأمانِ يَنْتِجهما عُلُوُّ الهِمَّة

وقال الشاعر :

لَنْ يُدْرِكَ المَجْدَ أقوامٌ وإن كَرُمُوا
حتى يَذِلُّوا — وإن عزُّوا — لأقوام
ويُشْتَمُوا فترى الألوانَ مُسْفِرةً ... لاصفحَ ذُلٍّ ولكن صَفْحَ أحْلام[2]

---

(١) آية كريمة هى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىٌّ حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم

(٢) مسفرة : مشرقة مضيئة سرورا

قالوا : ولن يَتِمَّ حِلمُ الإنسانِ إلا بإمساكِ الجوارح كلِّها : اليدِ عن البَطْشِ، واللسان عن الفُحْش، والعينِ عن النظَر الشَّزْر، وأقربُ لفظ يقابل الحِلم هو التذمُّر. وقال أبو هلالِ العسكرى : ومِنْ أشرفِ نُعُوتِ الإنسان أن يُدْعى حليما، لأنه لا يُدْعَاه حتى يكون عاقلا وعالما ومُصْطَبِراً وعَفوًّا وصافحاً ومحتملا وكاظما، وهذه شرائف الأخلاق وكرائم السجايا والخصال.

والحلمُ: منه ماهو غريزىٌّ، وهو هِبةٌ من الله لعبده يَعْفُو عمَّن ظلَمه، ويَصِلُ مَنْ قَطَعَه، ويُحْسِنُ إلى مَن أساء إليه، يَصْدُرُ فى ذلك عن نحيزة كريمة وغريزة سليمة وصدرٍ سالِم من الغوائل والأذى، صافٍ من شوائب الكدر والقَذَى، وهذا هو الحلم الذى لا يُستطاعُ تعلما ولا يُكتَسَبُ تحلماً :

وإذا الحِلْمُ لم يكن فى طِباعٍ   لم يُحَلِّم تقادُم الميلاد   [المتنبى]

رُوِى أن سيدَنا رسولَ الله قال لأَشَجِّ عبد القَيْس : يا أبا المنذِر، إنَّ فيك خَصْلتَيْنِ يرضاهما اللهُ ورسولُه : الحلمُ والأناةُ، فقال : يارسولَ الله، أشىءٌ جَبَلَنى اللهُ عليه أم شىء اخترعْتُه من قِبَل نفْسى ؟ قال : « بل شىء جبلك الله عليه »، قال : الحمد لله الذى جَبَلَنى على خُلُقٍ يرضاه اللهُ ورسوله.

وهناك من يقولُ : إن الحِلمَ ليس غريزةً ولا طبيعةً بل مُكتَسَبٌ مستفاد. وأيا كان الحال فليس من يُنكِر أن من الحلم ماهو غريزىٌّ كما قلنا، كما أن هناك حِلْماً يُكْتَسَبُ بالتَّحلُّم كما أن العلمَ بالتعلم

قال حاتم :

تحلَّمْ عن الأدْنَيْنَ واستَبْقِ وُدَّهم   فلن تستطيعَ الحِلمَ حتى تحلَّما

يُروَى أنه كان عند جعفرٍ الصادِق رضى الله عنه عبْدٌ سيِّئُ الخُلُق، فقيل له : أما تأنَفُ مثل هذا عندك وأنتَ قادرٌ على الاستبدال به ؟ فقال :

إنما أتركه لأتعلَّم عليه الحلم ...

وقال الشاعر :

وليس يَتِمُّ الحلمُ للمرءِ راضِياً إذا هو عند السُّخْطِ لمْ يَتَحلَّمِ
كما لا يَتِمُّ الجُودُ للمرءِ مُوسِرًا إذا هو عند القَتْرِ لمْ يَتَجَشَّمِ

[يتجشم : يَتذمَّم ويَستحى]

وهناك حلم حادث عن الكِبْر والعجرفة ، لا يَرى المُسيءَ أهْلا أن يُجارِيَه ، كما أن هناك حِلمَ مَهانةٍ وذِلة وعجز وضَعْف نفس وصِغر هِمَّة

الممدوح بالحلم وتمدّحهم به

قال مِهيار الديلمى :

وإذا الإباءُ المُرُّ قال لكَ : انتَقِمْ قالت خَلائِقُكَ الكرامُ : بلِ احْلُمِ
شَرْعٌ منَ العَفْوِ انفَرَدْتَ بدِينِه وفضيلةٌ لِسواكَ لم تَتقدَّمِ
حتى لقد وَدَّ البَرِيءُ لَوَ انّهُ أدْلَى إليك بفضْلِ جاهِ المُجْرِمِ

وقال بعضُهم :

فَدَهْرَهُ يَصْفَحُ عن قُدْرَةٍ ويَغفِرُ الذَّنْبَ على عِلْمِهِ
كأنه يأنَفُ من أن يَرَى ذنبَ امرئٍ أعظمَ من حِلْمِهِ

وقال المتنبي :

وأحْلُم عن خِلِّي وأعلمُ أنّهُ متى أجْزِه حلماً على الجَهْلِ يَنْدَمِ

وقال سالم بن وابِصة [1] :

---

(١) شاعر إسلامى تابعى ، وهو صاحب هذه الأبيات : ـ وهى من أبيات الحماسة

أُحِبُّ الفتى يَنْفِى الفواحشَ سَمْعُه كأنَّ به عن كلِّ فاحشة وَقْرا

ونَيْرَبٍ من مَوَالِي السُّوءِ ذي حَسَدٍ ... يَقْتَاتُ لحمى وما يَشْفيه من قَرَمِ (١)

داوَيْتُ صدراً طويلا غِمْرُه حَقِداً ... منه وقَلَّمْتُ أظفاراً بلا جَلَمِ (٢)

بالحزْمِ والخيرِ أُسْديه وأُلْحِمُهُ ... تَقْوَى الإلٰهِ وما لم يَرْعَ من رَحِمِ (٣)

فأَصبحَتْ قوسُهُ دوني مُوَتَّرَةً ... تَرْمِي عدُوِّي جِهاراً غيرَ مُكْتَتِمِ (٤)

وإنّ في الحلمِ ذُلاًّ أنتَ عارِفُه ... والحلمُ عن قُدْرةٍ فضلٌ من الكَرَمِ

وقال مَعْنُ بنُ أوْس المُزَني : (٥)

وذي رَحِمٍ قَلَّمْتُ أظفارَ ضِغْنِه ... بحِلْمِيَ عنه وهْو ليس له حِلْمُ

سَليمُ دواعي الصَّدْرِ لا باسِطاً أذًى ... ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هُجْرا

إذا شئت أن تُدْعَى كريماً مُكرَّماً ... أديباً ظريفاً عاقلا ماجِداً حُرا

إذا ما أتتْ من صاحبٍ لك زَلَّةٌ ... فكنْ أنت مُحْتالا لِزَلَّتِه عُذرا

غِنى النفْسِ ما يَكْفيك من سَدِّ خَلَّة ... فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فَقْرا

(١) النيرب : الشر والنميمة ، أراد : وذي نيرب، والقرم : شدة الشهوة إلى اللحم يقول : رب ذي نيرب حسود من موالى السوء يغتابنى ويأكل لحمى ولا يشفيه ذلك من قرم ، ويقتات : يفتعل من القوت .

(٢) الغمر : الحقد والغل ، والجلم : أحد شقى المقراض وإنما هما جلمان يقول : صابرته على مداجاته وانطوائه على حقدى فدفعت شره عن نفسى بطول مداراتى . وحقدا : أى حاقدا وداويت صدره: أى مكنون صدره

(٣) بالحزم متعلق بداويت أو قلمت وقوله : تقوى الإله يرجع إلى أسديه، وما لم يرع من رحم : يرجع إلى ألحمه

(٤) يقول : مازلت أتلطف وأصلح الأمر الفاسد بالرفق قليلا قليلا حتى صار يقاتل عدوى مجاهرة بعد أن كان يعادينى مكاشرة

(٥) شاعر مخضرم من مخضرمى الجاهلية والإسلام وأبياته هذه من أبيات له طويلة تراها فى الأمالى ج ٢

يُحاوِلُ رَغْمى لا يُحاوِلُ غيرَه وكالموتِ عندى أنْ يَحُلَّ به الرَّغْمُ[١]

ويَشتِمُ عِرْضى فى المُغيَّبِ جاهداً وليس له عندى هَوانٌ ولا شَتْمُ

إذا سُمْتُه وصْلَ القرابةِ سامَنى قطيعتَها ، تلك السَّفاهةُ والإثمُ

فما زِلْتُ فى لِينى له وتعطُّفى عليه كما تحْنُو على الوَلَدِ الأُمُّ

وصَبْرى على أشياءَ منه تَريبُنى

وكَظْمى على غَيْظى وقد يَنْفعُ الكَظْمُ[٢]

لأَسْتَلَّ منه الضِّغْنَ حتى اسْتلَلْتُه وقد كان ذا ضِغْنٍ يَضيقُ به الحَزْمُ

فداوَيْتُه حتى ارْفأَنَّ نِفارُه فعُدْنا كأنَّا لم يكن بيننا صَرْمُ[٣]

وأطفأْتُ نارَ الحربِ بينى وبينَه فأصبحَ بعدَ الحربِ وهْو لنا سِلْمُ

وقال شاعر :

لقد أسمعُ القولَ الذى هو كلما تُذكِّرُنيه النَّفسُ قلبى يُصَدَّعُ

فأُبْدِى لمَنْ أبْداهُ مِنى بشاشةً كأنِّىَ مسرورٌ بما منه أسْمعُ

وما ذاك من عَجْزٍ به غيرَ أنَّنى أرى أنَّ تَرْكَ الشَّرِّ للشرِّ أدْفَعُ

فضل كظم الغيظ

يقال : كَظَم الرجل غيْظه يكظِمه كظْما : ردَّهُ وحبَسه وتجرَّعه . قال تعالى : «والكاظمين الغَيْظ » قال بعض اللغويين : يعنى أعدَّت الجنة للذين جرَى ذكرهم وللذين يكظمون الغيظ »

---

(١) الرغم : الذل والقسر

(٢) رابه فلان وأرابه : إذا رأى منه مايكره

(٣) ارفأنّ : سكن مأخوذ من رفأ الثوب : لأم خرقه وضمّ بعضه إلى بعض

وفى الحديث : « مامن جُرعة يتجرّعُها الإنسانُ أعظمَ أجراً من جُرعةِ غيظ فى الله عز وجل »

وقالوا : الكظْمُ يَدْفعُ محذورَ النّدَم ، كالماء يُطفئ حرَّ الضّرَم

وقال بعضهم : كظمٌ يتردّد فى حَلْقى أحبُّ إلىَّ من نقصٍ أجِدُهُ فى خُلُقى .

وقال : ٭ وأفضلُ حِلْمٍ حِسْبةً حِلمُ مُغْضَبِ ٭

وقال مُعاوِيةُ : ما وَجدْتُ لذّةً هى عندى ألذ من غيظ أتجرّعُه وسَفَه بحِلم أقْمَعُه . وقال لابنِه يزيدَ : عليك بالحلم والاحتمال حتى تُمكِنَك الفُرْصةُ فإذا أمكنَتْك فعليك بالصَّفْح ، فإنه يَدْفعُ عنك مُعْضِلات الأمور ، ويَقِيك مصارِعَ المحذور

الغضب وألوانه

وما يسكن به ثورانه

قال الراغب : مَثَلُ الغضبِ مثَلُ نارٍ ما يَشْتعِلُ ، والناس فيه مختلفون ، فبعضُهم كالحَلْفاء[١] سريعُ الوُقود سريع الخُمُود ، وبعضهم كالغَضا[٢] بطىءُ الوُقود بطىء الخُمود ، وبعضهم سريع الوُقود بطىء الخُمود ، وبعضهم على العكس من ذلك ، وهو أحْمَدُهم ، ما لم يؤدّ به ذلك إلى زوال حَمِيّته ، وفِقْدان غَيْرَتِه . واختلاف الناس فى الغضب قد يكون مردُّه اختلافَ الأمزجة ، وقد يكون

(١) الحلفاء : نبت أطرافه محـددة كأنها سعف النخل والخوص : ينبت فى مغايض المياه .

(٢) الغضا : شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب وجمره يبقى زمناً طويلا لا ينطفئ الواحدة منه غضاة .

العادةَ ، إذ من الناس من اعتاد السكون والهدوء من جرّاء إلفِهِ الذُّلَّ والانقيادَ والاستخذاء ، ومنهم من تعوّد الطيش والانزعاجَ فيحتدُّ من أدنى ما يُلِمّ به ، مَثَلُه مثلُ كلب يسمع صوتاً فيَنبح قبل أن يَعرِف مصدرَه : وأكثر الناسِ غضباً الصبيانُ والنساء ، وأكثرُهم ضجَراً الشيوخ ، وأجل الناس شجاعةً وأفضلُهم مجاهدةً وأعظمهم قوةً من كَظَمَ الغيظ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلمَ : ليس الشديدُ بالصُّرَعة ، إنما الشديدُ الذى يَملِكُ نفْسَه عند الغضب ، ومرَّ صلوات الله عليه بقومٍ يرفعون حجَراً فقال : (ألا أُخبرُكم بأشدّكم ؟ : من مَلَكَ نفْسَه عند الغضب) واعلمْ أنّ نارَ الغضب متى كانت عنيفةً تأجّجَتْ واضطرمت واحتدَّ غلَيانُ الدّم فى القلب وامتلأت الشرايينُ والدماغُ دُخاناً مُظلِماً يَسوءُ منه حالُ العقل ويَضعُف فعلُه ؛ وكما أن الكهْفَ الضيق إذا امتلأ حريقاً واختنَق فيه اللّهَبُ والدُّخان وعلا الأجيج صَعُبَ علاجُه وإطفاؤه ، وصار كل ما يَدْنُو منه مادّةً لقوّتِه ، كذلك النفْسُ إذا اشتعلت غضباً عَمِيت عن الرشدِ وصَمّت عن الموعظة حتى تصيرَ المواعظ مادّةً لغضَبِها ، وربما أدّى الغضبُ إلى تلَف ، وهو اختناقُ الحرارة فى القلب الأمرُ الذى قد يكون سبباً لأمراضٍ مُستَعْصِيةٍ تُوَدّى إلى التلف ؛ ثم قال وحقٌّ من يعتريه الغضبُ أن يُفكّر ، فإن كان المغضوبُ عليه تحت يده فلا معنى لاستشاطته ؛ إذ هو متمكّنٌ من الانتقام منه مع سكون الجأش ، وإن كان غضبُه على من لا سبيلَ إليه فلا معنى لتعذيبه نفْسَه فى الوقت وإنما الأخلقُ به أن يَصبِرَ حتى يتمكنَ منه ثم يفعلَ الواجب ، قال حكيم : سُدَّ طريق الغضَب قبل تلهُّب ناره فى حِلمِك ودمِك فإنك إن لم تُطفئْ نار الغضب

قبل انتشارها صعُب عليك إطفاؤها بعد أن تنتشر . وقال بعضُ الملوك لحكيم : كيف لى أن لا أغضب ؟ فقال : بأن تكون كلَّ وقتٍ ذاكراً أنه يجب أن تُطيع لا أن تُطاع فقط ، وأن تَخْدُم لا أن تُخدَم فقط ، وأن تتحقق أن الله تعالى يراك دائما ، فإذا فعلت ذلك لم تغضب وإن غضبت غضبت قليلا ...

وقالوا : مَن غضِب قائما فقعد سَكَن غضبُه ، وإن كان قاعداً فاضطجَع سكَن .

وكانت العرب تقول : إنَّ الرَّثيثةَ تَفْثَأُ الغضب : « الرثيثة : اللبنُ الحامضُ يُصَبُّ عليه الحليب ، وهو أطيبُ اللبن ، وتَفْثأ الغضب : تُسكِّنه وتَكسِر حِدَّته »

وخطب معاويةُ يوماً فقال له رجلٌ : كَذَبْتَ ، فنزَل مُغْضَباً ، فدخل منزلَه ، ثم خرج عليهم تَقْطُر لحيتُه ماءً ، فصعِد المنْبرَ فقال : أيها الناس ، إن الغضبَ من الشيطان ، وإن الشيطانَ من النار ، فإذا غضِب أحدُكم فليُطْفِئه بالماء ؛ ثم أخذ فى الموضع الذى بلغه من خُطْبته .

وفى الحديث : إن الغضبَ جَمْرةٌ تُوقَدُ فى جَوْفِ ابنِ آدمَ ، ألم ترَوْا إلى حُمْرةِ عيْنيه وانتفاخ أوداجه ...

من اجتهد فى إغضابه فلم

خاطَرَ رجلٌ آخرَ (١) على أن يُغضِبَ الأحْنَف بنَ قيس ، فجاءه فخطب إليه أُمَّه ، فقال : لسنا نردُّك انتقاصاً لحَسَبك ، ولا قِلَّةَ رَغْبَةٍ فى مُصاهَرتك ولكنها امرأةٌ قد علا سِنُّها ، وأنت تحتاج إلى امرأة وَلُودٍ وَدُودٍ تأخُذُ مِن خُلُقِك ، وتَسْتَمِد من أدبك ؛ ارْجِع إلى قومك وأخْبِرْهم أنك لم تُغْضِبْنى .

(١) يقال : خاطره على الأمر : راهنه عليه .

وخطب آخر إلى معاوية أمّه : فقال . ما الذى رغّبك فيها وهى عجوزٌ؟ فقال . إنها عجوز عنايمةُ العَجُز ! فقال : لعلّك خاطرت على أن تُغْضِب سَيِّدَ بنى تميم ؟ قال : نعم ، قال : آرْجِع فلست بِهِ .

وشَتَم رَجُلٌ الأحْنفَ وألحَّ عليه ، فلما فرغَ قال له : يابنَ أخى ، هل لك فى الغَداء ؟ فإنك مُنذ اليوم تحْدُو بجَمَلٍ ثِقَالٍ ... « الثقال : البَطِىءُ الثَّقِيلُ الذى لاينبَعِثُ إلا كَرْهاً »

ورُوِى أنَّ رجلاً خاطَرَ آخر على أنْ يقُومَ إلى مُعَاوِيَةَ إذا سَجَدَ فيضَعَ يدَه على كَفَلِه ويقول : سُبْحان الله يا أمير المؤمنين ! ما أشْبَهَ عُجَيزَتك بعُجَيزةِ أُمِّك هِند ! فَفعل ذلك ، فلما انْفَتل مُعَاوِيَةُ عن صلاتِه قال له : يا أخى ، إنّ أبا سُفْيَانَ كان مُحتاجاً إلى ذلك مِنها ؛ فخُذْ ما جَعَلوه لك ، فأخذه ثم خاطره آخر بعد ذلك أنْ يقومَ إلى زيادٍ وهو فى الخُطْبَةِ فيقول : أيها الأمير مَن أمُّك ؟ ففعل ؛ فقال زياد : هذا يُخْبِرُك — وأشارَ إلى صاحب الشُرْطة — فقَدَّمَهُ وضرَبَ عُنُقَهُ ، فلما بلغ ذلك مُعاوِيَةَ قال : ماقتَلَهُ غيرى ، ولو أدَّبتُه على الأولى ماعاد إلى الثانية ...

وقيل للأحْنَف : مِمَّنْ تعَلّمْتَ الحِلْمَ ؟ قال : من قيس بن عاصم المِنْقَرِىّ ، رأيتُه قاعداً بفِناءِ داره مُحْتَبِياً بحمائِل سيْفِه يُحَدِّثُ قومَه ، حتى أُتِىَ بمكتُوفٍ ورَجُلٍ مقْتولٍ ، فقيل له : هذا ابْنُ أخِيك قتَلَ ابْنَك : قال : فوالله ماحلَّ حُبْوَتَهُ ولا قَطَع كلامه ، ثم التفت إلى ابن أخيه فقال : ياابن أخى أثِمْتَ بربِّك ، ورميت نفسك بسهمك ، وقتلت ابنَ عمِّك ؛ ثم قال لابن له آخر : قُم يابُنَىّ فوارِ أخاك وحُلّ كِتافَ ابن عمِّك وسُقْ إلى أُمِّك

مائة ناقة ديةَ ابنها فإنها غَريبة ، ثم اتّكأ على شِقِّهِ الأيسَر وقال :

إنّى امرؤٌ لا يعترى خُلُقِى دَنَسٌ يُفَنِّدُه ولا أفْنُ [1]

مِن مِنْقَرٍ فى بيْتِ مَكْرُمَةٍ والفرْعُ يَنْبُتُ فوقه الغُصُنُ

خُطَباءُ حين يقولُ قائِلُهم بِيضُ الوجوهِ أعِفّةٌ لُسُنُ

لا يَفْطِنُونَ لِعَيْبِ جارِهِمُ وهُمُوا لِحفْظِ جِوَارِه فُطُنُ

وأسْمَع رجلٌ عُمرَ بنَ عبد العزيز بعضَ ما يَكره ، فقال : لا عليك إنما أردتَ أن يَسْتَفِزّنى الشيطانُ بعِزِّ السلطان فأنالَ منك اليومَ ما تنالُهُ منّى غداً ، انصرِفْ إذا شِئْت ...

وأمر محمدُ بنُ سليمانَ برجُلٍ أن يُطرَحَ من القصْر كان قد غضِب عليه فقال الرجل : اتّقِ الله ، فقال : خَلُّوا سبيله ، فإنى كرهتُ أن أكون من الذين قال الله فيهم : « وإذا قيل له اتّقِ الله أخَذَتْهُ العِزّةُ بالإثمِ »

حثهم على ترك الغضب

المؤدى إلى الاعتذار

قال حكيم : إياكَ وعِزّةَ الغضب فإنها تصيرُ بِك إلى ذِلّةِ الاعتذار

وقال شاعر :

متى تُرِدِ الشِّفاءَ لكُلِّ غيظٍ تكنْ مما يَغيظُكَ فى ازديادِ

---

(١) وروى هذا البيت أيضاً هكذا :

إنّى امرؤ لا يَطّبى حسَبى دَنسٌ يُهجّنُه ولا أفْنُ

اطباه : دعاه ، والأفن : النقص ، ويفنده : يكذبه

حثهم على التصامم عن القبيح وتمدُّحهم بذلك

قال المهلَّبُ بنُ أبي صفرة : إذا سمع أحدُكم العوراءَ فَلْيُطَأْطِئْ لها تتَخَطّاهُ ... « العوراء : الكلمةُ القبيحة أوِ الفَعلَةُ القبيحة : ويقال للكلمة القبيحة عوراء ، وللكلمة الحسناء عيناء قال الشاعر :

وعَوْرَاءَ جاءت من أخٍ فرَدَدْتُها بِسالِمَةِ العَيْنَيْنِ طالِبَةً عُذرا

« بسالمة العينين : أي بكلمة حسناء لم تكن عَوْرَاء. وعُورَانُ الكلام : ما تَنْفيه الأُذن قال :

وعوراء قد قِيلتْ فلمْ أستَمِعْ لها وما الكَلِمُ العُورانُ لى بقتُولِ[1]

وقال حاتم طيئ :

وأغفِرُ عَوْرَاءَ الكريم ادخارَهُ وأعرِضُ عن شَتْمِ اللئِيم تكرُّما[2]

وقال ابن عَنقاءَ الفزارى من أبيات يمدح بها ابنَ عمه عُمَيلةَ :

إذا قِيلَتِ العوراءُ أغضَى كأنه ذَليلٌ بِلا ذُلٍّ ولوشاءَ لانتَصَرْ

وقد تقدم هذا البيت مع أبيات أخرى له جميلة . »

حثهم على العفو مطلقا

قال الله جلّ شأنه : « وليَعْفُوا وليَصْفَحُوا ألا تحِبُّونَ أن يغفِرَ الله لكم ، والله غفور رَحيم » ، وقال سبحانَه : « فمَنْ عَفا وأصلحَ فأجْرُهُ على الله » ،

(١) وصف الكلم بالعوران لأنه جمع وأخبر عنه بالقتول وهو واحد لأن الكلم يذكر ويؤنث وكذلك كل جمع لايفارق واحده إلا بالهاء

(٢) ادّخاره : أي لادّخاره

وقال عزَّ وتقدَّس : « وأن تعفوا أقربُ للتقْوَى » ، وقال تعالى لنبيِّه : « خُذِ العفو وأمُرْ بالعُرْفِ وأعرِضْ عن الجاهلين » ... « خذ العفو ، فالعفو : السهل المُيَسَّر والمعنى : احتَمِلْ أخلاقَ الناس واقبَلْ مِنْها ما سَهُل وتيسَّر ولا تَستَقْصِ عليهم فيَسْتَقْصِى الله عليك مع ما فيه من العداوة والبغضاء ، أقول : ولما حقَّق سيدنا رسول الله ما أدبه الله به قال سبحانه فى حقِّهِ : (وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عظيم) »

وقال الأحنف بن قيس : إياك وحَمِيَّةَ الأوْغاد ، قيلَ : وما حَمِيَّتُهُم قال : يرَون العفو مغرَماً والتَّحَمُّلَ مَغْنَماً ... « التحمل ههنا : الغضب وقد جاء فى بعض الروايات بدل التحمل : والبُخل »

وقيل لبعضهم : هل لك فى الإنصاف أو ماهو خيرٌ من الإنصاف ؟ فقال : وما هو خير من الإنصاف ؟ قال : العفو ...

وقالوا : العفو زكاةُ النفس

وقالوا العفوُ عنِ المُذْنِب من واجبات الكرم ...

وقالوا : لَذَّةُ العفو أطْيَبُ من لَذَّةِ التَّشَفِّى ؛ لأن لذة العفو يلحقُها حَمْد العاقبةِ ، ولَذَّةُ التشفِّى يلْحقُها ذمُّ الندم ... وقال الشاعر وقد نظم هذا المعنى :

لَذَّةُ العفوِ إن نَظَرْتَ بعَيْنِ الـ ... ـعَدْلِ أشْفَى منْ لَذَّةِ الإنتِقَام
هـذه تكسِبُ المحامِدَ والأجْـ ... ـرَ وهـذه تجىءُ بالآثام

التحلم عن الخدم

نظر معاوية إلى ابنه يزيدَ وهو يضرب غلاماً له ، فقال له : أتُفسِدُ أدَبَك بأدَبِه ! فلم يُرَ ضارباً غلاماً له بعد ذلك .

وقيل ليحيى بن خالد البرمكى : إنك لاتؤدِّبُ غلمانَك ولا تضرِبهم ! قال : هم أُمَناؤنا على أنفُسنا فإذا نحن أخفناهم فكيف نأمَنهم !

الرحمة ومدح ذويها

قالوا من كَرُمَ أصلُه لان قلبُه

وقالوا : مِن أمارات الكرم : الرحمة ، ومن أمارات اللؤم : القسوة « الكرم نقيض اللؤم »

وفى الحديث الشريف « ارْحمْ مَنْ فى الأرْض يَرْحَمْكَ مَنْ فى السماء وفيه أيضاً « لا تُنزَع الرحمة إلا من قَلْبٍ شَقى »

أما من ذَمّ الرحمة ونعاها على أهلها مثل الوزير محمد بن عبد الملك الزيات إذ يقول : الرحمة خَوَرٌ فى الطبيعة ، ومثل غيره من فلاسفة هذا الجيل كالفيلسوف نيتشه ومَن على شاكلته فأولئك إنما يترامون إلى أهداف أخرى ، وإلى مدح القُوّة فى مواضعها ، وهذه سوف تمر عليك عبقرياتهم فيها .

ما يستحسن فيه الحلم من الكبار
وما يُستقبَح

أغلظ رجلٌ لمعاوية فحلُم عنه ، فقيل له : تحلُمُ عن هذا ! فقال : إنى لا أحولُ بين الناسِ وبين ألسنتِهم مالم يحولوا بيننا وبين سُلطاننا ... وقال المأمونُ : يجمُلُ الحلم بالملوك إلا فى ثلاثة مواضع ، مُذيعٍ لسِرٍ ، ومُتعرِّض للحُرَم ، وقادح فى مُلْك ... « حُرَم الرجل : عيالُه ونساؤه وما يحميه »

وقال السفّاح : الحِلمُ يَحسُنُ إلا ما أوضع الدينَ والسلطان .

حثهم على درء الحدود

فى الحديث الشريف : «آدرَؤا الحُدودَ بالشُّبُهات ، وأقيلوا الكرامَ عَثَراتِهم ، وإنّ الإمامَ لأنْ يُخطئَ فى العفو خيرٌ من أن يُخْطِئ فى العقوبة» «ادرؤا : ادفعوا ، والحدود جمع حد، وهو لغة ، المنع وشرعا : العقوبة التى جعلت لمن يَقترف مانهى عنه كحدّ السارق ، وهو قطع يمينه فى ربع دينار فصاعداً ، وكحدّ الزانى البكر وهو جَلْدُه مائة وتغريبه عاماً ، وكحد المُحْصَن إذا زنى ، وهو الرجم ، سميت حدوداً لأنها تَحُدُّ : أى تمنع من إتيان ماجعلت عقوبات فيها [١] ، والشُّبُهات جمع شبهة وهى الالتباس يقال : تشابهت الأمور واشتبَهت ، أى التبست لاشتباه بعضها ببعض ، والعثرات : الزلّات والكرام : خيار الناس ووجوههم حسباً ونسبا وعلماً وديناً وصلاحا ، ومعنى أقيلوا عثراتهم : لا تعاقبوهم عليها ولا تؤاخذوهم بها ، إلا فى حد من حدود الله فإنه لا تجوز إقالتُهم فيه إذا ثبت عند الإمام وخلا عن الشبهة ولم يجد إلى دفعه سبيلا ، ومعنى ادرَؤا الحدود بالشبهات : اعملوا ما وَجدتم السبيلَ على أن لا تقيموا العقوبة على مسلم إلا بأمرٍ متيقن لا يتطرّق إليه التأويل .

حث القادر على العفو

قالت عائشةُ رضى الله عنها : إذا ملَكْتَ فأَسْجِحْ « قالت ذلك لعلى

---

(١) وتطلق الحدود ويراد بها المعاصى قال تعالى : « تلك حدود الله فلا تقربوها » .

ابن أبى طالب رضى الله عنه يومَ الجمَل حين ظهر على الناس فدَنا من هَوْدَجِها ثم كلمَها بكلام ، فأجابته : ملكت فأَسْجِح ، أى ظَفِرْتَ فأَحْسِنْ وقَدَرْتَ فسَهِّلْ وأحْسِن العفوَ ، فجهّزها عند ذلك بأحسنِ الجهازِ إلى المدينة فالإسجاح : حُسْنُ العفو »

ومن كلمة لعلى رضى الله عنه : إذا قَدَرْت على العدُوّ فاجعلِ العفوَ شُكْرَ قُدرتك .

وقالوا : المقدِرةُ تُذهبُ الحفيظة « الحفيظة : الغضبُ ، وقولهم : إنّ الحفائظ تذهبُ الأحقاد فمعناه : إذا رأيت حميمك يُظلَم حَمِيت له وإن كان عليه فى قلبك حِقْدٌ ... وظَفِرَ الإسكندر المقدونىّ ببعض الملوك ، فقال له : ما أَصْنَعُ بك ؟ قال : ما يَجْمُلُ بالكرام أن يصنعوه إذا ظَفِروا ، فخلَّى سبيله وردّه إلى مملكته .

ولما ظَفِرَ أنو شروانَ ببُزُرْجُمهرَ قال : الحمد لله الذى أظفَرَنى بك ، فقال : كافِئْ من أعطاك ما تُحبّ بما يُحِب ...

وقيل ليوسُفَ عليه السلام : بعَفْوك عن إخوتك عند قُدْرَتِك رُفِع قَدرُك ...

ذمّ المتشفى من الغيظ

قال معاويةُ رضى الله عنه : العُقوبةُ ألأَمُ حالات ذى القُدْرة ...

وقال حكيم : التشفِّى طَرَفٌ من الجزع ، فمَنْ رَضِىَ أن لا يكون بينَه وبين الظالِم إلا سِتْرٌ رقيقٌ وحِجابٌ ضعيفٌ فليَنْتَصِف ...

مدح من صفح عن قدرة

قال الأخطل من أبيات يمدح بها بنى أمية :

شُمْسُ العــداوةِ حتى يُسْتَقَادَ لهم
وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قدروا [1]

وقال أشجع السُّلَمى :

يعفو عن الذنْب العظيــم وليس يُعْجِزُه انتِصَارُهْ [2]
صَفْحًا عن الجانى عَلَيْـــهِ وقد أحاطَ بِهِ اقْتِدَارُهْ

وقال المتنبي :

فَتًى لا تَسْلُبُ الْقتْلَى يَدَاهُ وَيَسْلُبُ عفْوُه الأسْرَى الوَثَاقا

« يقول المتنبي : إذا قتَلَ الممدوح قتيلا لم يأخذْ سلَبَهُ ، ترفُّعاً عن ذلك ولكنَّ عَفْوَه يسْلُبُ أسْرَاهُ أغلالهم وقُيُودَهم ، أى يعفُو عنهم ويُطْلقهم »

الحث على إقالة من سلم ظاهره

قالوا : لا تَعْتَدَّ بما لم تَسْمَعْهُ أذناك ، فإن السيِّد إذا حَضَرَ هيب وإذا غاب اغْتِيب .

وقال بعض الملوك : إنما نَملِكُ الأجساد دون النِّيات ، ونَفْحَصُ عن الأعمال لا عن السرائر ... وقال البُحْتُرِيُّ :

إذا عَدُوُّكَ لمْ يُظْهِرْ عداوَتَه فما يَضُرُّك إن عاداك إسرارا

(١) شمس : جمع شموس وهو : الصعب العداوة ، وقوله : حتى يستقاد لهم : أى حتى يؤخذ حقهم ممن اعتدى عليهم ، من قولهم ، استقدت الأمير من القاتل فأقاد لى منه أى قتله (٢) الانتصار : الانتصاف والانتقام

وقال العلاء بن الحضرمىّ (١) يخاطِبُ سيدنا رسول الله :

وإنْ دَحَسُوا بالشرِّ فاعْفُ تكرُّماً
وإن خَنَسُوا عنك الحديث فلا تسَلْ (٢)

« وإن دحسوا : قال ابن الأثير يريد : إن فعلوا الشَّر من حيث لا تعلمه . وخنسوا الحديث يريد : واروْه وغيبوه وأخّروه عنك »

العفو عمن سلم باطنه

قد يهفو المرءُ ونيّته سليمة ، ويَزِلّ وطريقتُه مستقيمة .

قال إبراهيم بن المهدى فى عَيْنِيَّته للمأمون وقد عفا عنه :

قسماً وما أُدْلِى إليك بحُجّةٍ إلا التّضَرُّعَ من مُحِبٍّ خاشِع
ما إن عَصَيْتُكَ والغُواةُ تَمُدُّنى أسبابُها إلا بنيةِ طائِع

وقال الفرزدق :

فلستَ بمأخوذٍ بلغْوٍ تقولُه إذا لمْ تعَمّدْ عاقِداتُ العزائم (٣)

« تعمد : تتعمد »

---

(١) صحابى جليل استعمله سيدنا رسول الله على البحرين وأقره أبو بكر ثم عمر مات سنة ٢١ هـ

(٢) بعده :

فإن الذى يؤذيك منه استماعُه وإن الذى قالوا وراءك لم يُقَلْ

(٣) لعل الفرزدق أخذ هذا المعنى من قوله تعالى : لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان .

عتب من يحفظ الذنب بعد تقادمه

قال البُحْتُرى :

تناسَ ذنوبَ قومِكَ إن حِفْظَ الذ ... نوبِ - إذا قَدُمْنَ - مِنَ الذنوب

العفو عن المقرّ المعترف

قال بعضهم :

إذا ما امرُؤٌ من ذنبه جاءَ تائباً ... إليك فلم تَغْفِرْ له ، فلكَ الذنْبُ

ومن قولهم : التوبة تغْسِل الحوبة « الحوبة : الخطيئة »

وقالوا : لاعَتْبَ مع إقْرَار ، ولا ذَنْبَ مع استغفار .

وقال بعضهم لصديق له أنكرَ ذنباً : إما أن تُقِرَّ بذنبك فيكونَ إقرارُكَ حُجّةً لنا فى العفو ، وإلا فَطِبْ نفساً بالانتصار منك ، فإن الشاعر يقول :

أقْرِرْ بذنبِكَ ثم اطْلُب تجاوُزَنا ... عنه فإنّ جحود الذنب ذَنْبانِ

ومن كلامٍ لابن المُعتَزّ : تجاوَزْ عَنْ مُذْنِبٍ لم يَسْلُكْ بالإقرار طريقاً حتى اتخذ من رجائِكَ رفيقاً .

وقال بعض الأمراء لرجل عاتَبَه : بَلغنى أنك تُبْغِضُنى ، فلم يُنْكِرِ الرجل وقال : أنت كما قال الشاعر :

فإنك كالدُّنيا نَذُمُّ صُروفَها ... ونُوسِعُها ذَمّاً ونحنُ عَبيدُها

وقال أبو فِرَاس الحَمْدانىّ :

إنْ لَمْ تجافَ عنِ الذنو ب وجدْتَها فينا كثيرهْ (١)
لكنَّ عادَتك الجميـ ـلةَ أنْ تغُضَّ عنِ الجريرهْ (٢)

وقال السَّرِيّ الرَّفَّاء:

فإن تعفُ عَنِّى تعفُ عن غير جاحدٍ
لِمَا كانَ والإقرارُ بالذنبِ أرْوَحُ

وقال آخر:

فلَسْتُ بأوّلِ عَبْدٍ هفا ولستَ بأوّلِ مَوْلًى عفا

وقال غيره:

صَفْحًا فلوْ شُقَّ قلبي عن صَحِيفَته لظلَّ يُقْرَأُ منه الخوفُ والنَّدَمُ

وأُتِيَ أبو جعفر المنصورُ برجُلٍ أذْنَب . فقال : إن الله يأمُرُ بالعدْلِ والإحسان : فإنْ أخَذْتَ فى غيرى بالعدل فخذْ فىَّ بالإحسان ...

حسن العفو عن المصرّ

سمِعَ حكيمٌ رجلا يقول : ذَنْبُ الإصرار ، أولى بالاغتفار ؛ فقال : صدَقَ والله ، ليس فضلُ من عفا عن السهو القليل كمن عفا عن العمد الجليل ...

استعفاء من خلط إقرارا بإنكار

قال بعضهم فى ذلك :

---

(١) تجاف بحذف إحدى التاءين أى تتجافى وتتجافى عن الذنوب : تبتعد وتغض الطرف عنها

(٢) الجريرة : ما يجره الإنسان من ذنب

هَبْنِى أَسأْتُ كما ظَنَنْـ ـتَ فأين عاقِبَةُ الأُخُوَّهْ
وإذا أَسأْتَ كما أسأْ تُ فأين فضلُكَ والمُرُوَّهْ

وقال آخر :

وهَبْنِى — وما أجرَمْتُ — أجرمْتُ كلَّ ما
أتاك بِهِ الواشِى تُجِـدْ باحْتمالِهْ

وقال الشعبي لبَعْض الوُلاة — وقد كلَّمَهُ فى قَوْمٍ حَبَسَهم — : إنْ حَبَسْتَهُمْ بالباطل فالحقّ يُخرِجهم ، وإن حبستَهم بحق فالعفوُ يسَعُهم ؛ فأمر بإطلاقهم .

معتذر مع إنكار

قال الرشيد لرجل يُرْمَى بالزندقة : لأضرِبَنَّك حتى تُقرّ بالذنب ، فقال : هـذا خـلافُ ما أمر الله به ، لأنه أمر أن يُضرَبَ الناسُ حتى يُقِرُّوا بالإيمان وأنت تَضرِبُنِى حتى أُقِرَّ بالكفر ا فخجل وعفا عنه .

وكان الرشيد قد حبس عبـد الملك بن صالح ، فلما أخرجه الأمين من الحبس ، وذكر الرشـيد وفِعْـلَهُ به قال : والله إن المُلْكَ لَشيءٌ ما نَوَيْته ولا تَمَنَّيْتُه ، ولو أردْتُه لكان إلىّ أسرَع من الماء إلى الحدور [١] ، ومن النـار إلى يَبِس العَرفَج [٢] ، وإنّى لمأخوذ بما لم أجْنِ ، ومَسـئولٌ عما لا أعْرِف ، ولكن لمّا رآنى بالمُلْكِ قمِينا ، وإن لمْ أتَرَشّح له فى سِرٍّ ولا جَهْرٍ ، ورآه يحِنّ إلىّ حنين الوالِدَةِ الوالِهَةِ ، وتميلُ مَيلَ الهلوك [٣]

(١) الحدور بوزن رسول : المكان الذى ينحدر منه

(٢) العرفج : نبات سهلى

(٣) الهلوك من النساء : الفاجرة الشبقة

عاقبنى عِقابَ من سهر فى طلبه ، فإن كان إنما حسِبنى أنى أصلح له ويَصلُح لى فليس ذلك ذنباً فأتوبَ منه .

وقال التَّنُوخِىّ :

إن كان إقرارى بما لم أجنِه ... يُرضيك عنى قُلتُ إنى ظالمُ

معتذر بتكذيب نفسه

خرج النعمان بن المنذر فى غِبِّ سماء فمرَّ برجلٍ من بنى يَشكُرَ جالساً على غَدير ماءٍ ، فقال له : أتعرِفُ النعمانَ ؟ قال اليَشكُرِى : أليس ابنَ سَلمى ؟ قال : نعم ، قال : والله لربَّما أمرَرْتُ يدى على فرجها ، قال له : ويْحَك ، النعمان بن المنذر ! قال : قد خبَّرْتُك ، فما انقضى كلامُه حتى لحِقتْه الخيل وحَيَّوْه بتحيةِ المُلك ، فقال له : كيف قلتَ ؟ قال : أبيتَ اللَّعْن [١]، إنك والله ما رأيتَ شيخاً أكذَبَ ولا ألأَمَ ولا أوضعَ ولا أعَضَّ ببَظْرِ أمِّه [٢] من شيخ بين يديك ؛ فقال النعمان : دَعُوه ، فأنشأ يقول :

تعفو الملوكُ عن العظيـ ... ـم من الذنوبِ لفضْلِها

ولقد تُعاقِبُ فى اليَسيـ ... ـر وليس ذاك لجهلها

إلاّ لِيُعرَفَ فضلُها ... ويُخافَ شِدّةُ نَكْلِها

وانقطع عبدُ الملك بن مروان عن أصحابه . فانتهى إلى أعرابىّ ، فقال :

---

(١) كلمة كانت العرب تحي بها ملوكها فى الجاهلية ومعناها : أبيت أيها الملك أن تأتى ماتلعن عليه ، واللعن : الإبعاد والطرد من الخير

(٢) البظر : هنة بين الأسكتين من المرأة لم تخفض ـ لم تختتن ـ ومن قولهم فى السب : يا ابن مقطعة البظور : جمع بظر ، يريدون أن أمه خاتنة وقد يقولونها فى معرض الذم وإن لم تكن أمه خاتنة

أتعرِفُ عبدَ الملِكِ ؟ قال : نعم ، جائِرٌ بائِرٌ ، قال : ويحك أنا عبد الملك ! قال : لاحَيَّاك الله ولا بيَّاك ولا قرَّبك ، أكلتَ مالَ الله ، وضيَّعتَ حُرمتَه ، قال : ويحك أنا أضُرُّ وأنفع ، قال : لارزَقني الله نَفعَك ولا دفع عنِّي ضُرَّك ؛ فلما وصلت خيلُه عَلِمَ صِدْقَه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، اكْتُمْ ماجرَى فالمجالِس بالأمانة . . .

استعفاء من زعم أن ذنبه كان خطأ

قال غلام هاشمىٌّ أراد عمُّه أن يُجازِيَه بِسَهْوٍ منه : ياعمِّ ، إنى قد أسأتُ وليس معى عقلى فلا تُسِئْ ومعك عقلُك . . .

وقال المتنبى :

وعينُ المُخطِئِين هُمُ وليْسُوا بأوَّلِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا فتابوا

وأنت حياتُهم غَضِبَتْ عليهم وهَجْرُ حياتِهم لهُمُ عِقابُ

وما جهِلتْ أيادِيَكَ البَوادِى ولكن ربما خَفِىَ الصَّوابُ (١)

وقال أبو تمام :

فإنْ يَكُ جُرْمٌ عَنَّ أوْ تَكُ هَفْوَةٌ على خطأٍ منى فعُذْرِى على عَمْدِ

والأصل فى هذا المعنى قول سيدنا رسول الله : « رُفِع عن أمَّتى الخطأُ والنسيانُ وما استُكْرِهُوا عليه » وقال تعالى : وليس عليكم جناح فيما أخطأتُم به ولكن ما تعمّدَتْ قلوبُكم وكان الله غفوراً رحيما »

---

(١) أياديك : نعمك ، والبوادى : خلاف الحواضر أى أهل البوادى يقول : إنهم لم يجهلوا بعصيانك سوابق نعمك ولكن قد يخفى الصواب على المرء فيأتى غيره

مستعف سأل أن يقوّم ويؤدّب

قال أحمد بن أبى فنن [١] :

أحينَ كثرتَ حُسادِى وساءهُمُ جميلُ فعلِكَ بى أشمتَّ حُسّادى !
فإن تكنْ هفوةٌ أوْ زلّةٌ سلفتْ فأنتَ أولَى بتقويمى وإرشادِى

مستعف سأل العفو

لفرط خوفه

قال على بنُ الجهم من أبيات أرسلها إلى المتوكل وهو محبوس :

وعفوَكَ عن مُذنبٍ خاضعٍ قرنْتَ المقيمَ به المُقعِدا [٢]
إذا ادّرَع الليلَ أفضَى به إلى الصبح من قبلِ أن يَرْقُدا
ألمْ ترَ عبداً عدا طورَهُ ومولًى عفا ورشيداً هدَى
ومُفسِدَ أمرٍ تلافيتَهُ فعاد فأصلحَ ما أفسدا
فلا عُدْتُ أعصيك فيما أمَرْ تَ حتى أزُورَ الثَّرى مُلحَدا
وإلاّ فخالفْتُ رَبَّ السماء وخُنْتُ الصديقَ وعِفْتُ النَّدَى

مستعف اتّكل على سالف حرمته

قال من لاأذكُر اسمَه :

أيذهَبُ يومٌ واحدٌ إن أسأتُهُ بصالحِ أيامى وحُسْنِ بلائيا [٣]

---

(١) شاعر مجيد من شعراء بغداد شهر بالشعر فى أيام المتوكل واستفرغ شعره فى الفتح بن خاقان

(٢) يقال : أخذه المقيم المقعد أى مايوجب الاضطراب من خوف ونحوه

(٣) أسأته : أسأت فيه

وقال جل شأنه : « إن تجتنبوا كبائرَ ما تُنْهَوْنَ عنه نُكفِّرْ عنكم سيئاتِكم ونُدخِلْكُم مُدْخَلًا كَريما » « والمراد بالسيئات : الصغائر ، والكبائر هن : الذنوب التي رتّب الشارع عليها حدوداً أو صرّح بالوعيد فيها »

الاستعفاء لمذنب من قوم محسنين

قال ابراهيم بن العباس الصُّولي :

أساؤا وفيهم مُحْسنون فإن تَهَبْ لمحسِنِهم أهلَ الإساءةِ يَصلُحوا

متوصل إلى العفو بمراجعة أو حجة

رَوَوْا أن الفاروق رضى الله عنه كان يَعُسُّ ليلةً ، فسمع غِناءَ رجلٍ من بيت ، فتسوَّرَ عليه ، فرآه مع امرأةٍ يشربانِ الخمر ، فقال : يا عدُوَّ الله ، أظننْتَ أن يستُرَكَ الله وأنت على معصية ؟ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، لا تَعْجل إن كنتُ عصَيتُ الله في واحدةٍ فقد عصيتَ في ثلاث : قال الله تعالى : ولا تجَسَّسُوا وقد تجسّسْتَ ، وقال : وأتُوا البيوتَ من أبوابها وقد تسوَّرْت عليَّ ، وقال : لا تدخُلوا بيوتاً غيرَ بُيُوتِكم حتى تستأنسُوا وتُسلِّموا على أهلها وقد دخلتَ بغير سلام ، فقال عمر : أسأتُ فهل تعفُو ؟ قال : نعم ، وعلىَّ أن لا أعودَ ... «وقد أورَدنا هذه الأحدوثة كما أوردها الأدباء ، وإنّ في النفس منها بعدُ لأشياء »

مستعف ذكر فرط خوفه من الوعيد

قال سَلْمٌ الخاسر :

لقد أتتنى من المَهدِيِّ مَعْتَبةٌ تَظَلُّ من خوفها الأحشاءُ تَضْطرِبُ

وقال أبو تمام من قصيدة يمدح بها أحمد بن أبي دُواد ويعتذر إليه :

أتانى عائرُ الأنباء تَسْرِى عقاربُه بداهيــةٍ نَآدِ (١)
فياخبرًا كأنَّ القلبَ أمْسَى يُجَرُّ به على شوكِ القَتادِ (٢)

وقال البحترى :

عَذيرى مِنَ الأيامِ رَنَّقْنَ مَشْرَبِى ولَقَّيْنَنِى نَحْساً من الطَّيْرِ أشأَما (٣)
وأكسَبْنَنِى سُخْطَ امرئٍ بِتُّ مَوْهِناً أرَى سُخْطَه ليلاً مع الليل مُظْلِما (٤)

من استعفى واستوهب معا

أخذ مُصعَبُ بنُ الزبيرِ رجلا من أصحاب المختار ، فأمر بضَرْب عُنُقِه ، فقال : أيها الأمير ، ما أقْبَحَ بك أن أقومَ يوم القيامة إلى صورَتِك هذه الحسنةِ ، ووَجهِك هذا الذى يُستضاءُ به ، فأتعلَّقَ بأطرافِك وأقول : أىْ رَبِّ سَلْ مُصعَباً فيمَ قتَلَنى ، قال : أطْلِقوه ، قال : اجْعَلْ ما وَهَبْتَ لى من حيــاتى فى خَفْض ، قال : أعْطوه مائةَ ألْفٍ ، قال : بأبى أنت وأمى ، أشهدُ الله أن لابْنِ قَيس الرقَيَّاتِ منهما خمسين ألفا ، قال : ولِمَ ؟ قال : لِقولِه فيك :

إنّما مُصْعَبٌ شهابٌ من الله تجلَّت عن وجهِه الظَّلْماءُ
مُلكُهُ مُلكُ رحمةٍ ليس فيه جَبَروتٌ يُخْشَى ولا كبرياءُ
يَتَّقِى الله فى الأمور وقد أفْـ ـلَحَ مَنْ كان هَمَّه الاتِّقاءُ

(١) عائر : كقولهم : قصيدة عائرة : أى سائرة ، ويقال : داهية نآد فالنآد : الداهية تحلّ .

(٢) فيا خبرا : يروى : نثا خبر ، ونثى الخبر : أذاعه وأفشاه ، والقتاد : شجر صلب له شوك كالإبر

(٣) رنّق الماء : كدره ، والمشرب : موضع الشرب ، والماء

(٤) الموهن : نحو من نصف الليل

فضحك مُصْعَب وقال : أرى فيك موضعاً للصنيعةِ ، وأمره بلزومه وأحسنَ إليه ، فلم يَزلْ معه حتى قتل ...

وقال المتنبي :

فاغفرْ فِدًى لك واحبُني مِن بَعدِها لِتَخُصَّني بعطيَّةٍ منها أنا (١)

المتوصل إلى العفو بالتثبت إلى حين التبين

قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبإٍ فتبينُوا أنْ تُصيبوا قوماً بجهالةٍ فتُصبِحُوا على ما فعلتُمْ نادمين ... « قال الإمام البيضاوى : « فتَبيَّنوا : فتعرَّفوا وتصفَّحوا قال : وتنكير الفاسق والنبأ للتعميم ؛ وتعليق الأمر بالتبين على فسق المخبر يقتضى جواز قبول خبر العدل ··· وأن تصيبوا : أى كراهة إصابتكم »

وغضِب الرشيد على رجل ، فقال له جعفرُ بن يحيى : غضِبْتَ لله ، فأطِع الله فى غضبك بالوُقوف إلى حال التبيُّن كما غضِبْت له .. وقال الشعبى لعبد الملك بن مَرْوان : إنك على إيقاع مالم تُوقِع أقدرُ منك على ردِّ ما أوقعت ...

نهى العافى عن التثريب

رضِيَ بعضُ الملوكِ عن رجل ، ثم أخذ يُوبِّخُه ، فقال : إن رأيتَ ألا

---

(١) فاغفر أى فاغفر لى ذنبى ، وفدى خبر عن محذوف أى أنا فدى لك ، وحباه : أعطاه ، ومن بعدها : أى من بعد هذه المغفرة يقول : إذا عفوت عنى وأعطيتنى كنت قد خصصتنى بعطاء أنا من جملته ، لأنه إذا عفا عنه فقد وهبه نفسه

تخدِشَ وجهَ رضاك بالتثريب فافعل (١)

وقالوا : ماعفا عن الذنب مَن قَرَّع به ...

وقال شاعرٌ فيمن يعاقب ثم يعاتب :

إذا عُوقِبَ الجانى على قدر جُرمِه فتعنيفُه بعد العقابِ من الرِّبا

نهيهم عن الاعتذار وصعوبته

جاء فى الحديث الشريف : إياك وكُلَّ أمرٍ يُعتَذَرُ منه :

وفى حديث آخر : إياكم والمعاذيرَ فإنها مفاجِرُ ...

« ومعنى الحديثين : إياكم أن تتكلموا أو تفعلوا ما تحتاجون إلى أن تعتذروا عنه . »

وقال بعضهم : دعْ ما يسبِقُ إلى القلوب إنكارُه ، وإن كان عندك اعتذارُه فلستَ بمُوسِع عُذرا كُلَّ من أسْمَعْتَهُ نُكرا ...

وكتب الحجَّاجُ إلى بعض من اعتذر إليه : إن يَسلَم الله ذلك من نِيتِّك تُكفَ المقال .

وكتب كاتبٌ : لستُ أعتذر إليك من الذّنب إلا بالإقلاع عنه .

وكتب آخر : إن تركتُ الاعتذار فلِمَا قال الشاعر — هو محمود الورَّاق — :

إذا كان وَجْهُ العُذْرِ ليس ببيِّنٍ فإن اطِّراح العُذْر خيرٌ من العذر

وقالوا : الإغراقُ فى العذر يحقِّق التُّهمة ، كما أن الإفراط فى النصيحة يوجب الظِّنَّة ...

(١) التثريب : تقبيح الفعل والاستقصاء فى اللوم

وكتب بعضهم : إن كان مابلَغك حقًّا فما تُغنِي المعاذير ، وإن كان كذباً فما تضر الأباطيل .

وقال شاعر :

تعالَوْا نصطلح وتكونُ منّا مُعاوَدةٌ بلا عَدِّ الذنوب
فإنْ أحببتُمُ قلتمُ وقلنا فإنّ القول أشْفَى للقلوب

وخطب الحجاجُ يوماً فأطال ، فقام رجل فقال : الصلاة ، الوقتُ لا ينتظِرك ، والربّ لا يَعذِرُك ، فأمر بحبسه ، فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون فإن رأى أن يُخَلِّيَ سبيله ! فقال : إن أقرّ بالجنون خلّيتُه ، فقيل له ذلك ، فقال : معاذ الله ، لا أزعُمُ أن الله ابتلانى وقد عافانى ، فبلغ ذلك الحجاجَ ، فعفا عنه لِصدقه . .

تأسف من يعاتب من غير ذنب

من أمثالهم : رُبَّ مَلومٍ لا ذنب له .

وقال البُحتُرِيّ :

إذا محَاسِنيَ اللاتى أُدِلُّ بها كانت ذنوبى فقُلْ لى كيف أعتذِر

عبقرياتهم فى ذمّ الحلم

ومدح العقاب

النهى عن الحلم إذا كان يسبب ذلا أو ضرّا

قال النابغة الجَعْدى :

ولا خير فى حِلْمٍ إذا لم تكن لهُ بوادِرُ تحْمِى صَفْوَهُ أن يُكَدَّرَا (١)
ولا خَير فى جهلٍ إذا لم يكنْ له حليمٌ إذا ما أوْرَد الأمرَ أصْدَرَا

يُروَى أنه لمّا أنشدَ هذين البيتين سيدَنا رسول الله قال صلوات الله عليه: أجدْتَ لا يَفْضُضِ اللهُ فاكَ؛ فعاش مائةً وثلاثين سنةً لم تَنْفَضّ لهُ ثَنِيَّة ... وأنشد المُبَرِّد :

أبا حَسَنٍ ما أقْبحَ الجهلَ بالفتى وللحلْمُ أحياناً من الجهل أقْبَحُ
إذا كان حِلْمُ المرءِ عونَ عدوِّه عليه فإن الجهل أعفَى وأروحُ

« أقول : إن مرادَهم بالجهل ههنا ما قابل الحلم »

وقال المتنبي:

مِن الحلْم أن تستعمِلَ الجهلَ دونه إذا اتّسعَتْ فى الحِلم طُرْقُ المظالِمِ

وقال :

إذا قيل : رِفْقاً قال : للحِلْم موضِعٌ وحِلمُ الفتى فى غير موضِعِه جَهْلُ

وقال أبو يعقوبَ الخُرَيْمِى :

أرى الحلم فى بعض المواطِنِ ذِلّةً وفى بعضِها عزّاً يُسَوِّدُ صاحِبَهْ

---

(١) البوادر جمع بادرة : ما يبدر من الرجل فى حال الغضب من قول أو فعل

وقال الأحنف بنُ قيس : لا حِلْمَ لمن لا سَفيه له . وقال : ما قلَّ سفهاءُ قوم إلا ذلوا . . .

وقال الجاحظ : من قابَلَ الإساءَةَ بالإحسان فقد خالف الله فى تدْبيره ، وظن أن رحمة الله دون رحمته ، فإن الله تعالى يقول : « من يَعْمَلْ سوءاً يُجْزَ بِهِ » وقال : « وجزاءُ سَيِّئَةٍ سيئةٌ مثلها »

وقال الشعبيُّ : يُعجِبُنى الرجلُ إذا سيم هَواناً دَعَتْه الأَنَفَةُ إلى المكافأةِ وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مِثْلُها ؛ ورُفِع كلامُه إلى الحجاج فقال : لله دَرّه ! أىُّ رَجُلٍ بين جنبَيْه ! وتمثل بقول الشاعر :

ولا خيرَ فى عِرضِ آمرئٍ لا يَصونُه ولا خيرَ فى حِلمِ آمرئٍ ذَلَّ جانِبُه

دفع الجهل بالجهل

قال محمد بن وُهَيب :

لئن كنتُ مُحتاجاً إلى الحلم إنَّنى إلى الجهل فى بعض الأحايين أحْوَجُ

ولِى فَرَسٌ للحلمِ بالحلمِ مُلْجَمٌ ولِى فرسٌ للجهل بالجهل مُسرَجُ

فمَنْ رام تَقْويمى فإنى مُقَوَّمٌ ومن رام تعويجى فإنى مُعَوَّجُ

وما كنتُ أرْضى الجهلَ خِدْناً وصاحباً ولكننى أرْضى به حين أُحْرَجُ

وإن قال بعضُ الناس : فيه سماجةٌ فقد صدَقوا ، والذّلّ بالحُرّ أسْمَجُ

وقال إياسُ بنُ قتادةَ — وهو بارعٌ جدا — :

تُعاقِبُ أيْدينا ويَحْلُمُ رأيُنا ونَشْتِمُ بالأفعالِ لا بالتكلّم

وقال أَوْسُ بن حَبْناءَ — شاعر إسلامى تميمى وحبناء أمه — :

إذا المرءُ أولاكَ الهَوانَ فأَوْلِهِ هَواناً وإن كانت قريباً أَوَاصِرُهُ [1]

(١) يقول : إذا سامك إنسان ذلا وهواناً فأوله من الذل والهوان ما ترد به =

وإنْ أنت لم تَقدِرْ على أن تُهينَهُ   فذَرْه إلى اليومِ الذى أنتَ قادِرُهْ[١]
وقارِبْ إذا ما لمْ تكُنْ لك حِيلةٌ   وصَمِّمْ إذا أيقنْتَ أنك عاقِرُهْ[٢]
وقالوا : الشر لا يَدْفَعُه إلا الشر والحديدُ بالحديد يُفْلَحُ[٣] ...

من نهى عن الاغترار بحلمه

قال المتنبي :

وأطْمَعَ عامِرَ البُقْيَا عليها   ونَزّقَها احتمالُكَ والوَقار[٤]

وقال آخر :

ولا يَغْرُرْكَ طُولُ الحِلمِ منى   فما أبداً تُصادِفُنى حَليما

وقال آخر :

احْذَرْ مغايَظَ أقوام ذوى أنَفٍ   إنّ المَغيظَ جَهولُ السيفِ مَجنونُ

الحلم مغرٍ وضار مذل

قال الأحنف لِرَجل : ليتَ طُولَ حِلْمِنا عليك لا يَدْعو جَهْلَ غيرنا إليك .

كيده عنك وتشفى به نفسك وإن كان الذى سامك الخسف يمت إليك بسبب من القرابة وقوله قريباً خبر كان ولم يقل قريبة على حدّ قوله تعالى : إن رحمة الله قريب من المحسنين

(١) قادره : أى قادر فيه

(٢) عاقره : قاتله

(٣) يفلح : يشق

(٤) منع عامر من الصرف لأنه أراد القبيلة ، والبقيا اسم من الإبقاء يقول : وأطمعهم فى العصيان إبقاؤك عليهم وعدولك عن الإيقاع بهم ، وحملهم على الطيش حلمك عنهم وامتناعك من الانتقام منهم

وقيل للأحنف : ما الحلم ؟ فقال : الرضا بالذل ...

وقالوا : الشُّهْرَةُ بالملاينةِ والخير شرٌّ من الاشتهارِ بالغِلْظةِ والشرّ ، لأن مَن عُرِفَ بالخير اجترأ عليه الناس ، ومَن عُرِفَ بالشر هابَهُ الناس وتجنَّبُوه .

وقال معاوية : ما وَلَدَتْ قُرَشِيَّةٌ خيراً لِقُرَشِيٍّ مِنى ، فقال رجل كان حاضراً : بل ما وَلَدَتْ شراً لهم منك ، فقال : كيف ؟ قال : لأنك عَوَّدْتَهم عادة يطلبُونها ممن بَعْدَكَ فلا يُجيبونهم إليها فيَحْمِلون عليهم كحَمْلِهم عليك وكأنى بهم كالزِّقاقِ المنفوخةِ على طُرقاتِ المدينة . . .

نهيهم عن إكرام اللئام

قال المتنبي :

إذا أنت أكرمتَ الكريمَ ملكْتَه وإن أنتَ أكرمتَ اللئيم تمرَّدا

ووضْعُ النَّدَى فى موضع السيفِ بالعُلا
مُضِرٌّ كوضعِ السيفِ فى موضع النَّدى

وقبلهما :

وما قتل الأحرارَ كالعفْو عنهُمُ ومن لك بالحُرِّ الذى يَحفَظُ اليَدا

وقالوا : استعمالُ الحلم مع اللئيم أضرُّ مع استعمال الجهل مع الكريم .

وقال يزيد بن مُعاوية لأبيه : هل ذَمَمْتَ عاقبةَ حِلم ؟ قال : ماحَلُمت عن لئيم وإن كان وليا إلا أعقَبَنى نَدَماً ، ولا أقدمتُ على كريم وإن كان عدوا إلا أعقبنى أسفا . . .

وقال الشاعر :

متى تضعِ الكرامةَ فى لئيمٍ فإنك قد أسأتَ إلى الكرامهْ

الاستعانة بالجهل لدى الحاجة إليه

قال العباس بنُ الأحنف :

ومَن يَحْلُمْ وليس له سفيه يُلاقِ المُعْضِلاتِ من الرجال

وقال غيره :

ولا يلبثُ الجُهَّالُ أن يتهضَّموا أخا الحِلمِ مالم يَسْتَعِنْ بجَهُولِ

وبَينا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضى الله عنه جالسٌ إذ أقبلَ أعرابىٌّ ، فلطَمَه ، فقام إليه رجلٌ فجلَد به الأرض ، فقال ابنُ عمر : ليس بعزيزٍ من ليس فى قومِه سفيهٌ . . .

حث القادر على العقاب قبل فوته

قد أسلفنا كثيراً من عبقرياتهم فى هذا المعنى ، وقال أبو أذينة الغسانى : يُحرِّض ابنَ عمِّه الأسودَ بن المنذر على قتل جماعةٍ من ملوك الشام كان قد أسرهم فأراد أن يعفُوَ عنهم :

ما كُلَّ يومٍ ينالُ المرءُ ما طلبا ولا يُسوِّغُه المقدارُ ما وَهبا
وأنصفُ الناسِ فى كلِّ المَواطِنِ مَنْ سَقَى الأعادِىَ بالكأسِ التى شَرِبا
وليس يَظلِمُهُمُ مَن بات يضْرِبُهم بحَدِّ سَيْفٍ به من قَبلِهم ضُرِبَا
فالعفْوُ إلا عن الأعداءِ مَكْرُمةٌ من قال غيرَ الذى قد قُلتُه كَذَبا
قَتَلْتَ عَمْراً وتَسْتَبْقِى يزيدَ لقدْ رأيْتَ رَأْياً يجُرُّ الوَيْلَ والحَرَبا
لا تَقْطَعَنْ ذَنَبَ الأفعَى وتَترُكَها إنْ كُنْتَ شَهْماً فأتْبِعْ رَأْسَها الذَّنَبا(١)

(١) الشهم : الذكى الفؤاد المتوقد النجد النافذ فى الأمور

هم جَرَّدوا السيفَ فاجْعَلْهم به جزراً
هم أوقدوا النارَ فاجْعَلْهم لها حطبا [1]

ومنها :

لا عَفْوَ عن مِثْلِهم فى مثلِ ما طَلَبُوا ... لكنَّ ذلك كان الهُلْكَ والعَطَبا
عَلَامَ تَقْبَلُ منهم فِدْيةً وَهُمُ ... لا فِضَّةً قَبِلوا مِنَّا ولا ذَهَبا

وكتب يحيى بن خالد البرمكى إلى الرشيد من الحبس : إن كان الذنبُ خاصًّا . فلا تُعَمِّمْ بالعقوبة ، فمعى سلامةُ البرىء ، ومودَّةُ الولىّ ؛ فكتب إليه : قُضِيَ الأمرُ الذى فيه تَسْتفتِيان ...

وقال بعضُهم لأبى جعفر المنصور : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تَسْمَع بالعفو ! فقال : لأنَّ بنى مروان لم تَبْلَ رِمَمُهم ، وآلُ أبى طالب لم تُغْمَدْ سيوفُهم ، ونحن بين أقوام قد رأَوْنا بالأمس سُوقة واليومَ خُلفاء ، فليس تتمهَّدُ الهيْبةُ فى صُدورهم إلا باطِّراح العفْو واستعمالِ العقوبة ...

التبجح بقسوة القلب وقلة الرحمة

كان محمدُ بنُ عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق قد اتخذ تَنُّوراً من حديد ، وأطرافُ مَساميره قائمة مثل رُؤس المَسَالّ ، فى أيام وزارته ، وكان يعذِّبُ فيه المصادَرِين وأربابَ الدواوين المطلوبين بالأموال ، فيجدون لذلك أشدَّ الألم ، ولم يَسبِقْهُ أحدٌ إلى هذا النَّوعِ من العقاب ، وكان إذا قال له أحدٌ منهم : أيها الوزيرُ ، ارْحَمْنى ، يقول له : الرحمةُ خَوَرٌ فى الطبيعة ، فلما

(١) اجعلهم جزرا : أى قطعاً ومن ذا قولهم : تركهم جزراً للسباع والطير أى قتلهم حتى صاروا قطعا تأكلها السباع والطير

اعتقله المتوكِّلُ أمَرَ بإدخاله فى التَّنُّور وقيَّدَهُ بخَمْسةَ عشر رِطلا من الحديد، فقال: يا أميرَ المؤمنين، ارحَمْنى، فقال له: الرحمةُ خَوَرٌ فى الطبيعة، كما كان يقول للناس. ثم يتمثل:

* فلا تَجزَعَنْ من سِيرةٍ أنتَ سِرْتَها (١) *

ووقَع مرةً فى قصةِ رجل: دَعْنى من ذِكر الرحمة والإشفاق، فما هما إلا للنِّسوان والصبيان...

وقال المتنبي:

يَدْخُلُ صَبرُ المرءِ فى مَدحِه ويدخُلُ الإشفاقُ فى ثَلْبِه (٢)

« الثلب: الذم والعاب، يقول: إنّ الصبر مما يمدح به الإنسان والإشفاق مما يعاب به »

أخذ البرىء بذنب الجانى

قال الله تعالى: « واتَّقُوا فِتْنةً لا تُصيبنَّ الذين ظلَموا منكم خاصَّة »

وقال الحارث بنُ حِلِّزةَ اليشكرى من معلقته التى ارتجلها بين يدى عمرو بن هند ملك الحيرة فى شىء كان بين بكر وتغلب:

عَنَناً باطِلًا وظُلماً كما تُعْـ ـتَرُ عن حَجْرةِ الرَّبيضِ الظِّباءُ

« العنن: الاعتراض يقال: عَنَّ يَعِنُّ ويَعُنُّ عَنًّا وعُنوناً واعتَنَّ: عَرَض واعترض، والاسمُ العَنَن، والحَجرة: الناحية، والجمع: حَجْر

(١) هذا مثل تقدم القول عليه فى الجزء الأول صفحة ٢٣

(٢) من قصيدته التى يعزى بها أبا شجاع عضد الدولة بعمته وأولها:

آخرما المَلْكُ مُعَزًّى بِهِ هذا الذى أثَّر فى قلبِه

وحَجَرات مثل جَمْرة وجَمْر وجَمَرات ، والعتر ، ذبح العتيرة ، وهي ذبيحة كانت تذبح للأصنام في رجب ، والربيض : الغنم الرابضة في مرْبَضِها ، وقد كان الرجلُ في الجاهلية ينذر : إن بَلَّغ الله غَنَمَه مائةً ذبح منها واحدةً للأصنام ، ثم رُبَّما ضَنَّتْ نفسُه بها فأخذ ظبياً وذبَحَه مكانَ الشاة الواجبة عليه يقول : ألزمتمونا ذنبَ غيرنا عَنَناً باطلا كما يُذبح الظَّبْيُ لِحَقٍ وجب في الغنم »

وقال النابغة الذبياني من أبياته العينية التي يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر .

أتانِي أَبيْتَ اللَّعْنَ أنكَ لُمْتَني ... وتلك التي تَسْتَكُّ منها المسامعُ

مقالةُ أنْ قدْ قلتَ : سوفَ أنالُه ... وذلك من تِلقاءِ مثلِكَ رائعُ

أتُوعِدُ عَبداً لم يخُنْكَ أمانةً ... وتترُكُ عبداً ظالمـا وهْوَ ظالِعُ

وحَمَّلْتَني ذنبَ امرئٍ وتركته ... كَذِي العُرِّ يُكْوَى غيرُه وهْو راتعُ

وذلك أمرٌ لم أكن لِأقولَهُ ... ولو كُبِّلَتْ في ساعِدَيَّ الجوامعُ

أتاك بقولٍ لَهْلَهِ النَّسْجِ كاذبا ... ولم يأتِ بالحقِّ الذي هو ناصِعُ

لَعَمْرِي وما عَمْرِي علَيَّ بهَيِّنٍ ... لقد نَطَقَتْ بُطْلًا عليَّ الأقارِعُ

ومنها :

وَعِيدُ أبي قابوسَ في غير كُنْهِهِ ... أتاني ودُونِي راكِسٌ فالضَّواجِعُ

فبِتُّ كأني ساوَرَتْني ضَئِيلةٌ ... من الرُّقْشِ في أنيابها السُّمُّ ناقِعُ

يُسَهَّدُ في ليـلِ التِّمامِ سليمُها ... لِحَلْيِ النساء في يَدَيْهِ قَعاقِعُ

تناذَرَها الراقونَ من سوء سُمِّها ... تُطلِّقُه طَوْراً وطَوْراً تُراجع

ومنها :

حلفتُ فلم أترُكْ لنَفْسِكَ رِيبةً ... وهل يأثَمَنْ ذو إمَّةٍ وهْو طائِعُ

فإنك كالليل الذي هو مُدْرِكي ... وإن خِلْتُ أنَّ المُنْتأَى عنك واسعُ

« وإليك شرح هـذه الأبيات : أبيت اللعن : أبيتَ أن تأتيَ من

الأخلاق المذمومة ما تُلعَنُ عليه ، وكانت هـذه تحيَّةَ لَخم وجُذام ، وكانت منازلهم الحِيرة وما يَليها ، وكانت تحيةُ ملوك غَسّان : يا خيرَ الفِتيان ، وكانت منازلهم الشام : وتستكُّ : تَنْسَـدُّ ولا تَسمَع ؛ ورائع : مُفْزِع ومُخوِّف . وإضافة مقالة إلى أن قد قلت من إضافة الأعمّ إلى الأخص ، وهى من الإضافة البيانية أى مقالة هى هذا القول . وظالِع : مائل . والعُرّ : قَرْحٌ يأخذ الإبل فى مَشافِرها وأطرافها شبيه بالقَرَع ، وربما تفرّق فى مشافرها مثل القُوباء ، يَسيل منه ماءٌ أصفرُ ، وكان الأعرابُ إذا وقع العُرُّ فى إبل أحدهم اعترضوا بَعيراً صحيحاً من تلك الإبل فكَوَوْا مِشْفَرَه وعَضُدَه وفَخْذَه يرون أنهم إذا فعلوا ذلك ذهَب العُرُّ من إبلهم . وقيل : إنما كانوا يَكْوُون الصحيحَ لئلا يَتعلقَ به الداءُ لا لِيَبْرَأَ السقيم . وكُبِّلَتْ : قُيِّدت . والجوامع : الأغلال ، جمع جامعة . وثوبٌ لَهْـلَهُ النسج وهلهل النسج : إذا كان رقيقاً ، وناصع : بيّن واضح . وقوله : لعَمْرى ... البيت فالعَمر بفتح العـين هو العُمر بضمها لكن خُصَّ استعمال المفتوح فى القَسَم ، أى ما قَسَمِى بعُمْرى هين على حتى يتهمنى متهم بأنى أحلف كاذباً ، والبطل ـ بالضم : ـ هو الباطل والأقارع : هم بنو قُريع بن عوف الذين كانوا سعَوْا به إلى النعمان بن المنذر حتى تغيَّرَ له . وأبو قابوس : كنية النعمان بن المنذر . وقوله فى غير كُنهه : أى جاءنى وعيدُه فى غير قدر الوعيد ، أى لم أكُن بلغتُ مايغضب علىّ فيه . وراكس : وادٍ ، والضواجع جمع ضاجعة وهو مُنْحَنَى الوادى . وقوله : فبتُّ ... البيت فالمساورة : المواثبة ، والأفعى لا تَلدَغُ إلا وَثبا . وضـئيلة : هى الحية الدقيقة القليلة اللحم . والرُّقش من الحيّات : المنَقّطة بسواد ، وهى من شِرارِها ، والسم مبتدأ وناقع خبر ويجوز فى غير الشعر ناقعاً على الحالية وفى أنيابها هو الخبر . وليل التمام بكسر التاء أطول ليلة فى السنة ، والسليم :

اللديغ ، وسمت العرب الملسوع سليما تفاؤلا . وقوله : لحلى النساء فى يديه قعاقع : فقد كان الملدوغ يُجعَل الحَلْىُ فى يديه والجلاجل حتى لا ينام فيَدِبَّ السُّمُّ . فيه وتناذرها الراقون يروى أيضاً : تناذرها الحاوُون ، وهو جمع حاوٍ ، وهو الذى يُمْسِكُ الحيَّاتِ ، أى أنذر بعضهم بعضاً بأنها لا تُجيبُ راقياً وقوله : تُطَلِّقُهُ : تخِفُّ عنه مرة وتشــتدُّ عليه مرة ، ومثل ذلك قول الآخر :

تبيتُ الهمومُ الطارقاتُ يعُدْنَنِي   كما تعْــتَرِى الأوصابُ رأس المُطَلَّقِ

يقال : طُلِّقَ السَّليم : رَجَعَتْ إليه نفْسُه وسكن وجَعُه بعد العِدَاد[1] فهو مُطلَّق ، قال المبرِّد : وهذا هو الذى ذكره النابغة قال : وذلك أن المنهوش إذا ألحَّ الوجعُ به تارةً وأمسك عنه تارةً فقد قارب أن يُوْيَسَ من بُرئه ، وإنما ذكر خوفه من النعمان وما يعتريه من لَوعة فى إثرِ فَترة والخائفُ لاينامُ إلا غِراراً ، فلذلك شبه بالملدوغ المُسَهَّدِ . والإمَّة لغة فى الأُمَّة : الدِّين والخير ثم شبهه فى البيت الأخير فى حال سخطه بالليل الشديد الظلمة لا يُهتَدى فيه »

ووقف رجلٌ على الحجاج فقال : أصلحَ الله الأمير ، جَنَى جان فى الحىِّ فأُخِذْتُ بجريرتِه وأُسْقِط عطائى ، فقال الحجاجُ : أما سمعتَ قولَ الشاعر :

جانيك من يجنِي عليك وقد   تُعْدِى الصحاحَ مَبارِكُ الجُرْبِ[2]

---

(١) العداد : اهتياج وجع اللديغ . وأصله من العدد ، وقيل : عداد السليم : أن تعدّ له سبعة أيام فإن مضت رجوا له البرء ومالم تمض قيل : هو فى عداده

(٢) جانيك من يجنى عليك ، يريد : صاحب جنايتك من يجنى عليك فلا تأخذ

وَلَرُبَّ مأخوذ بذنبِ صديقه ونجا المُقارِفُ صاحبُ الذنْبِ [١]

فقال : أعزّ الله الأمير ، كتابُ الله أولَى ما اتُّبِع ، قال الله تعالى : «معاذ الله أن نأخُذَ إلا من وجدنا متاعنا عنده» فقال الحجاج : صدقتَ ياغلام ، رُدّ اسمه وأثبِتْ رَسْمَه ؛ وأسنِ له عطاءَه .

عذر من بدر منه سخط

قال البحترى :

إذا أحرَجْتَ ذا كرمٍ تخطَّى إليك ببَعْضِ أخلاق اللئام

طائفة من عبقرياتهم فى العداوات

الاحتراس من غرس العداوة

جاء فى كليلة ودمنة : لا ينبغى للعاقل أن تحمله ثقتُه بقُوّته على أن يَجْتَرَّ العداوة ، كما لا يجبُ لصاحب التِّرْياق أن يشرب السُّمّ اتكالا على أدويته .

وقالوا : احذر مُعاداةَ الرجال فالناس رَجُلان : عاقل فاحذر خَتْله ، وأحمقُ فاحذر حُمْقَه

بالعقوبة غيره ، قال أبو عبيد : قولهم : جانيك من يجنى عليك يضرب مثلا للرجل يعاقب بجناية ولا يؤخذ غيره بذنبه ، إنما يجنيك من جنايته راجعة إليك ، وذلك أن الإخوة يجنون على الرجل ، وقال غيره : معناه : الذى تلحقك منفعته هو الذى يلحقك عاره ، يعنى : الذى يجنى لك الخير هو الذى يجنى عليك الشر ، فقولهم : جانيك معناه الجانى لك ، ومباوك الحرب : مواضع بروكها أى : مرابضها ، والجرب : المصابة بالحرب .

(١) قارف فلان الخطيئة : خالطها

وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم فى هذا المعنى فى كتاب الإخوانيات والأصدقاء والصداقة .

نهيهم عن الاغترار بالودّ تُستَبطن معه العداوة

دخل سُدَيْف مولى أبى العباس السفاح [1] على أبى العباس أمير المؤمنين وعنده سُليمان بن هِشام بن عبد الملك وقد أدناهُ وأعطاه يده فقبَّلها ، فلما رأى ذلك سُدَيف أقبل على أبى العباس وقال :

جَرِّد السيفَ وارْفَع العفْوَ حتى ... لا ترى فوقَ ظَهْرِها أمَوِيّا

لا يغُرَّنْك ماترَى من أُناسٍ ... إنّ تحتَ الضُّلوع داءً دَوِيّا

فأقبَلَ عليه سُليمانُ فقال : قتلتنى أيها الشيخ قتلك الله وقام أبو العباس فدخَل ، فإذا المِنديلُ قد أُلقِىَ فى عُنُقِ سليمان ، ثم جُرّ فقُتِلَ .

ودخل شِبْلُ بنُ عبد الله مولَى بنى هاشم على عبد الله بن علىّ ، وقد أجلسَ ثمانينَ رجلا من بنى أُمَيّة على سُمُطِ الطعام ، فمثَل بين يديه وقال :

أصْبَحَ المُلْكُ ثابِتَ الآساسِ ... بالبَهَالِيل من بنى العَبّاس [2]

---

(١) ذكر أبو الفرج فى الأغانى أنه مولى خزاعة وكان سبب ادعائه ولاء بنى هاشم أنه تزوج مولاة لأبى لهب ويقال : بل أبوه هو الذى تزوجها فولدت له سديفاً وسديف شاعر مقل من مخضرمى الدولتين شديد التعصب لبنى هاشم مظهراً لذلك أيام بنى أمية

(٢) الآساس واحدها أسّ ، وقد يقال للواحد : أساس وجمعه أسس ، والبهلول : العزيز الجامع لكل خير

طلبوا وِتْرَ هاشمٍ فشَفَوْها بعد مَيْلٍ مِنَ الزَّمانِ ويَاسِ [(١)]

لا تُقِيلَنَّ عبدَ شمسٍ عِثارًا واقْطَعَنْ كلَّ رَقْلَةٍ وَأَوَاسِى [(٢)]

ذُلُّها أظهرَ التَّوَدُّدَ مِنْهَا وبها مِنْكُمُ كحَزِّ المَوَاسِى

ولقد غاظَنِى وغاظ سَوائِى قُرْبُهُمْ من نمارِقٍ وكراسِى [(٣)]

أنزِلوها بحَيْثُ أنزَلَهَا الله بدار الهوانِ والإتعاسِ

واذكُروا مصرع الحسين وزيداً وقتيلاً بجانب المِهْرَاسِ [(٤)]

والقتيلَ الذى بحرَّانَ أضحى ثاوِياً بين غُرْبَةٍ وتَنَاسِ [(٥)]

نِعْمَ شِبْلُ الهِراش مولاكَ شِبْلٌ لو نجا من حبائل الإفلاسِ

فأمر بهم عبد الله ، فشُدِخوا بالعَمَدِ ، وبُسِطَتْ عليهم البُسُط ، وجلس عليها ودَعا بالطعام وإنه ليَسْمَعُ أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً ، ولمّا فرغ من الأكل قال : ما أعلَمنِي أكلْتُ أكلةً قطُّ أهنأَ ولا أطيب لنفسى منها ! وقال

(١) يقال فيك ميل علينا بسكون الياء أما كل منتصب مثل الحائط فيقال : فى الحائط ميل بالتحريك

(٢) الرقلة : النخلة الطويلة ويقال ـ إذا وصف الرجل بالطول ـ : كأنه رقلة ، والأواسى : جمع آسية وهى : أصل البناء بمنزلة الأساس

(٣) النمارق جمع نمرقة وهى : الوسائد

(٤) زيد هو زيد بن على بن الحسين ، خرج على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ وقتله يوسف بن عمر الثقفى أمير العراق لهشام وصلبه بالكناسة ـ محلة بالكوفة ـ عريانا هو وجماعة من أصحابه ، وقوله : وقتيلا بجانب المهراس فالمهراس : ماء بأحد ويريد : حمزة بن عبد المطلب ، وإنما نسب شبل قتل حمزة إلى بنى أمية لأن أبا سفيان ابن حرب كان قائد كفار قريش يوم أحد

(٥) القتيل الذى بحران هو إبراهيم بن محمد بن على ، وهو الذى يقال له الإمام

لِشِبْل : لولا أنك خلطتَ كلامك بالمسألةِ لأغْنَمْتُكَ جميعَ أموالهم [١] ، ولَعَقَدْتُ لك على جميع موالى بنى هاشم .

وقال المتنبي :

فـلا تَغْرُرْكَ أَلْسِنَةٌ مَوالٍ ... تُقَلِّبُهُنَّ أَفْئِدَةٌ أعادى [٢]

وكُنْ كالموتِ لا يَرْثى لِباكٍ ... بكى منه ويَرْوَى وهو صادِ [٣]

فإن الجُرْحَ يَنْفِرُ بعد حينٍ ... إذا كان البِناءُ على فسادِ

« قوله : فإن الجرح ... البيت : مثله قول البُحْتُرى :

إذا ما الجُرحُ رُمَّ على فسادٍ ... تَبَيَّنَ فيه تفريطُ الطبيب

وفى كليلة ودمنة : لا يَغُرُّ العاقلَ سكونُ الحقد فى القلب مالم يجدْ مُحَرِّكا فإنه كالجمْر المكنون مالم يجد حَطَباً ؛ والعداوةُ إذا وَجَدَت فُرصَةً اشتعلَتْ فلا يُطْفِئها شىء دون النفس ...

---

(١) بالمسألة يريد : سؤاله إذ قال :

نعم شبل الهراش مولاك شبل ... لو نجا من حبائل الإفلاس

(٢) موال : جمع مولى وهو الولى والصديق يقول : لا تغتر بما تراه من إظهار ودهم فإن تلك الألسنة الموالية تقلبها أفئدة معادية

(٣) لا يرثى : لا يرحم . والصادى : العطشان ، يقول : كن قاسياً عليهم كالموت لا يرحم الباكى من خوفه ، ويروى وهو صاد كأنه لطلبه الشرب بعد الرى صاد ، أى لطلب النفوس ، ومعنى يروى : ينال مالو أدركه لروى

* كالموت ليس له رى ولا شبع *

(٤) نفر الجرح : هاج وورم بعد البرء وقوله : إذا كان البناء على فساد أى إذا نبت اللحم على ظاهره وله غور فاسد ، يعنى . أنهم يطوون العداوة فى أنفسهم إلى أن تمكنهم الفرصة .

نهيهم عن السكون إلى من تقدم منك إليه إساءة

يُحكى أن رجلا كان له عبدٌ سِنْدِيٌّ ، فتعرَّض لامرأته ، فعلِمَ الرجلُ بذلك ، فأخذه وجبَّه ، ثم تحوَّبَ لذلك ، فداواه ، فلما برَأَ اتَّفق أن غاب الرجل يوماً ، فعَمَدَ السِّنْدِيُّ المجْبُوبُ إلى ابنيْنِ كانا لسيِّده فأخذهما وصَعِدَ السُّورَ ، فلما بَصُرَ بالرَّجل قال : والله إن لم تجُبَّ نفْسَك كما جبَبْتَنِى لأقْذِفَنَّهما من السور لِيَمُوتا ، وإنَّ نفْسِى لأهْونُ من شربة ماء ، فلما رأى الرجلُ منه الجِدَّ جَبَّ نفْسَه ، فرَمَى العبدُ بالابْنَيْنِ من السُّور وقال : إنَّ جَبَّك نفسَك قِصاصٌ لِمَا جبَبْتَنِى ، وقتلَ ابنيْكَ زِيادةٌ أعطيْتُكَها ...

وتزعمُ العرب : أن أخَوَيْنِ كانا فى إبِلٍ لهما ، فأجْدَبَتْ بلادُهما ، وكان بالقُرْب منهما وادٍ خَصيبٌ وفيه حَيَّة تحميه من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان ، لو أنى أتيتُ هذا الوادىَ المُكْلِئَ فرعَيتُ فيه إبلى وأصلحتُها ؟ فقال له أخوه : إنى أخاف عليك الحيَّة ، ألا ترى أن أحداً لا يَهبِطُ ذلك الوادى إلا أهلكَتْه ، قال : فوالله لأفعلَنَّ ، فهبَطَ الوادى ورَعَى به إبلَه زَماناً ، ثم إن الحيةَ نَهَشَتْه فقتلته ، فقال أخوه : والله ، ما فى الحياة بعد أخِى خير ، فلأطْلُبَنَّ الحية ولأقتلنَّها ، أو لأتْبعَنْ أخى ، فهبط ذلك الوادىَ وطلَب الحية ليقْتُلها طلباً بثأره ، فقالت له الحيةُ : فهلْ لك فى الصُّلح ، فأدَعُك بهذا الوادى تكون فيه وأعطيك كلَّ يومٍ ديناراً ما بَقيت ؟ قال : أوَفاعلةٌ أنتِ ؟ قالت : نعم ، قال : إنى أفعل ، فحلف لها وأعطاها المواثيق : لا يَضرها ، وجعلت تعطيه كلَّ يوم ديناراً ؛ فكثُر مالُه حتى صار من أحسن الناس حالا ؛ ثم إنه ذكر أخاه فقال : كيف ينفعُنى العيشُ وأنا

أنظُرُ إلى قاتِلِ أخِي ! فعمَد إلى فأسه فأخذَها؛ ثم رَصَد لها، حتى خرجتْ، فضرَبها ضَربةً شَجَّتْ رأسَها، فلما رأت ما فعل قطعَت عنه الدينار، فخاف الرجل شرَّها ونَدِم، فقال لها: هل لَكِ أن نتواثَقَ ونعودَ إلى ما كُنَّا عليه؟ فقالت: كيف أعاوِدك وهذا أثرُ فأسك وهذا قبرُ أخيك! وقد ذكر هذه الحكاية النابغة الذبيانى فى أبيات له لا داعى إلى إيرادها وقد جاء فى ختامها هذا البيت:

أبَى لكَ قبرٌ لا يزال مُواجِهِى وضرْبَةُ فأسٍ فوقَ رأسِيَ فاغِرَهْ

نهيهم عن احتقار العدو

قال ابن نُباتة السعدِىّ:

وإذا عجزْتَ عن العدُوِّ فدارِه وامْزُجْ له إن المِـزاجَ وِفاقُ

فالنارُ بالمـاءِ الذى هو ضِـدُّها تُعطِى النِّضاجَ وطبعُها الإحراقُ

وقالوا: لا يُتَّقَى العدوُّ القوى بمِثْلِ الخُضوع واللين، وتَمَثُّلُ ذلك مثل الريح العاصف تَقْلَعُ الأشجار العِظـام، لتَأبِّيها عليها، ويَسْلَمُ منها النباتُ اللين لتَمايُله معها.

ومن أمثالهم: إذا عَز أخوك فهُنْ

« قال الإمام ثعلب: هذا مثل ومعناه: إذا تعظَّم أخوك شامِخاً عليـك فالتزِمْ له الهَوان؛ وعبارة الأزهرىّ: المعنى: إذا غلبك وقهرك ولم تقاوِمْه فتواضع له، فإنّ اضطرابك عليه يزيدك ذُلاًّ وخَبالا؛ وقال الزجّاج: الذى قاله ثعلب خطأ، وإنما الكلام. إذا عزَّ أخوك فهِنْ ـ بكسر الهاء ـ ومعناه إذا اشتدَّ عليك فهِنْ له وداره، وهذا من مكارم الأخلاق، كما رُوِى عن

معاويةَ رضى الله عنه أنه قال : لو أنّ بينى وبين الناس شَعْرةً يمُدّونها وأمُدّها ما انقطعت ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا أرْخَوها مَدَدْتُ ، وإذا مَدُّوها أرْخيْت ، فالصحيح فى هذا المثل ، فِهنْ بالكسر، من قولهم : هان يَهِينُ : إذا صار هيِّناً لَيِّنا ، كقوله :

هَيْنُون لَيْنُون أيسارٌ ذَوُو كَرم سُوّاس مَكْرُمةٍ أبناءُ أطْهارِ

وإذا قالوا : فَهُنْ فهو من الهَوان ، والعربُ لا تأمر بذلك ، لأنهم أعِزّة أبّاؤن للضّيم . وقال ابنُ سِيدَه . وعندى أن الذى قاله ثعلب صحيح لقول ابن الأحمر - شاعر إسلامى - :

وقارِعةٍ مِن الأيامِ لولا سبيلُهم لزاحتْ عنك حِينا

دَبَبْتُ لها الضَّرَاءَ وقلتُ : أبْقَى إذا عَزّ ابنُ عَمِّك أن تَهُونا [1]

المتبجح بإظهار الليان وإضمار العداوة

قال المتنبى :

وجاهِلٍ مَدَّه فى جَهلِه ضَحِكى حتى أتتْهُ يدٌ فَرّاسة وفَمُ

إذا نَظَرْتَ نُيُوبَ اللَّيْث بارزةً فلا تَظُنّنّ أنّ الليث مُبْتسِمُ

« مَدّه : أمهله وطوّل له ، وأصل الفَرْس : دق العنق يقول : رُبَّ جاهل خدَعَتْه مُجاملَتى وتَرْكَهَ فى حُمْقِه ضَحكى منه حتى افترسته وبطشتُ به بعدَ زمان يعنِى أنه يُغضِى عن الجاهل ويَحلُم إلى أن يُجازيَه ويَعصِف به ، ثم قال فى

(١) الضراء فى الأصل : الشجر الملتف فى الوادى يقال : فلان يمشى الضراء : إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر ، والضراء أيضا : المشى فيما يواريك عمن تكيده وتختله يقال : فلان لا يدب له الضراء ، . يقال للرجل - إذا ختل صاحبه ومكر به : هو يدب له الضراء

البيت التالى : إذا كشر الأسد عن نابه فليس ذلك تبسّما ، بل قصداً للافتراس ، يريد : أنه وإن أبْدَى بِشْرَهُ ، وتبسُّمَه للجاهل فليس ذلك رضًى عنه ، وفى مثل هذا يقول أبو تمام :

قدْ قَلَصتْ شفتاهُ من حَفِيظتِهِ فَخِيلَ من شدّةِ التعْبِيسِ مُبتَسِما

العدوّ يكاشرك إذا حضرك

قال المثقّب العبدى ـ شاعر جاهلى ـ :

إنّ شَرَّ الناس مَن يَكْشِرُ لى حِين ألقاهُ وإن غبتُ شَتمْ

وقال ابن الرومىّ :

يُبيحُ لى صفحةَ السلامة والسِّلْـــمِ ويُخْفِى فى قلبـــه مرَضا

وقال المتنبي :

أبْدُو فيسجدُ مَن بالسُّوءِ يذكرُنى ولا أُعاتبهُ صفْحاً وإهْوانَا [١]

ومما يصح أن يذكَرَ هنا ما رُوى : أنه قِيلَ لأعرابى : كيف فلانٌ فيكم ؟ فقال : إذا حَضَر هِبناه ، وإن غاب اغتبناه ، قال : ذاك هو السيد فيكم . . .

من نظره ينبىء عن عداوته

وتحذيرهم من العداوة المستورة

قال شاعر :

سُتورُ الضمائِرِ مَهْتوكةٌ إذا ما تلا حظَت الأعيُنُ

وقال زُهَيْرُ بن أبى سُلمَى :

وما يكُ فى عدوٍّ أو صديقٍ تُخَبِّرْكَ العيونُ عن القُلوب

(١) يقول : إذا ظهرت لمن يذكرنى بالسوء فى غيبتى عظمنى وخضع لى وأنا أعرض عن عتابه إعراضا عنه واحتقارا له لأنه لايقدر أن ينظر إلىّ فى حضرتى .

وقال عُمَيْرُ بن حُباب :

أَلَا رُبَّ مَن تدعو صديقاً ولو ترى مَقالتَه في الغيب ساءك ما يَفْرِى [1]

يُسُرُّكَ بادِيهِ وتحت أديمه نَمِيمَةُ شَرٍّ تبترى عصبَ الظهرِ [2]

تُبينُ لك العينان ما هو كاتمٌ من الضِّغْنِ والشحناءِ بالنَّظرِ الشَّزْرِ

وَفينا ـ وإن قيل اصطلحنا ـ تضاغنٌ كما طَرَّ أَوْبارُ الجِراب على النَّشْرِ [3]

وقال أبو نواس :

كَمَنَ الشَّنْآنُ فيه لنا كَكُمونِ النار في حَجَرِهْ [4]

وقبلَه :

وابنِ عَمٍّ لا يُكاشِفُنا قد لَبِسْناهُ على غَمَرِهْ [5]

وهى الأبيات التى يقول فيها :

لا أذودُ الطيرَ عن شجرٍ قد بَلوتُ المُرَّ من ثَمرِهْ

وقال زُفَرُ بن الحارث :

وقد ينبُتُ المَرْعى على دِمَنِ الثَّرَى وتبقَى حَزازاتُ النفوسِ كما هِيا [6]

---

(١) يفرى : يختلق ويكذب ، من الافتراء

(٢) تبترى : تبرى وتنحت

(٣) جاء في اللسان : النشر : الكلأ يهيج أعلاه وأسفله ندى أخضر تدفى منه الإبل إذا رعته ، واستشهد بالبيت ثم قال : يقول : ظاهرنا في الصلح حسن في مرآة العين وباطننا فاسد كما تحسن أوبار الجربى عن أكل النشر وتحتها داء منه في أجوافها . وقال أبو منصور الأزهرى : وقيل النشر في هذا البيت نشر الجرب بعد ذهابه ونبات الوبر عليه حتى يخفى ، قال : وهذا هو الصواب

(٤) الشنآن : البغض . يقول : البغض قد كمن فيه واستتر مثل كمون النار في الحجر الذى يوريه ويقدحه

(٥) لا يكاشفنا : لا يظهرنا على العداوة ، ولبسناه على غمره : عاشرناه على ما به من حقد

(٦) الدمن جمع دمنة والمراد : الموضع الذى يتلبد فيه السرقين وأبعار الغنم والبقر ، وفى الحديث : إياكم وخضراء الدمن ، قيل : وما ذاك . قال صلى الله

وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر الفتن فقال : يكون بعدها هُدْنَةٌ على دَخَنٍ وجماعةٌ على أقْذَاءٍ » وأصلُ الهُدنة : السكون بعد الهيج ، ومنه قيل للصلح بعد القتال بين كل مُتحاربين : هُدنة ، لأنها مُلاينَة وفترة سكون بين المتقاتلين ، والدخن : الـكُدُورَةُ إلى السوادِ كالدخان . والمراد سكون على غِل»

ثبات العداوة الذاتية

قالوا فى ذلك : الوُدُّ والعداوة يُتَوارثان .

وفى كَليلةَ ودمنةَ : ليس بين العداوة الجوهرية صُلحٌ وإن اجْتُهد ، فالماءُ وإن أُطيل إسخانُه فليس يمتَنِـع من إطفاءِ النار إذا صُبَّ عليها . ويُحكى : أنَّ أعرابيًا أخذ جَروَ ذئب ، فرباه بِلَبن شاةٍ عنده ، وقال : إذا ربيتُه مع الشاة أنِسَ بها ، فيذُبُّ عنها ويكونُ أشدَّ من الـكلب ، ولا يعرف طبع أجناسه ، فلما قوىَ وَثبَ على شاةٍ فافترسها ، فقال الأعرابىُّ :

أكلتَ شُوَيهتى ونشأتَ فينا فما أدراكَ أن أباكَ ذِيبُ

حمد المداجاة طلبا للفرصة

قال على كرّم اللهُ وجهه : أنـكى الأشياء لعـدُوّك أنْ لا تُعْلمه أنك اتخذتهُ عَدُوًّا .

وقال القاضى التَّنُوخىّ :

آلقَ العدوَّ بوجهٍ لا قُطوبَ به يَكاد يقطُرُ من ماءِ البَشاشاتِ

فأحزمُ الناسِ مَن يَلقَ أعادِيَه فى جسمِ حِقدٍ وثوبٍ من مَوَدّات

عليه وسلم : المرأة الحسناء فى المنبت السوء ، شبه المرأة بما ينبت فى الدمن من الكلأ يرى له غضارة وهو وبىء المرعى منتن الأصل

الرِّفقُ يُمْنٌ وَخيرُ القوْلِ أصْدَقُه وكَثرةُ المزحِ مِفتاحُ العداواتِ

المسرة بوقوع العداء بين أعدائك

فى كليلة ودِمْنة : من حق العاقل أن يرى معاداةَ بعضِ عَدوه لبعض ظَفَراً حَسناً ، ففى اشتغال بعضهم ببعض خَلاصُه منهم .

دنىء يعاديك بلا سبب

قال المتنبى :

وأتعبُ مَن ناداكَ مَن لا تجيبُه وأغيَظُ من عاداكَ مَن لا تُشاكِلُ

« يقول : أتعبُ مُناد لك مَن ناداك فلم تجبه ، لأنك لا تشفيه بالجواب ، فيَجْهَدَ فى النِّداء ، كما أنَّ أغيظ الأعداء لك مَن عاداك وهو دونك ، لأنك تترفّع عن معارضته فلا تشتفى منه »

وقال شاعر :

يسْطو بلا سببٍ وتلك طبيعةُ الكلْبِ العقُورِ

تأسف من يعاديه لئيم أو دنىء

قال المتنبى فى عذر مَن يخاصم دنيئاً ويدافعه :

إذا أتتِ الإساءةُ من لئيم ولم ألُم المسىءَ فمن ألومُ

وقال علىُّ بن الجهم فى تأسُّف من يعاديه لئيم :

بَلاءٌ ليس يُشبهُه بَلاءٌ عَدَاوةُ غير ذى حسبٍ ودينِ

يُبيحُك منه عِرضاً لم يَصُنه ويرتَع منكَ فى عِرضٍ مَصونِ

ويُحكى : أن خِنزيراً بَعث إلى الأسد وقال : قاتلْنى ، فقال الأسد :

لستَ بِكُفْئِى ، وإن أنا قتلتكَ لم يكن لى ذلك فخراً ، وإن قتلتنى لحقنى عارٌ عظيم ، فقال الخنزير : لأُخبرنَّ السباع بنُكولك ، فقال الأسد : احتمالُ العارِ فى ذلك أيسرُ من التلطخِ بدمِك .

حثهم على العداوة بالقول لا بالفعل

قالوا : غَضَبُ الجاهل فى قوله ، وغضبُ العاقل فى فِعله

وقالوا : « ونشتُمُ بالأفعال لا بالتكلم » وقد تقدم

✡ ✡ ✡

طائفة من عبقرياتهم

فى الناس وما جُبِل عليه السواد الأعظم من الحقد والحسد وسوء الظن والشماتة وما جرى هذا المجرى

ولمناسبة عبقرياتهم فى العداوات نورد عليك هاهنا صدراً من عبقرياتهم فى الناس وما جُبِل عليه السواد الأعظم من الحقد والحسد وسوء الظن والشماتة والمُزاح وما جرى هذا المجرَى

النـــــاس

لا يزال الناس بخير ما تباينوا

من أروع ما قيل فى الناسِ وحكمة تباينهم واختلافهم قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال النّاسُ بخير ما تباينوا ؛ فإذا تساوَوْا هلكوا » «قال ابن الأثير فى النهاية مَعْناه : أنهم إنما يتساوَوْنَ إذا رَضُوا بالنقص وتركوا التنافس فى طلب الفضائل ودَرْك المعالى ، وقد يكون ذلك خاصا فى الجهل ؛ وذلك أن الناس لا يتساوَوْن فى العلم وإنما يتساووْن إذا كانوا كلهم جُهَّالا ، وقيل :

أراد بالتّساوى التحزُّبَ والتّفرُّق وأنْ لا يجتمعوا على إمام ويدَّعِىَ كل واحد الحقَّ لنفسه فينفردَ برأيه . . . وقال أبو عبيد : أحْسَبُ قوله : فإذا تساوَوا هلكوا ، لأن الغالبَ على الناس الشرُّ ، وإنما يكون الخيرُ فى النّادرِ من الرجال ، لعزّته ، فإذا كان التساوى فإنمـا هو فى السُّوء . . . » وقال شاعر :

النَّاسُ أَخْيَافٌ وشَتَّى فِى الشِّيَمْ وَكُلُّهُمْ يَجْمَعُهُم بَيتُ الأَدَمْ

« أخياف : ضُروبٌ مختلفة الأخلاق والأشكال . والأَدَمُ . قيل : أراد آدمَ ، وقيل الأرضَ ، ولعله يشير بهذا إلى ما جاء فى الأثر : كلكم لآدم وآدمُ من تُراب ؛ وقال مُسْلمُ بنُ الوليد :

النّاسُ كلهُمُ لِضِنءٍ واحـدٍ ثم اختلافُ طبَائعٍ فى أنفُس

« الضنء : الأصل » وقالوا : الناسُ فى اختلافِهم فى خُلقِهم كاختلافهم فى خَلْقهم . وقال خالد بنُ صَفوان : الناس أخيافٌ ، منهم مَنْ هو كالكلب ، لا تراه الدهرَ إلا هَرَّارا على النـاس ، ومنهم كالخِنْزير ، لا تراه الدهر إلا قَذِراً ، ومنهم كالقِرْدِ ، يَضْحك من نفسه . وقال بعضهم : النـاس أخياف : عِلْق مَضِنَّة لا يُباع ، وعلقُ مَظِنة لا يُبتاع ، وقال أبو العتاهية :

مَن لَكَ بالمحْضِ وليسَ محْضُ يخْبثُ بعضٌ ويطيبُ بَعضُ

«وقديما قلت فيما قلت ، فى كتابى «الفردوس» : ولِمَ لا يكون هذا الاختلافُ فى الحياة الدنيا بين الأفراد والجماعات إنمـا يُقصدُ به إلى معنى جميل ما منه بُدٌّ ؟ ألسْنا قد نُشِئْنا كأنغام آلات الموسيقى ، هِى وإن اختلفتْ غير أن اجتماعَها يُؤَلِّف من هذا الاختلاف نغما موسيقيًّا متجانساً بديعاً يُطرب السمع ويملِكُ على المرءِ مشاعرَه . ولعل الأصل فى هـذا كله قوله عزَّ وجلَّ : قُلْ كُلٌ يَعْمَلُ على شاكِلتِه فَرَبُّكم أعلمُ بمنْ هوَ أهْدَى سبيلا . . . وقوله :

ولا يزالون مختلفين إلا مَن رَحِم رَبُّك ولذلك خَلقهم وتمت كلمةُ رَبِّكَ لأملأنَّ جهنمَ مِنَ الجِنَّةِ والناسِ أجمعين ...

وجدت الناس آخبر تقله

ومن أبدع ما قيل فى ذَمّ الناسِ ما جاء فى حديث أبى الدرداء : وَجدْتُ الناسَ آخْبُرْ تَقْلِهْ .. قال ابن الأثير فى النهاية : القِلَى : البغض ، يقال : قَلاَهُ يقْليهِ قِلًى وقَلًى : إذا أبغضه ، قال الجوهرى : إذا فتحت مددْتَ ، ويقلاه : لغة طيئ . يقول جرِّبِ الناس فإنك إذا جرَّبتهم قَلَيْتهم وتركتهم ، لما يظهر لك من بواطن سرائرهم . لفظُه لفظُ الأمر ومعناه الخبر ، أى من جَرَّبهم أبْغضهم وتركهم: والهاء فى تقله : للسَّكت . ومعنى نَظْمِ الحديث : وجدت الناس مقولا فيهم هذا القول .

الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة

وجاء فى الحديث الشريف : الناسُ كإبلٍ مائةٍ لا تجدُ فيها راحِلَة . . . « يعنى أنَّ المَرْضِيَّ المنتخبَ من الناس فى عِزَّة وُجُوده كالنجيب من الإبِلِ القوىِّ على الأحمال والأسفار الذى لا يوجد فى كثير من الإبل . وقال الإمامُ الأزهرِىُّ : الذى عندى فى هـذا الحديث : أنَّ الله تعالى ذَم الدنيا وحذَّرَ العبادَ سوء مَغَبّتها وضربَ لهم فيها الأمثالَ لِيَعْتَبروا ، ويحذَروا ، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يحذِّرهم كما حذَّرَهم الله ، فرَغِبَ بعضُ أصحابه بعدَه فيها وتنافسوا عليها حتى كان الزهدُ فى النادِر القليل مِنهم فقال : تجدون الناس بعدى كإبل مائةٍ ليس فيها راحلة ، أى أنَّ الكاملَ فى الزهد فى الدنيا والرغبَةِ فى الآخرة قليل كقِلة الراحلة فى الإبل ، والراحلةُ هي

البعيرُ القوى على الأسفار والأحمال ، النجيبُ التامُّ الخلْق الحَسَنُ المنظرِ ، ويقعُ على الذكَر والأنثى ، والهاء فيه للمُبالغة »

* * *

وقال الشاعر :

الناس مِثل بُيوت الشِّعر كم رَجُلٍ   منهمْ بألفٍ وكم بَيْتٍ بديوانِ

وفى هذا المعنى يقول المعرّى :

الناس كالشِّعْرِ تُلقَى الأرضُ جائشةً   بالجمعِ يُزْجَى وخيْرٌ منهمُ رَجُلُ

لو تكاشفتم ما تدافنتم

ومن كلمة لسيدنا رسول الله صلوات الله عليه : لَوْ تَكاشَفْتم ما تدَافَنْتم . يقول : لو علم بعضكم سريرة بعض لاسْتثْقل تشييعَهُ ودَفْنه . ولعل أبا العتاهية قد أخذ من هذا الحديث قوله :

وفى الناس شرٌّ لو بدَا ما تعاشرُوا   ولكن كساهُ اللهُ ثوبَ غِطاء

* * *

وقالوا فى ذم الناس :

عَوَى الذئب فاسْتأنَسْتُ بالذئب إذْ عَوَى

وَصَوَّتَ إنسانٌ فكدت أطيرُ

وقال المعرّى :

يَحْسُنُ مَرْأًى لبنى آدمٍ   وكلهم فى الذَّوْق لا يَعْذُبُ

ما فيهمُ بَرٌّ ولا ناسكٌ   إلاّ إلى نَفْعٍ له يجذِبُ

أفضلُ من أفضلِهم صخْرةٌ   لا تَظْلِمُ الناسَ ولا تَكذبُ

وقال محمد بن يَسير :

سوْأَةً للنــاس كلهمُ أنَا فى هــذا منَ أوّلهمْ
لستَ تدرى حينَ تَنْسُبُهم أين أدْناهم منَ أفْضلِهم

وقال بعضهم : كنتُ عند الحسن البَصرىِّ ، فقال : أسْمَعُ حَسيسا ، ولا أرَى أنيسا ، صِبيانٌ حيارَى ، مالهم تفاقدُوا عقولهم ، وفَرَاشُ نار ، وذِبّان طمع . وقيل لسفيان الثّورى : دُلَّنا على رجل نجلس إليه ، فقال : تلك ضالة لا توجد ... وقال فُلانٌ : رأيتُ كُلثومَ بن عمرو العتّابىَّ يأكل خُبزاً فى الطريق ، فقلت له أما تستحى أن تأكل بحضرة النـاس ؟ فقال : أرأيت لو كنتَ فى دار فيها بقرٌ ، أما كنتَ تأكل بحضرتهم ؟ قلت : نعم ، قال : فهؤلاء بقر ! ثم قال : إن شئتَ أريتُك دلالة على ذلك ، ثم قام ووعظ ، وجمع قوما ثم قال : رُوى عن غير وجه : أنّ من بلغ لسانهُ أرْنبَةَ أنفه أدخله الله الجنة ، فلم يبق أحد إلا أخرج لسانه ينظر هل يَبْلُغ !

وقال رجل لأحد الشعراء : أين سكةُ الحمير ؟ فقال : اسلك أىَّ سِكة شئت فكُلّها دروبُ الحمير ... ومثل هذا من النَّوادر المستطرفة . . .

وقال بعضهم : الناس أربعة أصناف : آساد ، وذئاب ، وثعالب ، وضأن ، فأما الآساد فالملوك ـ ومَن إليهم من الحكام المستبدين ـ وأما الذئاب فالتجار ، وأمّا الثعالب فالقُرّاء المخادعون (١) . وأما الضأن فالمؤمن ـ يريد الطيب الكريم ـ يَنْهشهُ كلُّ من يراه . وقال كثيِّر عَزّة :

سَوَاسٍ كأسْنان الحمار فما ترَى لِذِى شَيْبَةٍ مِنهم على ناشِئٍ فَضْلاَ

(١) لعل المراد بالقراء : النساك . وقد جاء فى الحديث : أكثر منافقى أمتى قراؤها قال ابن الأثير فى النهاية . أى أنهم يحفظون القرآن نفياً للتهمة عن أنفسهم وهم معتقدون تضييعه وكان المنافقون فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الصفة

« يقال هُمْ سَوَاسِيَةٌ وسَواس وسُوَاسية : إذا استووا فى اللؤم والخسة والشر » وقال آخر :

شَبابُهُمُ وشِيبهم سواءٌ سَوَاسِيَةٌ كأسْنانِ الحمارِ

« وأسنان الحمار مستوية »

وقال طرفة بن العبد :

كل خليل كنت خاللته لا ترك الله له واضحة [(١)]

كلهم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحة

وقال المتنبي :

ولما صارَ وُدُّ الناس خِبا جَزَيْتُ على ابتسام بابتسام

وصِرت أشكُّ فيمن أصطفيه لِعلمى أنه بعض الأنام

وقال ابن الرومى :

واعلمْ بأن الناسَ من طينَة يَصدُق فى الثَّلْب لها الثالب [(٢)]

ولولا علاجُ الناسِ أخلاقَهم إذنْ لَفاحَ الحمأُ اللازِبُ [(٣)]

وقال المتنبي:

أذُمُّ إلى هـذا الزمانِ أُهَيْلَهُ فأعلمُهم فَدْمٌ وأحْزَمُهم وغْدُ

وقال :

إنمـا أنفُسُ الأنيسِ سِباعٌ يَتفارَسْنَ جَهْرَةً واغتيالا

مَن أطاقَ التماسَ شيءٍ غِلاباً واغتِصاباً لم يَلتَمِسهُ سُؤالا

كلُّ غادٍ لحـاجةٍ يَتمنى أنْ يَكونَ الغَضَنْفَرَ الرِّئبالا

(١) الواضحة : الأسنان التى تبدو عند الضحك . (٢) الثلب : العيب

(٣) الحمأ : الطين الأسود المنتن ، واللازب . الذى يلزق ويصلب

وقال :

إنّا لفى زمن تركُ القبيح به ... مِنْ أكثرِ النّاسِ إحسانٌ وإجمال

لولا المشقة سادَ الناسَ كلُّهمُ ... الجودُ يُفقِرُ والإقدام قتّال

٭ ٭ ٭

وقالوا فى أن من شِيَم الناس أن تحمَدَ مَنْ رَشَدَ وتلومَ مَنْ يَغْوى وفى ذلك يقول القُطامِيُّ :

والناس مَن يَلقَ خيْرا قائلونَ لَهُ ... ما يَشتَهِى ولِأُمِّ المخطئِ الهَبَلُ(١)

وقد أخذه من قول المُرَقّش الأصغر :

وَمَن يلقَ خيراً يَحمَدِ الناسُ أمرَه ... ومَن يَغْوِ لا يَعدَمْ على الغَىِّ لائما

وهذا لعَمْرِى من عناوين اللؤم المركب فى الطباع .

وقالوا فى انتكاس الأحوال وارْتِفاعِ السَّفِلَة الأنذال والقائل : خِدَاشُ بنُ زهير ـ شاعر جاهلى من شعراء قيس ـ وهو ابن عمّ لبيد :

فإنّك لا تُبالى بَعدَ حَوْلٍ ... أظبيٌ كان أُمَّك أم حِمَـارُ

فقد لحِقَ الأسافلُ بالأعالى ... وماج اللؤْمُ واختلط النِّجارُ

وعادَ الفِنْدُ مِثلَ أبى قُبَيْسٍ ... وسِيق معَ المعَلْهَجَةِ العِشارُ

« النِّجارُ : الأصل . والفِنْدُ : قطعةٌ من الجَبَلِ طولاً ، وأبو قُبَيس جَبَل بمكة ، والمراد به : الرَّجلُ الشريف ، كما يُراد بالفِند ، الرجل الوضيع ، والمعلهجة : المرأة اللئيمة الأصل الفاسدة النسب . والعشار : جمع العُشَراء : الناقة مضى حملها عشرة أشهر ؛ يقول هـذا الشاعر : أمّا وقد لحق الأسافل بالأعالى واختلطت الأصول وماج أمر الناس واضطرب وعظم شأن اللؤم ونفقت

---

(١) الهبل : الثكل ـ الفقد ـ

سُرقهُ وعاد الخسيس مثلَ الشريف حتى سِيقت الإبل الحوامل فى مهر اللئيمة وتغير بذلك الزمان واطرحت مراعاة الأنساب فلا تبالى بعد قيامك بنفسك واستغنائك عن أبويك ، مَن انتسبت إليه ، شريفاً كان أم وضيعاً ... وضرب المثل بالظبي والحمار وجعلهما أُمَّيْنِ وهما ذكران لأنه مثل لا حقيقة ، وقصد قصد الجنسين ولم يحقق أبوّة . وذكر الحول ، لِذِكْر الظبي والحمار ، لأنهما يستغنيان بأنفسهما بعد الحول ؛ فهذا شاعر ساخط كما ترى »

وقال ابن الروميّ :

دَهْرٌ عَلَا قَدرُ الوضِيع به   وَهْوَ الشريفُ يَحُطُّهُ شَرَفُهْ
كالبَحر يَرْسُبُ فيه لُؤْلُؤُه   سُفْلًا وتَطْفُو فوقهُ جِيَفُهْ

وقال :

رأيتُ الدَّهْرَ يَرْفَعُ كلَّ وَغْدٍ   ويَخْفِضُ كلَّ ذى شِيَمٍ شَرِيفَهْ
كمِثْلِ البحرِ يَغرَقُ فيه حَيٌّ   ولا ينفَكُّ تَطْفُو فيه جِيفَهْ
أَوِ الميزان يَخْفِضُ كلَّ واف   ويَرْفعُ كُلَّ ذِى زِنَةٍ خَفِيفَهْ

وقال الوزير المغربى :

إذا ما الأمورُ اضطَرَبْنَ اعتَلَى   سَفِيهٌ يُضَامُ العُلَى باعتلائه
كذَا الماء إنْ حَرَّكتْهُ يَدٌ   طَفا عَكِرٌ راسبٌ فى إنائِه

وقال المعرى فى الناس :

لقد فَتَّشتُ عن أصحابِ دِينٍ   لَهم نُسْكٌ وليس لَهُم رِيَاءُ
فألفَيْتُ البهائِمَ لا عُقولٌ   تُقيمُ لها الدليلَ ولا ضِياءُ
وإخوانُ الفَطانةِ فى اختيالٍ   كأنهم لِقومٍ أنبياءُ
فأمّا هؤلاءِ فأهلُ مَكْرٍ   وأما الأولون فأغبياءُ

فإن كان التُّقى بَلَهًا وعِيًّا فأعْيــارُ المذلّةِ أتقياء

« الأعيار : جمع عَير ، وهو الحمار يضرب به المثل فى الذل قال المتلمس :

ولا يقيم على ضَيْمٍ أُلِمَّ به إلاّ الأذلاّنِ عَيْرُ الحىّ والوَتِدُ

فذاك يُخسَفُ مَرْبوطا بِقُوَدِه وَذا يُشَجُّ ولا يَرْثِى له أحد

وقال :

بَنِى الدهر مَهْلًا إن ذَمَمْتُ فِعالـكم فإنى بنفسى لا محالة أبدأُ

مَتى يَتَقَضَّى الوقتُ واللهُ قادِرٌ فنَسْـكُنُ فى هـذا التراب ونهدَأُ

تجاوَرَ هذا الجسمُ والرُّوحُ بُرهَةً فما بَرِحَتْ تأذَى بذاك وتَصْدَأُ

وقال المعرى :

جَرَّبْتُ دَهْرى وأهْلِيهِ فما تَرَكَتْ لِيَ التجارب فى وُدِّ امْرِئٍ غَرَضا

وقال :

أولو الفضل فى أوطانهم غُرباءُ تَشِذُّ وتَنْأَى عنهم القُرَباءُ

تواصَلَ حَبلُ النسل ما بين آدمٍ وبينى ولم يُوصَلْ بِلامِيَ باءُ

تَثاءَبَ عَمْرٌو إذ تثاءَبَ خالِدٌ بِعَدْوَى فمــا أعدتنى الثُّوَباءُ

وزَهّدَنِى فى الخلق مَعرفتى بهم وعِلمِى بأن العَالَمِـين هَباءُ

وقال المعرّى :

أُرائِيك فلْيغفِرِ لِيَ اللهُ زَلّتى بذاك ودِينُ العالمين رِئاءُ

وقد يُخلِفُ الإنسانُ ظَنَّ عَشِيرِه وإنْ راقَ منه مَنظَرٌ وَرُوَاءُ

إذا قومُنا لم يَعبُدُوا اللهَ وَحْدَه بِنُصحٍ فإنّا مِنهُمُ بُرَآءُ

وقال :

إذا بَكرٌ جَنَى فتَوَقَّ عَمْرًا فإنّ كِلَيْهما لأب وأُمّ

وفى كلِّ الطباع طباعُ نَكْزٍ وليس جميعهُنّ ذواتِ سُمِّ

« النكز : لسع الحية »

رأيتُ الحقَّ لؤلؤةً توارتْ بِلُجٍّ من ضلال النّاس جَمِّ

وقال :

رِياءُ بَنِي حوّاءَ فى الطبع ثابتٌ فمنهم مُجِدٌّ فى النفاقِ وهازلُ

سَخَوْا لِيقُولَ الناسُ جادوا وأقْدَمُوا لِيُذْكَرَ فى الهيجاءِ قِرنٌ مُنازلُ

وقال :

الناسُ مِثْلُ الماء تَضرِبُهُ الصَّبا فيكونُ منه تَفرُّقٌ وتألُّفُ

والخيْرُ يَفْعَلُهُ الكريم بِطَبْعِه وإذا اللئيم سَخا فذاك تَكَلُّفُ

تَشكَوْتَ مِنَ آهل هذا العصر غَدْرَهُمُ

لا تُنْكِرَنْ فَعَلَى هذا مَضَى السَّلَفُ

وقلَّما تَسكُنُ الأضغانُ فى خَلَدٍ إلّا وفى وجْه مَن يَسْعَى بها كَلَفُ

أمسَى النفاقُ دُرُوعا يُسْتَجَنُّ بها منَ الأذَى ويُقوِّى سَرْدَها الحلِفُ

« الحلف : اليمين »

تَحَسَّنَ الوَعْدَ بالإنجاز تتبعه إذا مَوَاعِدُ قوم شانَها الخُلْفُ

وقال :

إذا فَزِعْنا فإنَّ الأمْنَ غايَتُنا وإن أمِنَّا فما نَخْلُو من الفَزَعِ

وشيمة الإنْسِ ممزوجٌ بها مَلَلٌ فما تدومُ على صَبرٍ ولا جَزَعِ

وقال :

إذا ما أسَنَّ الشيخُ أقصاه أهْلُهُ وجارَعليه النَّجلُ والعَبْدُ والعِرْسُ

« العرس : الزوجة »

رُوَيْدَكَ فى عَهدِ الصِّبا مُلِئَ الطِّرْسُ ... يُسَبِّحُ كيما يَغفِرَ الله ذنبَه

وقال :

اهْرُبْ من النَّاس فإن جئتَهم ... فمِثلَ سَأبٍ جَرَّه السَّاحِبُ (١)

يَنْتَفِع الناسُ بما عِنْدَه ... وهْوَ لَقًى بينهم شاحِبُ (٢)

وقال :

إنْ مازتِ الناسَ أخلاقٌ يُعاشُ بها ... فإنهم عند سُوءِ الطبع أسْوَاءُ

أوْ كان كلُّ بَنِي حَوَّاءَ يُشْبِهُنِي ... فبِئْسَ ما وَلَدَتْ فى الخَلْقِ حوَّاءُ

بُعْدِي من الناس بُرءٌ من سَقامِهِم ... وقُرْبهم لِلْحِجَى والدِّين أدواءُ

كالبَيْتِ أُفْرِدَ لا إيطاءَ يُدْرِكُهُ ... ولا سِنادَ ولا فى اللفظ إقْواءُ (٣)

وقال :

قد حُجِبَ النُّورُ والضِّياءُ ... وإنما دِينُنا رِياءُ

يا عالَمَ السُّوءِ ما علمنا ... أنَّ مُصَلِّيكَ أتقياءُ

كم وَعَظَ الواعظونَ مِنَّا ... وقامَ فى الأرض أنبياءُ

فانصَرَفوا والبلاءُ باقٍ ... ولم يَزُلْ داؤكِ العَيَاءُ

« زال يزول : راح وذهب ؛ والعياء : الذى لا يبرأ منه »

حُكمٌ جرَى للمليك فينا ... ونحن فى الأصل أغبياءُ

---

(١) السأب : زق الخمر

(٢) اللقى : الملقى على الأرض ، والشاحب : المهزول المتغير اللون لعارض كمرض ونحوه

(٣) الإيطاء : تكرر القافية بلفظها ومعناها ، والاقواء : اختلاف إعراب القوافى ، والسناد أنواع وهو كل عيب يحدث قبل الروى كارداف قافية وتجريد أخرى وهذه من عيوب القافية

وقال :

مُلَّ المقامُ فكم أعاشِرُ أُمَّةً أمرت بِغَيرِ صلاحِها أمراؤُها
ظلموا الرَّعيَّةَ واستجازوا كيدَها فَعَدَوا مَصالِحَها وهم أُجَرَاؤُها

وقال بشار بن برد :

خيرُ إخوانِكَ المشارِكُ فى المُـرِّ وأينَ المشارِكُ فى المرِّ أينا
الذى إن شهِدْتَ سَرَّك فى الحـيِّ وإنْ غِبْتَ كان أُذْنًا وعَينا
مِثلُ سِرِّ الياقوتِ إن مَسَّهُ النا رُ جَلَاهُ البلاءُ فازداد زَينا
أنتَ فى مَعْشَرٍ إذا غِبْتَ عنهم بَدَّلوا كُلَّ ما يَزِينُكَ شينا
وإذا ما رَأوْكَ قالوا جميعا أنتَ مِنْ أكرَمِ البَرَايا علينا
ما أرَى للأنامِ وُدًّا صحيحا عادَ كُلُّ الوِدَادِ زُورًا ومَيْنا

وقال ابن الرومى :

ذُقْتُ الطُّعومَ فما التذذتُ براحةٍ مِنْ صُحْبَةِ الأخيارِ والأشرارِ
أمَّا الصديقُ فلا أُحِبُّ لِقاءه حَذَرَ القِلَى وكراهَةَ الإعوارِ
وأرى العَدُوَّ قَذًى فأكرَهُ قُرْبَه فهجرت هذا الخلقَ عن إعذار
أرِنى صديقاً لا ينوء بِسَقْطَةٍ مِنْ عَيْبِه فى قدرِ صَدْرِ نهار
أرنى الذى عاشَرْتَه فوجدتَه مُتغاضِياً لكَ عن أقلِّ عِثار
أُحِبُّ قوماً لم يُحِبُّوا رَبَّهم إلا لِفِرْدَوْسٍ لديه ونار

وقال :

عدوّك مِنْ صَديقِكَ مُسْتَفادٌ فلا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصِّحابِ
فإنَّ الداء أكثرَ ما تَراه يَحُولُ من الطعام أو الشراب
إذا انقلبَ الصّديقُ غداً عَدُوّا مُبيناً والأمورُ إلى انقلاب

ولو كان الكثيرُ يَطيب كانت ... مُصاحبَةُ الكثير من الصواب
وما اللُّجَجُ المِلاحُ بِمُرْوِيات ... وتلقى الرِّيَّ فى النُّطَفِ العِذابِ

وبعد فإن هذا الباب مُتَّسِع جدا، وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم فيه فى باب الإخوانيات وباب الطبائع، فلْنَجتزئ بهذا المقدار.

٭ ٭ ٭

الغــــوغاء

ولهم فى السُّقاط والسَّفِلةِ وهذه الزِّجْرِة من الناس كلام كثير، فمن ذلك قولُ واصِل ابن عَطاء: ألَا قاتَلَ اللهُ هذه السَّفِلة، تُوَادُّ مَن حادَّ الله ونبيَّه، وتُحَادُّ مَن وَادَّ الله ونبيه، وتَذُمّ مَن مَدَحه الله، وتمْدَح مَن ذمَّه الله، عَلَى أنَّ بهم عُلِمَ الفَضلُ لأهل الطبقة العاليةِ، وبهمْ أُعطِيتِ الأوساط حَظّا من النُّبل...

ومنه قول سيدنا على رضى الله عنه. وقد أُتِيَ بجَان ومعه غوغاء — فقال: لا مَرحباً بوجوه لا تُرى إلا عند كُلِّ سَوْأةٍ... وقولُه رضى الله عنه: هم الذين إذا اجتمعوا ضَرُّوا وإذا تفرقوا نفَعُوا؛ فقيل له: قد عَلِمْنا مَضَرَّة اجتماعهم فما منفعةُ افتراقهم؟ فقال: يرجِعُ أصحاب المِهَن إلى مِهنِهم، فينتفِعُ الناس بهم، كرجوع البنّاء إلى بِنائه، والنساجِ إلى مَنْسِجه، والخبّاز إلى مَخْبزه.

وكان الحسن البَصرى إذا ذُكر الغوغاء والسُّوَق يقول: قتَلَةُ الأنبياء، وكانوا يقولون: العامّة كالبَحْر إذا هاج أهْلك راكبه، وكان المأمون الخليفة العباسى يقول: كُلُّ شر وظُلم فى العالم فهو صادرٌ عن العامّة والغوغاء؛ لأنهم قتلة الأنبياء، والسُّعاة بين العلماء، والنمّامون بين الأوِدّاء، ومنهم اللصوص

وقُطّاع الطريق والطرَّارُونَ والمحتالون والساعون إلى السلطان ، فإذا كان يوم القيامة حُشِرُوا على عادتهم فى السعاية ، فقالوا : رَبنا أطَعْنَا سادَتنا وكبراءنا فأضلونا السَّبيلا ، ربنا وآتهم ضِعفَين منَ العذابِ والعَنْهُم لعْناً كبيرا ... وقال الجاحظ : الغاغة والباغة[1] والحاكة كأنهم إعذارُ[2] عامٍ واحد ، ألا ترى أنك لا تجد أبداً فى كل بلدة ، وفى كل عصر ، هؤلاء ، إلا بمقدار واحد وجهة واحدة ، من السخف والنقص والخمول والغباوة .

ومن كلمة لسيدنا على فى فَضْل العِلم على المال ووَصف الطَّغامِ — قال كُمَيْلُ بن زياد النخعى : أخذ بيدى أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فأخرجنى إلى الجبّان[3] ، فلما أصْحَرَ تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ[4] ، ثم قال : يا كميلُ بنَ زياد ، إن هذه القلوبَ أوْعيَةٌ فخيرها أوْعاها ، فاحْفَظْ عنى ما أقولُ لك ، الناسُ ثلاثةٌ ، فَعَالِمٌ رَبَّانِىٌّ ، ومُتَعلِّمٌ على سَبيل نجاةٍ ، وهَمَجٌ رَعاعٌ ، أتباعُ كُلِّ ناعِقٍ يَميلون مع كل ريح ، لمْ يَسْتضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركنٍ وَثيق ، يا كميلُ ، العلم خَيْرٌ من المال ، العلم يحرُسُك وأنت تحرُسُ المال ، والمال تَنقُصهُ النَّفقة والعلمُ يَزْكو على الإنفاق ، وصنيعُ المال يَزول بِزَواله ؛ يا كُمَيلُ بنَ زياد ، هَلَكَ خُزَّانُ الأمْوال وَهم أحياء ، والعلماء باقون ما بَقِىَ الدّهر . إلى آخر هذه الخطبة العُلَوِيَّة التى تراها فى نهج البلاغة ...

---

(١) الذى فى اللسان : وبوغاء الناس : سفلتهم وطاشتهم وحمقاهم .

(٢) الإعذار : الختان وطعام الختان وفى الحديث : كنا إعذار عام واحد ، أى ختنا فى عام واحد ، وكانوا يختنون لسن معلومة فيما بين عشر سنين وخمس عشرة

(٣) الجبان والجبانة يريد الصحراء .

(٤) تنفس الصعداء : أى تنفس تنفساً ممدودا طويلا

وقال معاوية لِصَعْصَعَةَ بن صوحان : صِف لى الناس ، فقال : خُلِق الناس أطوارا ، طائفة للسيادة والولاية ، وطائفة للفقه والسُّنة ، وطائفة للبأس والنَّجْدة ، ورِجْرِةٌ بين ذلك ، يُغْلُونَ السعر ، ويُكَدِّرون الماء ، إذا اجتمعوا ضرّوا ، وإذا تفرقوا لم يُعرَفوا .. . ومن طريف التفاسير وغريبها ما قيل فى قوله تعالى : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم » أى من السلطان « أو من تحت أرجلكم » أى من السِّفل .

وقال دِعْبِل :

ما أكثرَ الناسَ لا بل ما أقلَّهُمُ ... الله يعـلم أنى لم أقُلْ فَنَدَا

إنى لأفْتَحُ عَيْنِى حين أفتحُها ... على كثيرٍ ولكن لا أرى أحدا

وهم يشبهون سوادَ الناس بالدَّبا ، والدَّبا مقصور : الجراد قبل أن يطير ، وفى حديث عائشة قالت : كيف الناس بعد ذلك ؟ قال : دَبًى يأكل شِدادُهُ ضِعافَه حتى تقومَ عليهم الساعة ...

قلة الوفاء فى الناس وشيوع الغدر والمكر فى عامّتهم

وقالوا فى قلة الوفاء فى الناس ووصف عامتهم بالغدر ، والمكر السيئ ، ومن أروع ماقيل فى ذلك قوله عز وجل : « وما وَجَدْنا لأكْثرِهِمْ مِن عَهْدٍ وإنْ وَجَدْنا أكثرهم لفاسقين » .. وقال سبحانه : « الذين يَنقُضُون عَهْدَ اللهِ من بعدِ ميثاقه ويَقطعون ما أمرَ اللهُ به أنْ يُوصَلَ ويُفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنةُ ولهم سُوءُ الدَّارِ » ...

وقال : « أفأمِنَ الذين مَكَرُوا السيئاتِ أن يَخسِفَ اللهُ بهمُ الأرض أو يأتِيَهمُ العذابُ من حيثُ لا يَشعُرُون » وقال : ولا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ

إلا بأهله ... وقال : ومَن نكَثَ فإنما يَنكُثُ على نفسِه . وقال : إنما بَغيُكم على أنفسكم ... وقال المتنبي :

غَيرِى بأكثرِ هذا الناسِ يَنخدعُ   إنْ قاتلوا جَبُنوا أو حدَّثوا شَجُعوا
أهلُ الحفيظة إلاَّ أن تُجرِّبَهم   وفى التجارِب بعد الغَىِّ ما يَزَع

وقال أبو فراس الحمدانى :

بمَنْ يَثِقُ الإنسان فيما ينوبُه   ومن أين للحُرِّ الكريم صحاب
وقد صارَ هذا الناسُ إلا أقلَّهم   ذئاباً على أجسادهن ثيابُ

وقال أبو تمام :

إنْ شئت أن يَسْوَدَّ ظنُّكَ كلُّه   فأجِلْهُ فى هذا السواد الأعظم
ليس الصديق بمن يعيرك ظاهراً   متبسما عن باطن متجهِّم

« يقول : إن شئت أن لاتظن بأحد خيراً فاختبر من شئت من هذاالناس »

وكان يحيى بن خالد البرمكى إذا اجتهد فى يمينه يقول : لا والذى جعل الوفاء أعزَّ مايرى . وكان يقول : هو أعزُّ من الوفاء . وقالوا : من عامل الناس بالمكر كافأوه بالغدر

وكانت العرب إذا غَدَرَ منهم غادر ، يوقدون له بالموسم ناراً وينادون عليه، يقولون : ألاَ إن فلاناً غدر ... وقالوا : رُبَّ حيلة أهلكت المحتال ، وقال امرؤ القيس :

أَحارِ بْنَ عَمْرٍو كأنِّى خَمِرْ   ويَعْدُو على المرْءِ ما يَأتمِرْ

« رجل خَمِر : خالطه الداء ، وقوله ويعدو الخ : أراد أن المرء يأتمر لغيره بسوء فيرجع وَبالُ ذلك عليه » وقال شاعر لاأذكره :

وكم من حافِرٍ لأخيه ليلا   تَرَدى فى حفيرته نهارا

ومن قولهم فى وصف الغادر : فلان يَحْسو الأماناتِ حَسْواً ، وفلان

أغدر من الذئب ، قال : ٭ هو الذِّئْبُ ولَلذِّئْبُ أوْفَى أمانة ٭

وقال : ٭ والذِّئْبُ يأدُو للْغزالِ يأكُلُهْ ٭

« يأدو للغزال : يَخْتِله ليأكله ، قال الشاعر :

- حَنَتْنِى حانيات الدهر حتَّى كأنى خاتِلٌ يأدو لِصَيد »

ويقال : رَكِبَ فلان السَّخْبَرَ : إذا غدر ، قال حسان بن ثابت :

يا حارِ مَن يَغْـدِرْ بذمّة جاره منكم فإن محمـداً لم يَغـدِرِ

إنْ تَغْدِرُوا فالغَدْرُ مِنكُمْ شِيمَةٌ والغدر يَنْبُتُ فى أصول السَّخْبَرِ

قال ابن برّى : إنمـا شُبّه الغادر بالسخبر ، لأن السخبر شجر إذا انتهى استرخى رأسه ولم يبق على انتصابه ، يقول حسان : أنتم لاتثبتون على وفاء كهذا السخبر الذى لا يثبت على حال ، بيْنا يُرَى مُعتدلا منتصباً ، عاد مسترخياً غير منتصب »

وبعد فإنهم على هـذا نصحوا بمداراة الناس ما دام الاستغناء عنهم غير مستطاع . قال رجل لابن عباس : ادعُ الله لى أن يُغْنِيَنِى عن الناس فقال : إنّ حوائج الناسِ تتصل بعضها ببعض كاتصال الأعضاء ، فمتى يَستغْنِي المرء عن بعض جوارحه ؟ ولـكن قل : أغْنِنِى عن شِرار الناس . وروى : أن بعضهم كان يطوف ويقول : من يشترى منى بضائع بعشرةِ آلافِ دِرهم ؟ فدعاه بعض الملوك وبذل له المـال فقال له : اعلم أن اللهَ لم يخلق خلقاً شرا من الناس ، وإن لم يـكن بُدٌّ من الناسِ فانظر كيف تحتاج أن تعامِل ما لا بُدّ منـه ولا غِنَى بك عنه ... ثم قال : هـل يسـاوى هـذا الكلام عشرة آلاف درهم ؟ قال : دونك المـال ، ولم يأخـذه ... وقالوا : ثلثـا التعايش ، مـداراة الناس . وقال النَّظّام ـ إبراهيم بن سيـار أحـد شيوخ المعـتزلة ـ : ما يَسُرُّنى ترك المداراة ولى حُمْرُ النَّعم ،

قيل له : لِمَ ؟ قال : لأن الأمر إذا غَشِيَك فتمَخّضت له أرْداك ، وإذا طأطأت له تخطّاك . . . وقال معاوية : لو كان بيني وبين الناس شَعَرةٌ ما انقطعت ، لأنهم إذا جذبوها أرسلتُها ، وإذا أرسلوها جذبتُها . . . وقال أكثم بن صَيْفِيّ : الانقباضُ من الناس مَكْسبةٌ للعداوة ، وإفراط الأنس مَكْسَبة لقرناء السوء ، ومن أمثال العرب : لاتكن حُلْوًا فتُسْتَرَط ولا مُرًّا فتُلْفَظ « استرطه ابتلعه » وجاء فى كتاب للهند : بعض المقاربة حزم ، وكل المقاربة عَجْز ، كالخشبة المنصوبة فى الشمس ، تُمالُ فيزيد ظلها ، ويُفْرَطُ فى الإمالة فيَنْقُص الظّلُّ ...

وقال الطغرائى فى لاميته المشهورة المعروفة بلامية العجم :

وحُسْنُ ظَنّكَ بالأيام مَعْجَزةٌ فظُنَّ شرا وكن منها على وجل
غاض الوفاءُ وفاض الغدر وانفرجَتْ مَسافةُ الخُلْفِ بين القول والعمل
وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعوّل فى الدنيا على رجل

الأنذال واللئام

اللؤم : ضِدُّ العِتْقِ والكَرَم ، واللئيم : الدّنِىء الأصلِ الشّحِيحُ النّفْس . والنّذالَة : الخِسّةُ والسّفالة ورَكاكةُ العَقل والتأَخُرُ عن المكارِم ، والنذلُ : الخسيسُ الحقيرُ الفَسْل الذى لامُرُوءَة له . ومن عبقرياتهم فى هذا الصنف من الناس قولُ أبى الأسد نُباتة بنِ عَبد الله التميمى — شاعر كان معاصراً لأبى تمّام : —

إنْ يَبْخَلوا أوْ يَجْبُنُوا أوْ يَغْدِروا لا يَحْفِلوا
يَغْدُوا عليكَ مُرَجّلِيــنَ كأنهمْ لمْ يفْعَلوا

كأَبِى بَرَاقِشَ كلَّ لَوْ نٍ لَوْنُهُ يتخيَّلُ

« وَصَفَ قوماً مشهورينَ بالمقابح لا يَسْتَحُونَ ولا يَحْتَفِلون بمَنْ رآهم على ذلك . وقوله : يغدوا هو بَدَلٌ مِن قوله : لا يحفِلوا ، لأنَّ غُدُوَّهم مُرَجِّلِين دليـل على أنهم لم يحفِلوا . والتَّرْجيل : مَشْطُ الشَّعَر وإرْساله . وأبو بَرَاقِشَ طائرٌ صغير أعْلَى ريشه أغبر وأوْسَطُه أحْمَر وأسْفَلُه أسْوَدُ فإذا انْتَفَش تَغَيَّرَ لَونُه ألوَاناً شتَّى . وهذا أبو بَرَاقِشَ غيرُ بَرَاقِشَ التى وَرَدَتْ فى قولهم: على أهلها دَلَّتْ براقِشُ ، فهذه اسم كلبةٍ لِقَوْم مِنَ العَرَب أُغِيرَ عليهم فى بعض الأيام ، فهَرَبوا وتبِعَتهم بَراقِشُ فرجع الذين أغاروا خائبين؛ فسمعتْ براقش وَقْعَ حَوَافِرِ الخيل ، فنَبَحَت فاسْتَدَلُّوا على مَوضِعِ نِباحِها ، فعَطَفُوا عليهم واستباحُوهم ، فذهبتْ مَثَلاً وقالوا : على أهلها تجنى براقش ، قال حَمْزَةُ بنُ بِيض :

لَمْ تَكُنْ عن جناية لَحِقَتْنى لا يَسارِى ولا يمينى جَنَتْنى

بَل جَناها أخٌ عَلىَّ كريمٌ وعَلى أهلها بَراقِشُ تَجْنى

وقال آخر — وهى من أبيات الحماسة — حَمَاسَةِ أبى تمـام :—

أناخ اللؤْمُ وَسْطَ بَنِى رَبَاحٍ مَطِيَّتَهُ فأَقْسَمَ لا يَرِيمُ

كذلِكَ كلُّ ذى سَفَرٍ إذا مَا تناهَى عنـد غايَتِهِ يُقِيمُ

« يقال : أنَخْتُ البَعيرَ فبَرَك ، ولا يقال فَناخَ ، وهذا من باب ما استُغْنِىَ عنه بغيْرِه ، ولا يَريم : لا يَبْرَح ، وقوله : كذلك فى مَوضع الحال لأن كل ذى سَفر مبتدأ ومقيم خبره ، كأنه قال : وكلُّ مُسافِر إذا ما انتهى إلى غايته يُلقى عَصاهُ كذلك ، أى مثلَ إقامةِ اللُّؤمِ فيهم ، وقد نَقلَ البُحْتُرِىُّ هـذا المعنى إلى المدْحَ فقال :

إذا ما رأَيْتَ المجدَ ألقَى رَحْلَهُ فى آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلِ »

وقال جرير :

وَكُنْتَ إذا نَزَلْتَ بدارِ قومٍ   رَحَلْتَ بِخِزْيَةٍ وتَرَكْتَ عارا

وقال :

تَميمٌ بِطُرْقِ اللُّؤْم أَهْدَى مِنَ القَطا   وَلَوْ سَلَكَتْ سُبُلَ المكارِم ضَلَّتِ

وقالوا فيمن لا يَصْلُح لِخَيْرٍ ولا شَرٍّ : فُلانٌ أَمْلَسُ ليسَ فيه مُسْتَقَرٌّ لِخَيْرٍ ولا شَرٍّ . وقالوا : فلانٌ ما هو بِرَطْب فيُعْصَر ولا بيابس فيُكْسَر .

وقالوا : شَرُّ الناس الذى لا يتَوَقَّى أن يَرَاهُ الناس مُسِيئاً ، وقد تقدّم .

وقال الشاعر :

قومٌ إذا خرجُوا مِن سَوْأَةٍ وَلَجُوا   فى سَوْأَة لَمْ يَخبأُوها بأَسْتارِ

الظن

ولِتَفَشّى الغَدْر والمكرِ فى هذا الناسِ مَدحُوا الاحْتِرَاسَ والحَذَرَ وسُوءَ الظَّنّ بالناسِ . قيلَ لبعضِهم : ما الحَزْمُ ؟ قال : سُوءُ الظَّنّ بالناس . وقال الشاعرُ البَبْغاءُ :

وأَكْثَرُ مَن تَلْقَى يَسُرُّكَ قَوْلُه   ولكنْ قليلٌ مَن يَسُرُّكَ فِعْلُهُ

وَقدْ كانَ حُسنُ الظنّ بَعضَ مَذاهِبى

فأَدّبَنِي هـذا الزَّمانُ وأَهْلُهُ

وقالوا عليكَ بِسوءِ الظنّ ، فإنْ أصابَ فالحَزْمُ ، وإنْ أَخطأَ فالسلامة . وقال بَعضُهم : إنَّ قولَهُ تعالى : إن بَعضَ الظَّنّ إثمٌ : دَلالَةٌ عَلى أنَّ جُلَّهُ صَوَاب . وقال عبد الملك بنُ مَرْوَانَ : فَرْقُ ما بينَ عُمرَ وعُثمانَ أنَّ عُمَرَ أساءَ ظَنَّهُ فأَحكَمَ أمرَهُ ، وأنَّ عُثمانَ أَحْسَنَ ظَنَّهُ فأَهْمَلَ أَمْرَهُ . وقيل

لبعضهم : أسأتَ الظنّ! فقال : إنّ الدُّنيا لما امتلأت مكارِهَ وَجبَ على العاقِل أنْ يملأها حَذَرًا . . .

ولّما رَأوْا أن الظنّ هو الغالبَ على الناس وأنه لذلك يكاد يكونُ غَرِيزةً منَ الغرائز الإنسانيّة ، وأن تحقيقَهُ ولا سِيَّما بين الأصدقاء يُعَدُّ من الإفراطِ الممقُوت ، وأنه لايليق بمكارم الأخلاق ، ذمّوهُ ونَعَوْه على أهْله ، قال تعالى : اجتنبُوا كثيراً منَ الظّن إن بَعْضَ الظّنْ إثم . وقال سَيِّدُنا رَسول الله : ثلاثَةٌ لا يَسْلَمُ مِنْهُنَّ أحد : الطِّيَرَةُ ، والظَّنُّ ، والحَسَدُ ، قيلَ : فما المخْرَجُ منهُنّ يارسولَ الله ؟ قال : إذا تَطَيَّرْتَ فلا ترْجِع ، وإذا ظَنَنْتَ فلا تُحَقِّقْ ، وإذا حَسَدْتَ فلا تَبْغِ ... وقال صلوات الله عليه : إيّاكُم والظّنَّ فإن الظّن أكْذَبُ الحديث « وقال ابن الأثير فى النهاية : أراد : إياكم وَسُوءَ الظّنِّ وتحقيقَه ، دُونَ مَبادئ الظُنون التى لا تُملَك وخواطِرِ القلوب التى لا تُدْفَع ، وقيل : أراد : الشَّكّ يَعْرِضُ لك فى الشيء فَتُحقِّقُهُ وتحْكُمَ به . وأكذب الحديث : أى حديث النفس ؛ لأنه يكون بإلقاء الشيطان فى نفس الإنسان » وقال المتنبي :

إذا ساءَ فِعْلُ المَرءِ ساءَتْ ظُنُونُه   وَصَدَّقَ ما يَعْتادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ
وَعَادَى مُحِبِّيه بِقَوْلِ عِـداتِهِ   فأَصْبَحَ فى دَاجٍ من الشَّكِّ مُظْلِمِ

وقال شاعر :

مَن ساءَ ظنًّا بمـا يَهْواهُ فارَقَهُ   وَحَرَّضَتْهُ على إبعـادِه التُّهَمُ

ومِنْ هُنا مَدَحوا التَّثَبُّتَ والتغافل . وترَى سائر عبقرياتهم فى الظن فى باب الطبائع وباب الإخوانيات .

الشماتة

والشّماتة : الفرح بِبَليَّة تَنزِل بمَنْ تُعادِيه ، تقول : شَمِتَ به يَشْمَتُ شَماتةً وَشَماتاً ، وأَشْمَتَهُ الله به ، وفى القرآن الكريم : فلا تُشْمِتْ بِىَ الأعداء . . . وقد تقدم طَرَف من عبقرياتهم فى الشماتة بالموت ، ومن عبقرياتهم فى الشماتة مطلقا قول الفرزدق :

إذا ما الدّهْرُ جَرَّ عَلَى أُناسٍ حوادثَهُ أَناخَ بآخَرِينـا
فَقُل لِلشامِتِينَ بِنـا أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشامِتونَ كما لَقِينـا

وقيل لِأيوبَ النَّبِيّ عليه السلام : أىُّ شىء كان أشَدَّ عليك فى بلائك ؟ قال شَماتَةُ الأعداء .

الحقــد

الحِقْدُ — كما جاء فى اللسان — : إمْساكُ العَداوَة فى القلْبِ والتربُّص لفُرَصَتِها ، قال : والحقدُ : الضِّغْن . قال : وحَقَدَ عَلَىَّ يَحْقِدُ حِقْدًا ، وحَقِدَ — بالكسر — حَقَدًا وحِقْدًا فهو حاقِد ؛ فالحَقْدُ : الفعل ، والحِقْدُ . الاسْمُ ، وتحَقَّدَ : كحَقَدَ ؛ قال جرير :

يا عَذْنَ إنَّ وِصالَهُنَّ خِلابَةٌ ولَقَدْ جَمَعْنَ مَعَ البِعـادِ تَحَقُّدَا

« وبعــد » فالحِقْدُ عَلَى أنه خَلّةٌ لا تَتفِق والنُّبْلَ والتَّوَدّد ومكارِمَ الأخلاقِ فإنه دليلُ الحَيْوِيةِ ، ومَن ثَمَّ يكاد يكونُ خَلّةً مَرْكوزةً فى الطباع ، وإذا كانوا قد مَدَحوه فإنما يتراءَوْن — كما قلنا — إلى أنه عُنْوانُ الحَيْوِيةِ وأن مَن لا يحْقِدُ لا يَشْكر ، وإذا هم ذَمُّوه ، فإنهم إنما يَدْعون إلى تناسِيه وأنَّ مِن سُمُوّ الأخلاق أن لا يحْمِل المرءُ الحقدَ القديم ، كما قال المُقَنَّعُ الكِنْدِىُّ

واسمُه محمد بنُ عُمَيْرَة ، وهو شاعر كِنْدِيٌّ إسلاميٌّ[١] ، وكان أحسَن الناس وَجْهاً فإذا سَفَرَ لُقِـعَ ، أى أصابته العين ، فَيَمْرَض ويَلحقُه عَنَتٌ ، فكان لا يمشى إلا مُقَنَّعاً ، قال من أبيات جيِّدة تراها فى حماسةِ أبى تمام وغيرها :

ولا أحْمِـــلُ الحِقْدَ القـديمَ عليهم
وليس رَئيسُ القومِ مَن يَحْمِلُ الحِقْدا

ذم الحقد ومدحه

أما عبقرياتهم فى ذم الحقد : فمن ذلك ما يُرْوَى : أنه قيل للأحْنَف بن قَيس : مَن أَسْوَدُ الناس ؟ فقال الأخْرَقُ فى مالِه المُطَّرِحُ لحِقْدِه :

وقال ابن الرومى يَذُمُّه بعد أن مَدَحه ، كما سيأتى :

يا مادحَ الحقْدِ مُحْتالاً لهُ شَبَهاً لقد سَلَكتَ إليه مَسْلَكاً وَعِثا[٢]
لَنْ يقْلِبَ العيبَ زَيْناً مَنْ يُزَيِّنُهُ حتَّى يَرُدَّ كبيراً عاتياً حَدَثا[٣]

---

(١) وهو صاحب هذه الأبيات الجيدة فى صاحب السوء :

وصاحبُ السَّوْءِ كالداءِ العَياء إذا ما ارْفضَّ فى الجوفِ يَجْرى هاهُنا وَهُنا
يُنْبى ويُخْبِرُ عن عَوْرَاتِ صاحبِهِ وما رأى عنــده مِن صالحٍ دَفَنا
كَمُهْرِ سَوْءٍ إذا رَفَّعْتَ سِـيرَتَهُ رامَ الجِمَاحَ وإن خَفَّضْتَهُ حَرَنا
إنْ يَحْيَ ذاكَ فَكنْ منه بمَعْزِلَة أوْ مات ذاكَ فلا تَعْرِف له جَنَنا

« داء عياء : لا يُبرأ منه ، ورفّعت سيرته : حملته على أن يزيد فى سرعة سيره ؛ والجنن ـ بالتحريك ـ القبر » .

(٢) وعث الطريق : تعسر سلوكه والكلام على المثل

(٣) عاتيا : جاوز الحد

إنَّ القَبيحَ ، وإنْ صَنَّعْتَ ظاهِرَهُ يَعُودُ ما لَمَّ منـه مَرَّةً شَعِثا (١)
كم زَخْرَفَ القولَ ذو زورٍ ولبَّسَهُ على القُلوب ولكن قلّما لَبِثا
قد أبْرَمَ اللهُ أسْبابَ الأُمُورِ مَعاً فلنْ تَرَى سَبباً مِنْهُنَّ مُنْتَكِثا
يا دافِنَ الحقْد فى ضِعْفَىْ جَوانِحِه ساءَ الدَّفينُ الذى أمْسَتْ له جَدَثا (٢)
الحقْدُ داءٌ دَوِىٌّ لا دواءَ لهُ يَرِى الصُّدُورَ إذا ما جَمْرُهُ حُرِثا (٣)
فاسْتَشْفِ منه بِصَفْحٍ أوْ مُعاتَبةٍ فإنما يَبْرَأُ المَصْدورُ ما نَفَثا (٤)
واجْعَلْ طِلابَكَ بالأوْتار ما عَظُمَتْ
ولا تَكُن لِصَغير الأمْرِ مُكترِثا
والعفوُ أقْرَبُ لِلتقْوَى وإنْ جُرُمٌ مِن مُجْرِمٍ جَرَحَ الأكبادَ أوْ فَرَثا (٥)
يَكْفيكَ فى العفْوِ أنَّ اللهَ قَرَّظَهُ وَحْياً إلَى خَيْرِ مَنْ صَلَّى وَمَنْ بُعِثا
شَهِدْتُ أنكَ لَوْ أذنبْتَ ساءَكَ أنْ
تَلْقَى أخاكَ حَقُودًا صَدْرُهُ شَرِثا (٦)

---

(١) شعث : منتشر متفرق
(٢) الجدث : القبر
(٣) حرث : هيج ، ويرى الصدور : يأكلها
(٤) المصدور : الذى يشتكى صدره ، وما فى قوله : ما نفثا مصدرية ، ونفث : رمى بالنفاثة وهو ما يلقيه المصدور من فيه وفى المثل : لابد للمصدور أن ينفث وقد يستعار ذلك للمعانى كما هنا وكما ورد أن بعضهم قال لشاعر : متى تقول هذا الشعر ، فقال : أويستطيع المصدور أن لا ينفث ! أى لا يبزق ، شبه الشعر بالنفث لأنهما يخرجان من الفم .
(٥) الفرث : تفتيت الكبد بالغم والأذى
(٦) الشرث ههنا : الغليظ الخشن ، من شرث الكف غلظ وتشقق ، والشرث أيضا : الخلق البالى من كل شىء فلعله من هذا أيضا .

إذَنْ وسَرَّك أنْ يَنْسَى الذُّنوبَ معاً ... وأنْ تُصادِفَ منـه جانباً دَمِثا
إنِّى إذا خَلَطَ الأقوامُ صالِحَهُم ... بسَيِّئِ الفعْلِ جِـدًّا كان أوْ عَبَثا
جعلتُ صَدْرِي كظَرْفِ السَّبْكِ حينئذٍ ... يَسْتَخْلِصُ الفِضَّةَ البيْضاءَ لا الْخَبَثا
ولستُ أجْعَلُه كالْحَوْضِ أمْدَحُه ... بحِفْظِ ما طابَ مِنْ ماءٍ وما خَبُثَا

وقال يمدح الحِقد:

حَقَدْتُ عليكَ ذنْبًا بعْدَ ذنْبٍ ... ولوْ أحْسَنْتَ كان الحِقْدُ شُكْرا
أديمى مِنْ أديمِ الأرْضِ فاعْلَمْ ... أُسِيءُ الرَّيْعَ حـين تُسيءُ بَذْرا
ولمْ تكُ ، يالكَ الْخيْرَاتُ ، أرْضٌ ... لِتَزْرَعَ خَرْبَقًا فتُرِيعَ بُرّا
أُؤَدِّى إنْ فعَلْتَ الخيرَ خيراً ... إليك وإنْ فعلتَ الشَّرَّ شرًّا
ولستُ مُكافِئاً بالنُّكْرِ عُرفاً ... ولست مُكافئاً بالعُرف نُكْرا
يُسَمَّى الحِقْـدُ عيباً وهو مَدْحٌ ... كما يَدْعُونَ حُلْوَ الحق مُرًّا

« الخَرْبَق : نبات كالسُّمّ ورقه أبيض وأسود ، والبُرّ : القمح »

وأراد يحيى بنُ خالدِ بن بَرْمَك وزير الرشيد أن يَضَعَ من عبدِ الملك ابن صالح فقال له : ياعبدَ الملِك بَلَغَنى أنك حقود ! فقال عبدُ الملك : أيها الوزير ، إن كان الحِقدُ هو بقاءَ الخير والشرّ إنّهما لَباقيان فى قلبى ، فقال الرشيد : مارأيتُ أحداً احتجَّ لِلحِقْد بأحسن مما احتج به عبد الملك

وقال ابنُ الرومى يَمْدَحُ الحقدَ أيضا وقد عابَهُ عائب :

لـئِنْ كنتَ فى حفْظِى لِما أنا مُودَعٌ ... من الخير والشَّرِّ انتَحيْتَ على عِرْضِى
لَما عِبْتَـنى إلاّ بفَضْلِ إبانةٍ ... ورُبَّ أمرئٍ يُزْرِى على خُلُقٍ مَحْضِ
ولا عيبَ أنْ تُجزَى القُرُوضُ بمِثْلِها ... بلِ العيبُ أن تدّانَ ديناً ولا تَقْضِى

وخيرُ سَجياتِ الرجالِ سَجيَّةٌ ... تُوَفِّيكَ ما تُسْدى من القَرْضِ بالقَرْضِ
إذا الأرضُ أدّتْ رَيْعَ ما أنتَ زارعٌ ... من البَذْرِ فيها فَهْىَ ناهيك من أرْضِ
ولولا الحُقودُ المُستكِنّاتُ لم يكُنْ ... لينْقُضَ وِترًا آخرَ الدَّهرِ ذو نَقْضِ
وما الحِقْدُ إلاّ تَوْأمُ الشُّكرِ فى الفَتَى ... وبعضُ السَّجايا ينتَهِينَ إلى بَعْضِ
فَحَيْثُ تَرَى حِقْدًا على ذِى إساءَةٍ ... فثَمَّ تَرَى شُكْرًا على حَسَنِ القَرْضِ

وفى هذا القدر من عبقرياتهم فى الحقد كفاية . وترى فى باب الطبائع ما ينقع غُلّتك إن شاء الله .

الحسد

الحسدُ وقانا اللهُ شرَّه — داءٌ من الأدواء المتأصلة الخبيثة الشائعة فى هذا الناس إلا مَنْ عَصَمَ ربُّك ، قال علماؤنا : الحسد : أن يَرَى الرجلُ لأخيه نِعمة فيتمنَّى أن تزولَ عنه وتكونَ له دُونَه ، أما الغَبْط أو الغِبْطةُ فهى : أن يتمنى أن يكونَ له مثلُها ولا يتمنى زوالَها عنه ، وهى كما قال الإمام الأزهرى ـ : ضرب من الحسد ، ولكنها أخفُّ منه ، قال : ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما سُئِل : هل يضُرُّ الغَبْط ؟ فقال : نعم ، كما يضُرُّ الخَبط فأخبر أنه ضارٌ وليس كضرر الحسد الذى يتمنى صاحبُه زوال النعمة عن أخيه ، والخبط : ضَربُ ورق الشجر حتى يتحاتَّ عنه ثم يستخلف من غير أن يضُرّ ذلك بأصل الشجرة وأغصانها

وقال الله عزَّ وجلَّ : ولا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّل اللهُ به بعضَكم على بعض ...

قال الإمام البيضاوى : ما فضَّلَ الله به بعضَكم على بعض : أى من الأمور الدنيوية كالجاه والمال ، قال : لا تتمنَّوْه . فلعلَّ عَدَمَه خيرٌ ، قال :

والمقتضى للمنع كونُه ذريعةً إلى التحاسُد والتعادى مُعْرِبةً عن عدَم الرضا بما قَسَم الله له ، وأنه تَشَهٍّ لحصول الشىء له من غير طلب ، وهو مذموم لأن تمَنِّىَ ما لم يُقْدَر له معارضة لحكم القدر وتمنى ماقدر له بغير كسب ضائع ومحال ؛ وقد نعى الله فى غير ما آية على أولئك الذين يحسدون الناس على ماآتاهم الله من فضله »

وفى الحديث : لاحسدَ إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وأطراف النهار ، ورجل آتاه الله قرآنا فهو يتلوه ... قال الإمام الأزهرى : هو أن يتمنى الرجل أن يرزقه الله مالًا يُنْفِقُ منه فى سبيل الخير أو يتمنى أن يكون حافظاً لكتاب الله فيتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، ولا يتمنى أن يُرزَأ صاحب المال فى ماله أو تالى القرآن فى حفظه . وقال ثعلب : معناه ليس حسد لايضر إلا فى اثنتين ، أقول : ومعنى ذلك أن كل حسد ضار إلا فى هاتين أى أن حسد صاحب المال ينفقه فى سبيل الخير وحافظ القرآن يتلوه ، غير ضار ، لأن هذين على سبيل سواء يستحقان معه أن يُحْسدا ، أى أن يُغْبطا ...

وقال حكيم : الحسد من تعادى الطبائع واختلاف التركيب وفساد مزاج البِنْية وضعف عَقْدِ العقل . والحاسد طويل الحسرات .

وقال حكيم : الحسد جُرحٌ لا يَبْرَأ ، وحَسْبُ الحسود ما يَلْقَى . وقال الحسن البصرى : يا ابن آدم ، لِمَ تَحْسُدُ أخاك ؟ إن كان الله أعطاه لكرامته عليه ، فلِمَ تحسُدُ مَن أكرمه الله ؟ وإن كان غيرَ ذلك فلِمَ تحسُدُ مَن مَصيرُه إلى النار ! وفى الأثر : الحسد يأكل الحسناتِ كما تأكل النار الحطب ، وقال على بن أبى طالب : مارأيت ظالما أشبهَ بمظلوم من الحاسد ، نَفَس دائم ،

وعقل هائم، وحزنٌ لازم، وقالوا: الحسود لا يسود... قال رَوحُ بن زنباع الجُذاميُّ: كنتُ أرى قوماً دونى فى المنزلة عن السلطان يدخُلون مَداخِلَ لاأدخُلُها، فلما أذهبْتُ عنى الحسدَ دخلتُ حيثُ دخلوا... وقال ابن المقفع: أقلّ ما لتارك الحسد فى تركه أن يَصْرِفَ عن نفسِه عذاباً ليس بمُدْرِكٍ به حظًّا ولا غائظٍ به عدوًّا، فإنّا لمْ نَرَ ظالما أشبه بمظلومٍ من الحاسد، طُولُ أسَفٍ، ومُحالفَةُ كآبةٍ وشِدةُ تحرُّقٍ، ولا يَبْرَحُ زاريا على نِعمةِ الله ولا يَجدُ لها مَزالًا، ويُكدِّر على نفسِه مابِه من النِّعْمة فلا يجِدُ لها طَعْما ولا يزالُ ساخطًا على من لايَترضَّاهُ ومُتسخطا لِما لنْ ينالَ فوقَه، فهو مُنَغَّصُ المعيشة دائمُ السَّخْطةِ محرومُ الطَّلِبة، لابِما قُسِمَ له يَقْنَعُ ولا على مالمْ يُقسَمْ لهُ يَغْلِبُ؛ والمحْسودُ يتقلَّبُ فى فضلِ الله مُباشرا للسُّرورِ مُنتَفِعا به مُمَهَّلًا به إلى مُدَّةٍ ولايَقدِر الناس لها على قَطْعٍ وانتِقاص... وقال أبوتمام:

وإذا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ طُويتْ أتاح لها لِسانَ حَسُودِ
لولا اشتعالُ النار فيما جاوَرَتْ ماكان يُعرَفُ طِيبُ عَرفِ العودِ
لولا التخوُّفُ للعواقِبِ لم تَزلْ للحاسدِ النُّعمىٰ على المحسود

وقال البحترى:

ولنْ يَستبينَ الدهرَ موضعُ نِعمةٍ إذا أنتَ لم تُدْلَلْ عليها بحاسِد

وقال عبد الله بن المعتز:

اصْبِرْ على كيْدِ الحسُو دِ فإنَّ صبرَكَ قاتِلُهْ
فالنـار تأكلُ نفسَها إنْ لم تجِدْ ماتأكُلُهْ

وقال ابن المقفع أيضا: الحسدُ والحِرصُ دعامتا الذنوب، فالحِرصُ أخرج آدم عليه السلام من الجنة، والحسدُ نَقل إبليسَ من جوار الله تعالى

وقال الجاحظ : من العدل المحض والإنصاف الصريح ـ الخالص ـ أن تَحُطّ عن الحاسد نصف عقابه ، لأن ألمَ جسمه قد كفاك مُؤنة شطر غيظك ؛ وللجاحظ رسالة مطولة فى الحسد تراها فى رسائله

وقيل للحسن البصرى : أيَحْسُدُ المؤمنُ أخاه ؟ قال : لا أبالك ، أنسيتَ إخْوَةَ يوسف ؟ وقالوا : الحسود غَضبانُ على القدر ، والقدَرُ لا يُعْتِبُه — أى لا يزيل عَتْبه : أى لا يرضيه — أخذ هذا المعنى منصور الفقيه فقال :

ألا قلْ لمَنْ باتَ لى حاسداً أتَدْرى على مَن أسأت الأدب
أسأت على الله فى فعله إذا أنت لم تَرْضَ لى ما وهبْ

وقال معاوية : كل الناس يمكننى أن أرضيَه ، إلا الحاسدَ الذى لا يردّه إلى مودتى إلا زوالُ نعمتى . وقال المتنبى :

سِوَى وجع الْحُسَّادِ دَاوِ فإنه إذا حلَّ فى قلب فليس يحولُ

وقال آخر :

كلُّ العداوةِ قد تُرجى إماتَتُها إلا عداوةَ من عاداكَ من حسَدِ

ويقال : إذا أراد الله أن يسلط على عبده عدوًّا لا يَرْحَمُه سلَّط عليه حاسداً ... وقال العُتْبىُّ — وذكر وُلْدُ الذين ماتوا — :

وحتى بكى لىَ حُسَّادُهم وقد أتْرَعُوا بالدموع العُيونا
وحَسْبُكَ من حادِثٍ بامرئٍ يرَى حاسديهِ له راحمينا

وقالوا : مَن دَعَتْهُ نفْسُه إلى تَرْك الدنيا فلينْظُرْ : هلْ يَحْسُدُ أحداً ، فإن حَسَدَ كان تركهُ عجزاً ، لأنه لو زهدَ فيها ما حَسَدَ عليها

وقال البحترى :

مُسْتريحُ الأحْشَاءِ مِنْ كُلِّ ضِغْنٍ باردُ الصدرِ من غليلِ الحسودِ

وقيل لسفيان بن معاوية : ما أسرع حسدَ الناس إلى قومِكَ ! فقال :

إنّ العرانين تلقاها مُحَسَّدَةً ولا ترى للئام الناس حُسّادا [(١)]

وقال آخر :

وترى اللبيبَ مُحَسَّداً لم يجترِمْ شَتْمَ الرجال وعِرْضُهُ مَشْتومُ
حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيَه فالقومُ أعداءٌ له وخصومُ
كضرائر الحسناء قُلن لوجهها حسدا وظُلماً : إنه لدميمُ

وقال آخر :

إن تحسدونى فإنى لا ألومكم
قَبْلى مِن الناس أهلُ الفضْلِ قد حُسِدوا
فدام لى ولهم مابى ومابهمُ ومات أكثرنا غيظا بما يجِدُ
أنا الذى تجِدُونى فى حلوقكمُ لا أرْتقى صَدَرًا عنها ولا أرِدُ [(٢)]

وخطب الحجاج يوماً برُسْتَقُباذ بقولِ سُوَيْدِ بن أبى كاهل — شاعر جاهلى إسلامى — :

كيف يرجون سقاطِى بعد ما جَلَّلَ الرأسَ بياضٌ وصَلَعْ
رُبَّ من أنْضَجْتُ غيظاً صَدْرَهُ قد تمنَّى لِىَ موتاً لم يُطَعْ
ويرانى كالشَّجا فى حَلْقِهِ عَسِراً مَخْرَجُه ما يُنْتَزعْ
مُزْبِدًا يَخْطِرُ ما لمْ يرَنى فإذا أسْمَعْتُه صوتى انْقَمَعْ

---

(١) عرانين القوم : سادتهم وأشرافهم . وأصل العرنين الأنف حيث يكون فيه الشمم يقال : هم شم العرانين

(٢) لا أرتقى صدراً ولا أرد : أى فأنا كالشجى الدائم الذى لا منجاة لأعدائى منه

لم يَضِرْنى غير أنْ يحْسُدَنى
فهْوَ يزقُو مثلَ مايزْقُو الضُّوَعْ (١)
ويُحيِّينى إذا لاقيتُه وإذا يخلو له لحمى رَتَعْ
قد كفانى الله ما فى نفْسِه وإذا ما يَكْفِ شيئاً لا يُضَعْ

وقال ابن الرومى لصاعد بن مخلد :

وضِدٍّ لكم لازالَ يَسْفُلُ جَدُّه ولا بَرِحَتْ أنفاسُهُ تتصعَّدُ (٢)
يرى زِبْرِجَ الدنيا يُزَفُّ إليكمُ
ويُغْضِى عن استحقاقكم فهو يُفْأَدُ (٣)
ولو قاس باستحقاقِكم ما مُنِحْتُمُ لأطفأَ نارا فى الحشا تتوقدُ
وآنَقُ من عِقْدِ العقيلة جِيدها وأحسنُ من سربالها المتجَرِّدُ (٤)

وقال الأصمعى : رأيت أعرابيًّا قد أتت له مائةٌ وعشرون سنة ، فقلت له : ما طَوَّل عُمُرَك ؟ فقال تركتُ الحسدَ فبقيتُ . وكانوا يقولون : سِتّةٌ لا يَخْلُون من الكآبة : رجلٌ افتقر بعد غِنًى ، وغنِىٌ يخاف على ماله التَّوى — الهلاك والضياع — وحقودٌ ، وحسودٌ ، وطالبُ مرتبَةٍ لا يبْلُغُها قدْرُه ومُخالِط الأدباء بغير أدب .

ومن ألفاظهم فى وصف الحسد : قد دَبَّت عقارِب الحُسَّد ، وكَمُنَتْ

---

(١) زقا الديك والطائر ونحوهما : صاح ، وكذلك الصبى إذا اشتد بكاؤه ، والضوع طائر من طير الليل إذا أحس بالصباح صدح

(٢) جده : حظه

(٣) يفأد : يحرق فؤاده

(٤) يقول : إن جيد العقيلة أجمل من العقد الذى يظن أنه يزينه ، والمتجرد ـ أى الجسم العريان ـ أجمل من السربال ، وهو القميص

أفاعيهم بكل مَرْصَد : فلان قد وَكل بى لحظاً يَنْتَضِل بأَسْهُم الحَسد ...

✡ ✡ ✡

ومن وصاياهم فى باب الحذرِ من الأعداء الحُسَّد قول أعرابى يَعظ رجلا : وَيْحَك ، إنّ فلانا وإن ضَحِك إليك ، فإنه يَضْحَك منك ، ولئن أظهر الشفقة عليك ، إنّ عقاربه لتَسْرِى إليك ، فإن لم تتخذه عَدُوًّا فى عَلانيتك فلا تجْعَلْه صديقاً فى سريرتك ...

وحَذَّر بعض الحكماء صديقاً له صَحِبَهُ رجل ، فقال : احذَرْ فلاناً ، فإنه كثير المَسْألة ، حَسَنُ البَحْث ، لطيفُ الاستِدْرَاج يحفظ أوّل كلامك على آخره ، ويعتبر ما أخَّرْت بما قَدَّمْت ، فلا تُظْهِرَنَّ له المخافة فيرَى أنك قد تحَرَّزْتَ . واعلم أن مِنْ يَقَظَة الفِطْنة إظهارَ الغَفْلة مع شدة الحذَر . فباثه مُباثّة الآمن ، وتحفَّظْ منه تحفظ الخائف . فإن البحث يُظهر الخفِىّ الباطن ، ويُبْدِى المستكِنّ الكامن .

هذا ، وقد عقد الإمام الغزالى للحسد باباً زاخرا فى كتابه الإحياء حال فيه على طريقته هذا الداء - داء الحسد - وبيّن أسبابه وأعراضه وعلاجه ولماذا كان شائعاً بين الأقران والإخوة والأقارب فارجع إليه إذا أردت التوسع فى هذا الباب ، ولنختر منه هذه الحكاية الطريفة ، قال : كان رجل يغشى بعض الملوك ، فيقوم بحذاء الملك فيقول : أحْسِنْ إلى المحسن بإحسانه ، فإن المُسِىء سيكفيكه إساءته ، فحَسَدَه رَجلٌ على هذا المقام ، وذلك الكلام ، فسعَى به إلى الملك فقال : إن هذا الذى يقوم بحذائك ويقول مايقول ، زَعَم أن الملِكَ أبْخَرُ ، فقال له الملك : وكيف يَصِحُّ ذلك عندى ؟ قال تدعوه إليك ، فإنه إذا دنا منك وَضَع يده على أنفه لئلا يَشُمَّ ريحَ البَخَر ، فقال له :

انصرف حتى أنظر ، فخرج من عند الملك ، فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم ، فخرج الرجلُ من عنده ، وقام بحذاء الملك على عادته ، فقال : أَحْسِنْ إلى المحسن بإحسانه فإن المسيء سيكفيكه إساءته ، فقال له الملك : اُدْنُ مني ، فدنا منه ووضع يده على فيه ، مخافةَ أن يَشَمَّ الملك منه رائحة الثوم فقال الملك فى نفسه : ما أرى فلاناً إلا قد صَدَق ، وكان الملك لا يكتب بخطّه إلا بجائزة أو صِلَة ، فكتب له كتابا بخطه إلى عامل من عُمّاله : إذا أتاك حامل كتابى هذا فاذْبَحْهُ واسْلُخه واْحْشُ جلده تبنا وابعث به إلىّ ، فأخذ الكتاب وخرج ، فلقيه الرجل الذى سَعَى به فقال : ماهذا الكتاب ؟ قال : خط الملك لى بصلة ، فقال : هَبْه لى ، فقال : هو لك ، فأخذه ومضى إلى العامل ، فقال العامل : فى كتابك : أن أَذْبَحَك وأسلَخك ، قال : إن الكتاب ليس هو لى ، فاللهَ اللهَ فى أمرى حتى تراجع الملك ، فقال : ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه وسلخه وحشا جلده تبنا وبعث به ، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته ، وقال مثل قوله ، فعجب الملك وقال : ما فعل الكتاب ؟ فقال : لقينى فلان فاستوهبه منى ، فوهبته له ، قال الملك : إنه ذكر لى أنك تزعم أنى أبخر ، قال : ماقلت ذلك ، قال : فلم وضعت يدك على فيك ؟ قال : لأنه أطعمنى طعاما فيه ثوم ، فكرهت أن تشَمّه ، قال : صدقت ، ارجع إلى مكانك فقد كُفِيَ المسيءُ إساءته ... ومثل هذه الحكايات كثير ويصح أن توضع فى باب السعاية والمكر ، وعاقبة الماكرين .

« وبعد » فإن ما نورده ههنا من عبقرياتهم فى الحسد والحقد وما إليهما إنما هو قليل من كثير تراه فى باب الطبائع وإنما نورد ما نورد من هذه العبقريات لنستوفى باب العداوات ..

المـــزاح

ولأنّ المزاحَ فى الكثير الأعمّ الأغلب مَدرجةُ البغضاء رأينا أن نورد هنا صدْرا من عبقرياتهم فيه .

قال الزَّبيدى شارحُ القاموس : المزاحُ : المُباسَطةُ إلى الغَير على جهة التَّلطُّف والاستعطافِ دون أذيّةٍ ، حتى يَخرُجَ الاستِهْزاءُ والسُّخرِية . قال : وقد قال الأئمّة : الإكثارُ منه والخُرُوجُ عن الحَدّ مُخِلٌّ بالمُروءة والوَقار ، والتَّنزُّهُ عنه والتقبُّض مُخِلٌّ بالسُّنّة .

ويقال : مَزَحَ يَمْزَحُ مَزْحًا ومِزاحًا ومُزاحا ومُزاحة ، وقد مازَحَهُ مُمازَحة ومِزاحا ، والاسمُ المُزاحُ بالضمّ والمُزاحةُ أيضا :

نهيهم عن المزاح

جاء فى الأَثَر : إياكَ والمُزاحَ فإنهُ يذهَبُ ببهاءِ المؤمِن ويُسقِطُ مُروءَتَه ويَجُرُّ غَضَبَه .

وقالوا : المُزاحُ مجلبةٌ للبغضاء مَثْلَبَةٌ للبَهاء [١] مَقْطَعةٌ للإخاء .

وقالوا : المُزاحُ أوّله فَرَح وآخِرُه تَرَح ، وهُو نَقائِضُ السُّفهاء مِثلُ نقائِضِ الشُّعراء . [٢]

وقالوا : لاتمازِحْ صغيرا فيَجترِئَ عليك ، ولا كبيرا فيَحقِدَ عليك

---

(١) مثلبة : منقصة ومسبة

(٢) النقيضة فى الشعر : ما ينقض به والجمع النقائض ومن ثم قالوا : نقائض جرير والفرزدق ، وأصل النقض : إفساد ما أبرمت من عقد أوبناء ومنه المناقضة فى القول وهو أن ينقض الآخر ماقاله الاول

وقال مِسْعَرُ بنُ كِدَام لابنه :

ولقدْ حَبَوْتُكَ يا كِدامُ نصيحتى فاسْمَعْ لقَوْلِ أبٍ عليك شَفيقِ
أما المُزاحةُ والمِراءُ فدَعْهُما خُلُقانِ لا أرْضاهُما لِصَديقِ (١)
ولقدْ بَلَوْتُهُما فلم أحْمَدْهُما لِمُجاوِرٍ جارٍ ولا لِرفيقِ

وقالوا : المزاحُ سِبابُ النَّوكَى (٢)

وقال عُمرُ بنُ عبد العزيز : لا يكونُ المزاحُ إلاّ من سَخَف أو بَطَر .

وقالوا : الغالبُ فيه واتِرٌ . والمغلوب ثائر . وقال أبو نواس :

رُبَّمَا اسْتُفْتِحَ بالمَزْ حِ مَغاليقُ الحِمامِ

حمدهم القصد فى المزح

ومُزاحُ الأماثل

جاء فى الأثر : إنى لأمْزَحُ ولا أقول إلا حقا . . .

ومن مُزاحِه صلوات الله ماروى : أنّ عجوزاً من الأنصار أتَتْهُ فقالت : يارسولَ الله ، ادْعُ لى بالمغفرة ، فقال : أمَا عَلِمْتِ أنَّ الجنةَ لا يدخلُها العَجائز ! فصَرَختْ ، فتبسم رسولُ الله وقال : أمَا قرَأْتِ القرآن ؟ « إنَّا أنشأْناهُنّ إنْشاءً فجعلْناهُنَّ أبْكاراً عُرُبًا أتْرَابا » (٣)

وأتتْهُ أخرى فى حاجةٍ لزَوْجِها فقال لها : ومَنْ زوْجُكِ ؟ فقالت : فلان ، فقال لها : الذى فى عينِه بياض ؟ فقالت : لا ، فقال : بَلَى ، فانْصَرَفت عَجْلَى إلى زوجِها ، وجعلت تتأمَّلُ عيْنَيْه ، فقال لها : ماشأنُك ؟ فقالت :

---

(١) المراء : الجدال وترى عبقرياتهم فى المراء فى كتاب العلم والأدب

(٢) الحمق (٣) عرب جمع عروب وهى : المرأة الحسناء المتحببة إلى زوجها المطيعة له ، أو العاشقة ، أو المغتلمة ، أو الغنجة . والأتراب : الأمثال

أخبرَنى رسول الله أنّ فى عينيكَ بياضًا ، فقال : أمَا ترَين بياضَ عينىَّ أكثر من سوادهما !

وقال صلوات الله عليه لبُنَىٍّ كان لأبى طلحةَ الأنصارىّ ، وكان له نُغَر(١) فمات : مافعَل النُّغيرُ يا أبا عُمَير ؟

وقالوا : الناسُ فى سِجنٍ مالمْ يتمازَحوا .

وقال رجلٌ لأبى عُيَيْنة . المُزاحُ سُبة ، فقال : بل سُنَّة لِمَنْ يُحسِنُه .

يا ساعتِى فى مُجُونى قد طِبتُ فيك وطِبتِ
إنى إذا ضاقَ صدرى قطَعْتُ بالسُّخْفِ وَقتى

وقال سعيد بن العاص لِابنِه : اَقتَصِد فى مُزاحِك فالإفراط فيه يُذهب البهاء ويُجَرِّئُ عليك السُّفهاء ، وترْكُه يَقبِضُ المؤانسين ويُوحِشُ المُخَالِطين

نهيهم عن الغضب فى المزح

قال ابنُ سيرين : ليس من حُسْنِ الخُلُق الغضب من المَزح

الممدوح بأن فيه الجِدّ والهزل

قال شاعر :

أخو الجِدّ إنْ جادَدْتَ أرْضاكَ جِدُّه
وذُو باطِلٍ إنْ شئْتَ ألْهاكَ باطِلُه

وقال أبو تمّام :

الجِدُّ شِيمَتُه وفيه فُكاهةٌ سُجُحٌ ولا جِدٌّ لمَنْ لم يَلْعَبِ(٢)

(١) النغر : البلبل (٢) السجح : اللين السهل

عذر من يضحك وهو محزون

☆ وقد يَضحَكُ المَوتورُ وهْوَ حزين ☆

وقال آخر :

وربّما ضَحِكَ المكروب من عَجَبٍ   السِّنُّ تَضْحَكُ والأحشاء تَضْطَرِمُ

نهيهم عن كثرة الضحك

فى الأثر : إيّاكَ وكثرةَ الضحِكِ فإنّها تُميتُ القلب وتُورِثُ النسيان .
وفيه أيضاً : وَيْلٌ للذى يُحدِّث فيَكْذِبُ ليُضْحِكَ به القومَ ، وَيْلٌ له ، وَيْلٌ له .

وقال عمرُ بن الخطاب : مَن كَثُر ضَحِكُه قَلَّتْ هَيْبَتُه

وقال علىّ : إذا ضحك العالِم ضَحْكةً مَجّ من العِلْم مَجّة .

وقالوا : كَثْرةُ الضّحك تُورِثُ الرُّعونة .

وقيل لأبى العيناء : فلانٌ يضحَكُ منك ! فقال : إن الذين أجْرَموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وهذا من الأجوبة المسكتة ، وكان أبو العَيناء ذا نوادِر .

إيراد جدّ فى مسلك هزل

قال خالد بن صفوان : رَمانى بأصلَبَ من الجَنْدَل ، ونَشّقَنى بأحَرَّ من الخرْدَل ، ثم قال إنى أُمازِحُك !

لى صاحبٌ ليس يخلو   لِسانُه من جِراحى
يُجِدُّ تمزيقَ عِرضى   على سبيل المُزَاحِ

صدرٌ من عبقرياتهم فى الغيبة والنميمة

ولأن الغيبة والنميمة مدرجتان غالباً للعداء بادرنا بإيراد صدر من عبقرياتهم فى هاتين الخَلّتين الذّميمتين .

حقيقة الغيبة والنميمة

الغِيبةُ الاسم من الاغتياب وهو : أن يتكلَّمَ خلفَ إنسانٍ مَسْتُور بسُوءٍ أو بما يَغُمُّه لوسمعه وإن كان فيه ، فإن كان صِدْقاً فهو غِيبةٌ وإن كان كذِباً فهو البَهْتُ والبُهتان . كذلك جاء عن سيدنا رسول الله صلوات الله عليه . وقال بعضُ الفقهاء : الغِيبةُ : أنْ تذكُر الإنسانَ بما فيه من العيب من غير أن تُحوَجَ إلى ذلك ، وفى هذا احترازٌ مما يقوله الشاهد عند الحاكم . والنميمة : نقْلُ الحديث من قوم إلى قوم على جهة الإفساد والشر ، ونَمّ الحديث يَنُمُّه ويَنِمُّه نَمّاً : نقله، والاسم النميمة ؛ والنَّعْتُ : نمّام ، ويقال للنمّام : القتّات يقال : قَتَّ : إذا مَشى بالنميمة ، ويقال له : قسّاس ودرّاج وغمّاز وهمّاز ومائس ومِمْآس .

ذمّ الغيبة والنميمة

قال الله جل شأنه : ولا يَغتَب بعضُكم بعضاً ، أيُحبُّ أحدكم أن يأكل لحمَ أخيه مَيْتاً فكرهتموه . « قوله سبحانه : أيُحبّ أحدكم ... الآية : تمثيلٌ وتصوير لما يناله المغتاب من عِرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه ، قال الإمام الزّمخشرى : وفيه مُبالغات شتّى : منها الاستفهام الذى معناه التقرير ، ومنها جعلُ ماهو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبَّة ، ومنها إسنادُ الفعل إلى

أحدكم والإشعار بأن أحداً من الآخِرين لا يُحب ذلك ، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخا ، وحتى جعل الأخ ميْتاً . قال قتادة : كما تكرَه إن وَجدْت جيفةً مدَوَّدة أن تأكلَ منها فاكْرَه لحمَ أخيك وهو حيّ .

وفى الحديث : « إنّ الغيبةَ أشدُّ من الزِّنا » قيل : كيف ذلك ؟ قال : « لأن الرجلَ يَزْنى فيتوبُ ، فيتوبُ اللهُ عليه ، وصاحبُ الغيبة لا يُغفَرُ له حتى يغفِرَ له صاحبه » وفى الحديث المرفوع : أنّ امرأتين صامتا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فأُخبر النبي بذلك فقال : صامتا عمّا أُحلّ لهما وأفطرتا على ماحرّم الله عليهما . واغتاب رجلٌ رجلا عند قُتيبة بن مسلم فقال قتيبة : أمسِكْ أيها الرجل ، فوالله لقد تلَمَّظْتَ بمُضغة طالما لفَظها الكرام .

وقال عليّ بن الحسين رضى الله عنه : إيّاك والغِيبةَ فإنها إدامُ كِلاب النار « وهذا تمثيل جميل » وقال الشاعر :

لا تَهْتِكنْ من مَساوِى الناسِ ما سَتَروا ... فيَهْتِكَ اللهُ سِتْراً من مَساوِيكا

واذْكُرْ محاسِنَ ما فيهم إذا ذُكِروا ... ولا تَعِبْ أحداً منهم بما فيكا

وقالوا : الغِيبة مَرْعى اللئام وجَهدُ العاجز .

وقال تعالى « همّازٍ مَشّاءٍ بنَميم »

وقال سيدُنا رسولُ الله : من كان يُؤمِن بالله واليوم الآخِر فلا يَرْفَعَن إلينا عورة أخيه المؤمن ... وقال صلى الله عليه وسلم : لا يَراحُ القَتّات رائحةَ الجنة . والقتّات : النمّام »

من سمحت نفسه بأن يكون في حِلّ

ومن لا تسمح نفسه

كان أبو الدرداء رضى الله عنه إذا خرج يقول : اللهم إنى قدْ تصدّقتُ بعِرضى على عبادك .

وقال كُثَيِّرُ عزّة :

هنيئاً مَريئاً غيرَ داءٍ مُخامِرٍ لِعَزّةَ من أعراضِنا ما استَحلّتِ

« خامَره الداء : خالط جوفَه »

وقيل لرجل : فلانٌ شتَمك واغتابك ، فقال : هو فى حِلّ ، فقيل : أتحِلُّ مَن اغتابَك وبه يَثْقُلُ ميزانُك ؟ فقال : لا أحب أن أُثقِل ميزانى بأوْزار إخوانى .

وقال رجلٌ لابن سيرين : قد نِلتُ منك فاجعلنى فى حِلّ ، فقال : لا أُحِلّ ما حرّم الله عليك . أما ما كان إلىّ فهو لك .

من قلت مبالاته بمن اغتابه

قيل لحكيم : فلانٌ يشتِمُك بالغيب ، فقال : لو ضربنى بالسياط فى الغيب لم أُبالِ به .

وقال شاعر قديم وأنشد هذا الشعر لسيدنا رسول الله العلاءُ بن الحضْرَمِىّ :

حَىِّ ذوى الأضْغانِ تَسْبِ قلوبَهم تحيّتَك القُرْبَى فقد تُرْقَعُ النَّعَلْ

وإنْ دَحَسُوا بالشّرّ فاعْفُ تكرُّما وإنْ خَنَسُوا عنكَ الحديثَ فلا تَسَلْ

فإن الذى يُؤذِيك منه سَماعُه وإن الذى قالوا وَراءَكَ لم يُقَلْ

«دحس بين القوم : أفسد بينهم ، وخدسوا : أخفوا ، يريد : إن فعلوا الشر من حيث لا تعلمه » وقد تقدمت هذه الأبيات

وقال المتوكِّلُ الخليفة العباسي لأبي العيناء : ما بَقِيَ أحدٌ إلا اغتابك ! فقال :

إذا رَضِيَتْ عَنِّى كِرَامُ عَشِيرَتى فلا زال غضباناً علىَّ لئامُها

وقيل لرجلٍ : فـلانٌ يغتابك : فقال : دَعْنى يسترْفِعْنى الله بذلك ، فمن أكثرتِ الناسُ فيه الوقيعةَ رفعهُ الله ، وإن بنى أُمَيَّة مازالوا يشتِمُون علىَّ ابن أبي طالب ستِّينَ سنةً فلم يزِدْهُ الله إلا رِفعةً . وقيل لآخر ذلك فقال :

* ولمْ يَمْحُ من نورِ النبيِّ أبو جهل *

وقيل لآخر مثله فقال : لا ضَيرَ ، إنه أراد أن يَمتحِنَ وُدِّى ...

ذمّ ناقص يغتاب فاضلا

قال المتنبي :

وإذا أتتك مَذمّتى من ناقِصٍ فهْىَ الشهادَة لى بأنىَ كامِل

وقبله يقول أبو تمّام :

لقد آسف الأعداءَ فضْلُ ابن يُوسُف

وذو النَّقْصِ فى الدُّنيا بِذِى الفَضْلِ مُولَعُ

وقبل أبي تمـام يقول مَرْوَانُ بن أبي حفصة :

ما ضَرَّنى حسدُ اللئامِ ولم يزَل ذو الفضْل يحسُده ذَوُو التقصيرِ

وأصل هذا المعنى من قول الطِّرِمّاح بن حكيم :

لقـد زادَنى حبًّا لنفسىَ أننى بغيضٌ إلى كُلِّ امرئٍ غير طائِلِ

وأنى شَقِىٌّ باللئام ولا تَرَى شَقِيًّا بهم إلا كريمَ الشمائلِ

وقد تقدم .

وقالوا : كفى بالمرءِ شرًّا أن لا يكونَ صالحاً وهو يقع فى الصالحين .

وبلغ الأحنف بن قيس أن رجلا يغتابه فقال : « عُثَيْثَةٌ تقرِضُ جلداً أملَسا ... » عثيثة تصغير عُثّة وهى دُويبة تلحس الثياب والصوف وأكثر ما تكون فى الصوف ، وهذا مَثَل قد يضرب للرجل يجتهدُ أن يُؤَثِّرَ فى الشىء فلا يقدرُ عليه »

ومما يتصل بهذا قولُهم :

* وما زالت الأشْرَافُ تُهْجَى وتُمْدَحُ *

وقولهم : * إنَّما الغِيبةُ تَلْقِيحُ الشَّرَفْ *

من رمى غيره بعيبه

من هذا قولهم : رَمَتْنِى بِدائِها وانْسَلَّت [١]

وقولهم : عَيَّرَ بُجَيْرٌ بُجَرَة ونَسِىَ بُجَيْرٌ خَبَرَه . ، قال المُفَضَّل الضّبى : بُجَيْرٌ وبُجرةٌ كانا أخوين فى الدهر القديم ولهما قِصّة ذكرها ، وقال الأزهرى بُجيرٌ تصغير الأبجر وهو النَّاتِئ السُّرّة والمصدرُ : البُجْر فالمعنى : أنَّ ذا بُجْرَةٍ فى سُرّته عَيّر غيرَه بما فيه » وقولُ السيد المسيح ما معناه : أَتُبْصِرُ القَذاةَ فى عين أخيك وتَدَعُ الجِذْعَ المُعترِضَ فى حَلْقِك !

اغتياب المرء غيره يدل على عيبه

قالوا : مَنْ وَجَدْتموه عَيّاباً وَجَدْتموه مَعِيباً ، لأنّه يَعِيبُ الناسَ

---

(١) إذا أردت الوقوف على أصل هذا المثل فإلى أمثال الميدانى

بفَضْل عَيْبه . وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

ويأخُذُ عَيْبَ النَّاسِ مِن عَيْبِ نَفْسِه   مُرَادٌ لَعَمْرِى ما أرادَ قريبُ

وقالوا : أعْرَفُ الناس بعُوارِ الناسِ المُعْوِر . « العُوار : العيب ، والمُعْوِر : ذو العيب القبيح السَّرِيرة »

واغتابَ رجل آخر عند بعضِ الأشراف ، فقال له : يا هذا ، أوحَشْتَنا من نفسِك ، وأيأستنا من مَوَدّتك ؛ ودَللتنا على كَثرةِ عُيوبك بما تذكُرُ من عُيوب الناس ، لأنّ الطالِبَ للعيوب إنما يَطلبُها بقدْرِ ما فيه منها

وقال شاعر :

وأجرَأُ من رأيْتُ بظَهْرِ غَيبٍ   على عَيبِ الرِّجالِ ذَوُوالعُيوبِ

يقول : أجرأ الناس على عيب الناس بظَهر الغيب هم ذوو العيوب ، والظهر : ماغاب عنك »

ومما يذكر هنا قولُ بعضِ الحكماء : الأشرارُ يَتتبَّعُونَ مساوِئَ الناسِ ويتركونَ محاسِنَهم ، كالذُّباب يتَتَبَّعُ المواضِعَ الفاسدةَ من الجَسَد ويترك الصحيحة .

تشهى الغيبة واستطابتها

قالوا فى ذلك : الغِيبة فاكهةُ النُّسَّاك والقُرّاء . . .

وقَصد رجُلٌ إلى ابن عَمِّه مُسْتَرْفِدًا ، فأَحسن إليه ، فلما رَجَع سُئِلَ ، فقال : مَنَعَنى التلذُّذَ بالغيبة والشكْوَى .

وقال رجلٌ لِبَنيه : إذا اجْتَمَعْتُمْ فعليكم حديثَ أنفُسِكم ودَعُوا الاغتياب ، فقال أحدهم : نحنُ نحتاجُ فى هذه السنة إلى كذا وكذا ، ونَفعَلُ ونَصنَعُ كذا وكذا ، فقد فرغنا من حديثنا ، فبماذا نشتغِل !

من اغتاب فاغتيب

قيل : مَن رَمَى الناسَ بما فيهم رَمَوْهُ بما ليس فيه

وقيل : بَحْثُكَ عن عيوبِ الناسِ يَدْعُو إلى بحثِهِمْ عن عُيوبك .

وَمَنْ دعا الناسَ إلى ذَمِّه ... ذَمُّوه بالحقِّ وبالْباطِل

وقال شاعر ظريف :

تحلَّلْتَ بالسَّبِّ لمَّا رأيْتَ ... أديمَكَ صحَّ ومَنْ سَبَّ سُبْ

فإنْ لمْ نَجِدْ فيكَ من مَغْمَزٍ ... سلكنا إليك طريقَ الكَذِبْ

نهيهم عن الإصغاء إلى المغتاب

قالوا : إذا رأيتَ من يغتابُ الناسَ فاْجهَدْ جُهدَكَ أنْ لا يَعرِفَك ، فأشقى الناس به مَعارفه .

وقال عَمْرو بنُ عُبيد لرجل يَستمع إلى آخر يغتاب : وَيْلَك ، نَزِّهْ أُذُنك عن استماع الخَنَا كما تنزِّهُ لسانَك عن النُّطق به .

وقالوا : ☆ والسَّامعُ الذَّامِ شَريكٌ له ☆

وقال بعض المُتَصوِّفة : الرجلُ يقول : سبحان الله ، وأَخْشى عليه بذلك النار ، وهو الذى يَسْتمِدُّ بذلك الغِيبة إذا سَمِعها ...

الممدوح بصيانة مجالسه عن الغيبة

مَدَح بعضهم رجلا فقال : ينزِّهُ مَجالِسَه عن الغِيبة ومسامِعَه عن النميمة .

وقال الشاعر :

إذا ما تراآهُ الرجال تحفَّظوا ... فلمْ تُنْطَقِ العَوْراءُ وهو قريبُ

« العوراء : الكلمة القبيحة »

حثهم على التثبت فيما يسمع من السعاية

وُشِيَ برَجُلٍ إلى بلال بن أبى بُرْدة ، فلما أُتِيَ به قال : قد أتاك كتابٌ من الله فى أمرنا ، فاعمل به ، قال الله تعالى : « إن جاءكم فاسِقٌ بنبإٍ فتبيَّنُوا أن تُصِيبوا قوماً بجهالةٍ فتصبحوا على مافعلتم نادمين » ، فقال : صدقت .

وأُبْلغ أحدُ الملوك عن رجلٍ منكَراً ، فأمر بقتله ، فقال : إن قتَلْتَنى ومَن سَعَى بى كاذب يَعْظُمْ وِزْرُكَ ، وإن تركتني وهو صادق قَلَّ وِزْرُكَ وأنت من وراء ماتريد ، والعجلة مُوَكَّلٌ بها الزلل ، فأمر بإبقائه .

وقال كُثيِّر عزّة :

وإن جاءكِ الواشونَ عنى بكِذْبَةٍ ... فرَوْها ولم يأتوا لها بحَوِيل [1]

فلا تَعْجَلى ياعَزَّ أن تَتَفَهَّمِى ... بِنُصْحٍ أتى الواشونَ أم بِحُبُولِ [2]

وقال عَبدةُ بن الطبيب من أبيات يعظ فيها بنيه :

واعْصُوا الذى يُزْجِى النَّمائِمَ بينكمْ ... مُتَنَصِّحاً وهْوَ السِّمامُ المُنْقَعُ [3]

يُزْجِى عقاربَه لِيَبْعَثَ بينكم ... حَرْباً كما بعث العروقَ الأخْدَعُ [4]

حرّانَ لا يشفِى غَليلَ فُؤادِهِ ... عَسَلٌ بماءٍ فى الإناءِ مُشَعْشَع [5]

---

(١) فروها من الفرية ، والحويل : المحاولة

(٢) الحبول : الدواهى

(٣) يزجى : يسوق ، والسمام : السم ، والمنقع : المربى

(٤) الأخدع : عرق فى العنق فى موضع الحجامة

(٥) مشعشع : ممزوج

لا تأمنوا قوماً يَشِبُّ صبيُّهم بين القبائل بالعداوة يُنْشَعُ (١)
إن الذين تُرَوْنَهُم إخوانَكمْ يشفِى غليلَ صدورهم أن تُصْدَعُوا (٢)
فضَلَتْ عداوتُهم على أحلامِهِم وأبَتْ ضِبابُ صدورهم لا تُنْزَعُ (٣)
قومٌ إذا دَمَسَ الظلامُ عليهمُ هدَجوا قنافذَ بالنميمةِ تَمْزَعُ (٤)

وسعى رجل بالإمام الليث بن سعد إلى والى مصر ، فأحضره ، فقال الإمام : إنْ رأيتَ أن تسأله : أسِرٌّ ائْتَمَنْتُهُ عليه فخانه ، أم كذبٌ افتراه ؟ والخائن والكاذب لا يُقْبَلُ قولهما ...

ووَشَى واشٍ إلى بعض الأمراء وقال : إنّ فلاناً هجاك ، فأحضره وأعلمه ، فقال الرجل : كلا ، فقال : أخبرَنى بذلك الثقة ، فقال : الثقة لا يكون نمّاما .

وكان الفضل بن سهل الوزير يُبْغِض السُّعاة ، فإذا أتاه ساعٍ يقول : إن كنت صادقاً لم ينفعْك ذلك عندنا ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، وإن شئت أقلناك .

---

(١) ينشع من نشع فلان بكذا : أولع به

(٢) هذا البيت من شواهد المسند إليه فى علم المعانى والشاهد فيه تنبيه المخاطب على الخطأ فى ظنه ، إذ فى قوله : إن الذين من التنبيه على الخطأ ما ليس فى قولك إن القوم الفلانيين ، وترونهم : تظنونهم

(٣) الضباب جمع ضب ، والمراد به : الغل الممعن فى الصدر إمعان الضب فى جحره

(٤) دمس الظلام : اشتدت ظلمته ، وهدجوا : مشوا مشية الشيوخ الراجفة المتقاربة الخطى ، وهو الهدجان ورواية المفضليات : حدجوا ا قال شارحها حدجوا : رحلوا : أراد : أنهم يسهرون بالنميمة والاحتيال فى الشر كما يسهر القنفذ لأنه يسير ولا ينام ليله أجمع ، وتمزع ، تسرع

وسأل رجل عبد الملك بن مروان الْخَلْوَة ؛ فقال لأصحابه : إذا شئْتم (١) فلمّا تهيأ الرجل للكلام قال له : إياك وأن تمدحنى ، فإنى أعرَفُ بنفسى منك أو تكْذِبَنى فإنَّهُ لا رأىَ لِكذوب ، أو تَسْعَى بأحدٍ إلىّ ، وإنْ شِئْتَ أن أُقيلك أقَلْتُكَ ، قال : أقلنى :

ووَشَى إلى عبد الملك واشٍ فى أحد الكُتَّاب ، فوَقّع :

أقِلُّوا عليهم لا أبَا لأبيكم
مِن اللّوم أو سُدُّوا المكان الذى سَدُّوا (٢)

وقال الواثق لأحمد بن أبى دواد القاضى : مازال القوم فى ثَلْبِك إلى الساعة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لكلِّ امرئٍ منهم ما اكتسب من الإثم ، والله ولىُّ جزائه ، وعقابُك من ورائه ، فما الذى قلتَ لهم ؟ قال : قلت :

وسَعَى إلىّ بِصَرْم عَزَّةَ نِسْوَةٌ
جعلَ المليكُ خُدودَهنَّ نعالها (٣)

صعوبة التخلص من اغتياب الناس

سأل بعض الأنبياء ربَّه عز وجل أن يدفع عنه ألسنة الناس فلا يغتابوه ، فقال عز وجل : هذه خَصلَةٌ لم أجعلها لنفسى فكيف أجعلها لك !

وقالوا : ليس إلى السلامة من ألسنة الناس سبيل . فانظر إلى ما فيه صلاحُكَ فالزَمْهُ .

(١) تلك كانت عادته إذا أراد انصراف أصحابه يقول : إذا شئتم
(٢) للحطيئة
(٣) لكثير عزة

وقال شاعر :

إذا كنت مَلْحيًّا مسيئاً ومُحْسِناً فَغِشْيَانُ ماتهوَى من الأمر أكْيَسُ

« ملحيًّا : ملوماً ، ومسيئاً ومحسنا : حالان »

ذم ناقل الغيبة

قالوا : من بلّغك فقد شتمك . وفى هذا المعنى يقول شاعر :

لعَمْرُكَ ما سبَّ الأميرَ عدُوُّه ولكنَّما سبَّ الأميرَ المُبَلِّغُ

وقيل لحكيم : فلان عابك بكذا ، فقال : لقد رأيتُكَ نَفَحْتَنى بما اسْتَحَى الرجلُ مِن استقبالى به .

الموصوف بالنميمة

قال سبحانه : (ولا تُطِعْ كلَّ حَلَّافٍ مَهِين هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بنَمِيم)

وقال بعضهم لآخر : فلانٌ نمّ بك ، فقال : إن فلاناً لو كان بينك وبين الله واسطة لسَعَى بك إليه .

وقال السَّرِىّ الرّفاء :

أنمّ بما استَودعتَهُ من زُجاجَةٍ ترى الشىء فيها ظاهراً وهو باطِنُ

وقال العباس بن الأحنف :

أُناسٌ أَمِنَّاهم فنمُّوا حديثَنا فلما كتمنا السر عنهم تقوّلوا

من اغتاب غيره فرآه

اغتاب أعرابى رجلا ، فالتفت فرآه ، فقال لو كان خيراً ما حضرته .

من لا يحرم اغتيابه

قال الحسن البصرى : لا غِيبة فى ثلاثة : فاسقٍ مجاهر ، وإمامٍ جائر ، وصاحب بدعة .

حثهم على التحرز

مما يقتضى الغيبة

قال الحسن البصرى : من دخل مداخِلَ التُّهْمَة لم يكن له أجْرُ الغِيبَة .
وقالوا : من عَرَّضَ نفسه للتُّهْمَة فلا يلومَنَّ مَنْ أساءَ به الظنَّ واغتابَه .

الباب السادس

فى التواضع والكبر

وما إليهما

ولما كان التواضعُ مجلبة المودة ، والكبر مَدْرَجَةَ العداء ، حتى قال بعضهم — وقد قيل له : ما التواضع ؟ فقال : اكتساب المودّة ، فقيل : ما الكبر ؟ فقال : اكتساب البغض — لمّا كان ذلك كذلك ألْحَقْنَا عبقرياتهم فيهما بباب الحلم وما إليه .

حدّ التواضع والكبر

التواضع فضيلة بين الضَّعَة والكبر ، قال الراغب : التواضع مُشْتَق من الضَّعة وهو : رضا الإنسان بمنزلةٍ دون مايستحقه فَضْلُهُ ومنزِلَتُهُ ، وهو فضيلة لاتكاد تظهر فى أفناء الناس ، لانحطاطِ درجتِهم ، وإنما يَتَبَيَّنُ ذلك فى الملوك وأجلّاء الناس وعلمائهم . وهو من باب التفضُّل ، لأنه يترُكُ بعض حقَّه ، قال : وهو بين الكبر والضَّعة : فالضعة : وضْعُ الإنسان نفسه بمحلّ يُزْرى به ، والكبر : وضْعُ نفسِه فوق قدْرِه ، أو هو : ظَنُّ الإنسان أنّهُ أكبر من غيره ، والتكبر : إظهار ذلك . وهذه صفةٌ لايستحقُّها إلا الله عز وجل ، ومن ادعاها من المخلوقين فهو فيها كاذب ، وكذلك صارَ مدحاً فى البارى تعالى ، وذما فى البشر ، وإنما شرفُ المخلوق فى إظهارِ العبودية كما قال تعالى : لن يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله

ولا الملائكة المقربون ، تنبيها على أن ذلك لهم رفعة لا ضَعَة : قال : والتكبُّر يتولدُ من الإعجاب ، والإعجابُ من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل رأس الانسلاخ من الإنسانية ، ومن الكبر الامتناعُ من قبول الحق ، وأقبح كِبْر ما كان معه بُخْلٌ ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : خَصْلَتان لا يجتمعان فى مؤمن : الكبر والبخل ، واستُحْسِنَ قول الشاعر :

جَمَعْتَ أَمْرَيْنِ ضاع الحزمُ بينهما نفسُ الملوك وأخلاق المماليك

ومن تكبَّر لرياسة نالها دل على دناءة عُنْصُرِهِ ، ومن تكبر لِقِنْيَتِه جهل أن ذلك ظلٌّ زائل وعاريةٌ مُستَرَدَّة ، ومن تفكَّرَ فى ذاته فعرف مَبْدَأه ومُنْتَهاه وأواسطهُ عرف نفسه ورَوَّض كِبْرَه ، وقد نبَّه الله على ذلك بقوله : (فلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِق ، خُلِقَ من ماء دافِقٍ يخرج من بينِ الصُّلْبِ والترائب) [١] ، وقال : (قُتِلَ الإنسان ما أكفَره من أىّ شىء خَلَقَه ، من نُطْفَة خلقه) ، وقال : (إنا خلقنا الإنسان من نُطْفَة أمْشَاج) [٢] ، ثم قال : وأما العِزَّةُ فهى : الترفُّع بالنفس عما يلحقهُ منه غَضَاضة ، والعزة منزلة شريفة ، وهى نتيجة معرفة الإنسان بقدر نفسه وإكرامُها عن الضراعة للأعراض الدنيوية ، قال الله تعالى : (ولله العزَّة ولرسوله وللمؤمنين) ، وفى الحديث : « لا ينبغى المؤمن أن يُذِلَّ نفسه » ولذا قالوا : التكبُّر على الأغنياء تواضع ، تنبيها على أن هذا التكبر عزَّةُ

---

(١) الترائب موضع القلادة من الصدر ، وقيل : الترائب : أربع أضلاع من يمنة الصدر وأربع من يسرته وقال الفراء : يعنى صلب الرجل — العظم من لدن الكاهل إلى العجب — وترائب المرأة

(٢) الأمشاج : الأخلاط : ماء الرجل وماء المرأة أو النطفة

نفسٍ ، وقال ابن مسعود : من خضع لغنيٍّ فوضعَ نفسه عنده طمعاً فيه ذهب ثُلُثا دينه وشَطْرُ مُرُوءَتِهِ . أقول ولهذا باب سيمر عليك .

حثهم على التواضع

قال سيدنا رسول الله : « طُوبَى لمن تواضع فى غير مَنْقَصَة ، وذلَّ فى نفسه فى غير مسكنة . » فى غير منقصة : بأن لا يضع نفسه بمكانٍ يُزْرِى به ، ويُؤدى إلى تضييع حقِّ الحق — الله سبحانه — أو الخلق ، فإن القصد بالتواضع خفضُ الجناح للمؤمنين مع بقاء عزة الدين . رُوِى أن رجلا مر على عمر وقد تخشَّع وتذلَّلَ وبالغ فى ذلك ، فقال عمر : ألستَ مُسْلِما ؟ قال بلى ، قال : فارْفَعْ رأسك وامدُدْ عنقك فإن الإسلام عزيز منيع ؛ أما كلمة طوبى فللعلماء فيها كلام كثير فمِن ذلك قول بعضهم : طوبى : اسم الجنة بالهندية ، قال الصاغانى : فعلى هذا يكون أصلها توبى ، بالتاء ، فإنه ليس فى كلام العرب طاء ، وقال قتادة : طوبى كلمة عربية تقول العرب : طوبى لك إن فعلت كذا وكذا ؛ قالوا : ومعنى طوبى لفلان : الُحسنى والخير له .

وكان رسول الله صلى عليه وسلم مثلا أعلى للتواضع ، قال أبو أُمامة رضى الله عنه : خرج علينا رسول الله مُتَّكئا على عصا ، فقمنا له ، فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعَظِّمُ بعضهم بعضا ، وقال : إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد[1] وكان صلوات الله عليه يركب الحمار ويُردِف خلفه ،

---

(١) اختلف العلماء فى القيام للتعظيم المعتاد ، فقيل : مكروه استدلالا بهذا الحديث ونظائره ، وذهب بعضهم إلى حرمته وقال بعض الأئمة : إنه مستحب لأهل العلم والصلاح

ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم ، حيثما انتهى به المجلسُ جلس... ومن حديث عمر عنه صلى الله عليه وسلم : لا تُطْرُونى كما أطْرَت النصارى ابنَ مريم [1] ، إنما أنا عبدٌ ، فقولوا : عبدُ الله ورسوله .

وعن عائشة رضى الله عنها : أنه صلوات الله عليه كان فى مِهْنَةِ أهله — خدمَتِهم — يَفْلى ثوبه ، ويَحلِب شاته ، ويَرْقَع ثوبه ، ويَخصِف نعله ، ويَقُمّ البيت — يكنسه ويزيل قمامته — ويخدُمُ نفسه ، ويعقل البعير — يربطه من رجله بالعقال — ويعلف ناضحه — الجمل الذى يُسْتَقَى عليه الماء — ويأكل مع الخادم، ويَعْجِنُ معها ، ويحمل بضاعته فى السوق . وأخباره فى تواضعه صلوات الله عليه كثيرة متوافرة تراها فى كتب الشمائل والحديث .

وفى المثل : تواضُعُ الرجُلِ فى مرتبتِه ذَبٌّ للشماتة عند سَقْطَتِه .

وقال عروة بن الزبير : التواضع أحد مصايد الشرف ، وفى لفظ : « سُلَّمُ الشرف »

وقال عبد الله بن المعتز : مُتَوَاضِعُ العلماء أكثرهم علما ، كما أن المكان المنخفض أكثر الأماكن ماءً .

وللحكام العدول ، بل قد يجب إذا خشى من تركه ضرر لجبابرة الملوك ، ويستحب لمن قدم من سفر ولذوى الأرحام تكريماً لهم وبراً بهم ، والمنهى عنه إنما هو ما كان على سبيل الرياء والتكبر ، وإنما نهاهم صلوات الله عليه لئلا يظنوه سنة

(١) الاطراء : مجاوزة الحد فى المدح والكذب فيه وبذلك فسر الحديث وفى معنى الحديث قال الأبوصيرى :

دَعْ ما ادعَتْهُ النصارى فى نبيِّهم ... واحكُمْ بما شِئْتَ مَدْحًا فيه واحْتَكِمِ

وقالوا: من وضع نفسه دون قدره رفعه الناس فوق قدره، ومن رفعها عن حده وضعه النّاس دون قدره.

وقال جعفر بن محمد: رأس الخير التواضُع، فقيل له: وما التواضع؟ فقال أن ترضى من المجالس بدون شرفك، وأن تُسَلِّم على من لقيت، وأن تترك المِراءَ وإن كنت مُحِقًّا، وأن تكره الرِّياء والسُّمْعَة.

وقالوا: التَّواضُعُ نِعمَةٌ لا يَفْطِنُ لها الحاسِدَ.

وقالوا: التواضُعُ كالوَهْدَة يجتمِعُ فيها قَطْرُها وقطرُ غيرِها.

وقال عُمَرُ: أُريدُ رجلا إذا كان فى القومِ وهُوَ أميرُهم كان كبعضهم، فإذا لم يكن أميراً فكأنَّهُ أميرهم.

وقال رضى الله عنه حين نظر إلى بعض السَّراةِ مُبتذِلا لأصحابه: هذا رَجُلٌ يَفِرُّ من الشرف والشرف يَتْبَعُه.

وقد مَدَح الشُّعراءُ المتواضعين فمن ذلك قولُ أبى تمام:

مُتَبَذِّلٌ فى القومِ وهو مُبَجَّلٌ   مُتَواضِع فى الحَىِّ وهْوَ مُعَظَّمُ

وقال آخر:

مُتَواضِعٌ والنُّبْلُ يَحْرُسُ قَدْرَهُ   وأخو النَّباهةِ بالنَّباهَةِ يَنْبُلُ

وقال البحتُرِىُّ:

دَنَوْتَ تَواضُعاً وعلَوْتَ مَجداً   فشأناكَ انْحِـدارٌ وارْتِفاعُ
كذاكَ الشَّمسُ تَبْعُدُ أنْ تُسامَى   ويَدْنُو الضَّوءُ منهـا والشُّعاعُ

وقال أبو محمد التَّيْمِىُّ:

تَواضَعَ لَمَّا زادَه الله رِفْعَةً   وكلُّ رَفيعٍ قَدْرُه مُتواضِعُ

وقال أبو بكر الخوارزمى :

عَجِبْتُ له لم يَلْبَسِ الكِبْرَ حُلَّةً وفينا إذا جُزْنا على بابِه كِبْرُ

ذمّهم التكبر

قال الله تعالى : إنه لا يُحِبُّ المُستكبرين . وقال سبحانه : كذلك نَطْبَعُ على كل قلبِ متكبِّر جبار . وقال : فادخُلوا أبوابَ جهنّمَ خالِدِين فيها فبِئْسَ مَثْوَى المُتكبِّرين . وقال : سأصرِف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق .

ودخل الفضلُ بن يحيى ذاتَ يومٍ على أبيه وهو يتبختر فى مِشْيَتِه ، فقال له يحيى : ياأبا عبد الله ، إن البُخلَ والجهل مع التواضع ، أزْينُ بالرجل من الكِبر مع السخاء والعلم ، فياها من حسنة غَطَّتْ على عيبين عظيمَين ، وياها من سيئة غَطّت على حسنتين كبيرتين ، ثم أومأ إليه بالجلوس وقال : احفظه ياأباعبد الله فإنه أدب كبير أخذناه عن العلماء ...

وهذا كما قال حكيم : وَجَدْنا التواضُعَ مع السخافة والبُخْلِ أحْمَدَ عند العقلاءِ من الكِبْرِ مع الأدب والسّخاءِ ، فأَنْبِلْ بحَسَنةٍ غَطَّتْ سيّئتين ، وأقْبِحْ بسَيّئة عَفّت على حسنتين !

وقال على بن أبى طالب : عَجِبْتُ للمتكَبِّر الذى كان بالأمسِ نُطْفَةً وهو غداً جِيفة . وقال بعض الشعراء :

يامُظهِرَ الكِبْرِ إعجاباً بصورَتِه انْظُرْ خَلاءَكَ إن النَّتْنَ تَثْرِيبُ
لو فَكَّرَ الناسُ فيما فى بُطونِهِمِ ماا سْتَشْعَرَ الكِبرَ شُبّانٌ ولا شِيبُ
هل فى ابنِ آدمَ غيرَ الرأسِ مَكْرُمَةٌ وهو بخَمْس من الأقذار مضروبُ

أنفٌ يسيلُ وأذنٌ ريحُها سَهِكٌ والعينُ مُرْمَصَةٌ والثغرُ مَلعوبُ
يابنَ التُّرابِ ومأكولَ التراب غداً أقصِرْ فإنك مأكولٌ ومَشرُوبُ

وقالوا: دَعِ التَّكبُّرَ، فمتى كنتَ من أهل النُّبْل لم يَضِرْكَ التبذُّل، ومتى لم تكنْ من أهلِه لم يَنْفَعْكَ التنبُّل.

بعض دواعي التكبر

قال المأمون: ماتكبَّر أحدٌ إلا لِنَقْصٍ وجَدَه في نفسِه.

وقال حكيم: ماتعاظمَ أحدٌ على مَن دونه إلا تصاغَرَ لِمَنْ فوقَه

وقالوا: ماتاهَ إلا وَضيع، ولا فاخَرَ إلا سَقِيط، ولا تعظَّمَ إلا لقيط. «السقيط: الأحمق الناقص العقل، واللقيط: الطفل الذي يُوجَد مَرْمِيًّا على الطرُق لا يُعرَف أبوه ولا أمُّه»

وقال يحيى بن خالد بن برمك: لَسْتَ تَرَى أحداً تكبَّر في إمارَتِه إلا وهو يَعلم أنّ الذي نالَ هو فوقَ قَدرِه، ولستَ ترى أحداً يَضع نفسَه في إمارَة إلا وهو في نفْسِه أكثر مما نال.

وقيل لبَعضهم: فلانٌ غيَّرَتْهُ الإمارة! فقال: إذا وَلِيَ الرجلُ ولايةً فرآها أكثرَ منه تغيَّرَ، وإذا وَلِيَ وِلايةً يرَى أنه أكثرُ منها لم يَتَغيَّرْ.

وقالوا: مَن نال منزلة فأبْطَرَتْه دَلّ على رداءةِ أصلِه وعُنْصُرِه.

وقال بعض المتصوفة: اللئام إذا تموَّلوا استطالوا، وإذا افتقروا تواضعوا والكرام إذا تمولوا تواضعوا، وإذا افتقروا استطالوا.

وقال الجاحظ من كلمة له: والكبر في الأجناس الذليلة أرسخ، ولكن

القِلّةَ والذلة مانعتان من ظهور كِبْرِهم ، ومَن قدر من الوضعاء أدنى قدرة ظهر من كبره مالا خفاء به ، ولم أرَ ذَا كِبْر قطُّ علا مَن دونه إلا وهو يَذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزْنِه ...

متكبر دنىء أو فقير

قالوا : أبغض الناس ذو عُسْرٍ يَخْطُرُ فى رداء كبر .

ومن قولهم فى ذلك : أنفٌ فى السماء وآستٌ فى الماء

مدحهم معرفة الرجل قدر نفسه
وذمهم الصلف
وبعض نوادر المزهوّين

قال على بن أبى طالب : لَنْ يَهلِكَ امرؤ عرَف قدره .

وقال المتنبى :

ومن جَهِلَتْ نَفْسُهُ قدرَه   رأى غيره منه ما لا يَرى

وقال سيدنا رسول الله : ثلاثٌ مهلكات : شُحٌ مُطاع ، وهَوًى مُتَّبَع ، وإعجاب المرء بنفسه .

وقالوا : عُجْبُ المرءِ بنفسه أحدُ حُسَّاد عقله .

وقال أعرابى لرجل معجَبٍ بنفسه : يَسُرنى أن أكون عند الناس مثلَك فى نَفْسِك ، وعند نفسى مثلَك عند الناس ...

وكان رجل يسمى أبا ثَوَابة أقبَحَ الناس كبراً ، ممعناً فى الصَّلَف ، رُوِى أنه قال لغلامه : آسْقِنى ماء ، فقال : نعم ، قال : إنما يقول « نعم »

من يقـدر على أن يقول «لا» وأمر بضربه ... ودعا أكّارًا فكلمه ، فلما فرغ دعا بماء وتمضمض ، استقذاراً لمخاطبته ...

ومن المعجبين بأنفسهم المُغالين فى العزة وإن كان إلى ذلك من الشخصيات الضخمة الكريمة النبيلة المحترمة عمارة بن حمزة[1] ، رُوِى : أنه دخل على المهدى الخليفة العباسى ، فلما استقر به الجلوس ، قام رجلٌ كان المهدى قد أعده له ليتهكّمَ به ، فقال : مظلومٌ يا أمير المؤمنين قال : من ظلمك ؟ قال : عُمارة غَصَبَنى ضَيْعتى ، وذكر ضيعةً من أحسن ضياع عُمارة وأكثرها خَرَاجًا ، فقال المهدىّ لعمارة : قُمْ فاْجلسْ مع خَصْمِك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما هو لى بخَصْم ، إنْ كانت الضيعةُ له ، فلستُ أُنازعه فيها ، وإن كانت لى فقد وهبتها له ، ولا أقوم من مجلسٍ شرفنى به أميـر المؤمنين ، فلما انصرف المجلس سأل عمارَةُ عن صِفَةِ الرجل ، وما كان لباسُه ، وأين كان موضعُ جلوسه ... وكان من تيهه أنه إذا أخطأ يمر على خطئه ، تكبُّراً عن الرجوع ويقول : نقض وإبرام فى ساعة واحدة ! الخطأ أهون من ذلك ...

ومن المفرطين فى الكِبْر رجل يسمى عبيد الله بن زياد بن ظَبيان ، قال له رجل من قومه وقد رأى منه ما أعجبه : كَثَّرَ الله فينا مِثلك ، فقال : لقد كلفتمُ الله شَطَطا ...

وهناك من نوادر المتكبرين المستطرفة ما لا يتّسع له معجمنا هذا .

---

(١) ترجم له ياقوت فى معجم الأدباء ترجمة وافية

معتذر لعجبه وعزته

قيل لإياس بن معاوية [١] : ما فيك عيب غير أنك مُعْجَبٌ ، فقال : أيُعْجِبُكم ما أقول ؟ قالوا : نعم ، فقال : فأنا أحقُّ أن أُعْجَبَ به ...

وقال بعض المعجبين :

يقولون : ذو كِبْرٍ ولو خُصَّ بعضهم ببعضِ خِصالى ما استفاق من الكبر

وقال رجل لبعض المزهُوّين : ما أعظمك فى نفسك ! فقال : لست بعظيم ، ولكنى عزيز ، لقوله تعالى : ولله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين . وفى هذا المعنى يقول بعضهم :

وما أنا مَزْهُوٌّ ولكننى فتًى أبَتْ لِىَ نَفْسٌ حُرَّةٌ أن أُذِيلَها

« أذيلها : أهينها » وهذا من قبيل قول القائل :

وأُكْرِمُ نفسى أننى إن أهنتها وحقِّك لم تكرُمْ على أحدٍ بعدى

ولمثل هذا المعنى باب سنستوعب عبقرياتهم فيه .

التكبر على ذوى الكبر

سُئل الحسن البصرىّ عن التواضع ، فقال : هو التكبر على الأغنياء « يريد : الترفع وعدم التذلل لهم طمعاً فى مالهم أو جاههم »

وأنشد المبرد :

إذا تاهَ الصديقُ عليك كبرا فتِهْ كِبْراً على ذاك الصديق

---

(١) الذى يضرب به المثل فى الذكاء والفطنة ، ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة ، ترجم له ابن خلكان .

فإيجابُ الحقوق لغير راعٍ حُقُوقَكَ رأسُ تضيع الحقوقِ

وقال الأصمعي : قال رجل : ما رأيت ذا كبر قط إلا تحول داؤه فِيَّ . « يريد : أني أتكبر عليه » ، وقال آخر : ماتاه أحدٌ قط عليَّ مرتين « يريد : أنه إذا تاهَ مرة لم أعاوِدْه وتركته وأعرضت عنه »

وقال عدى بن أرطاة وهو أمير لوكيع بن الأسود : سَوِّ عليَّ ثيابي ، فقال : ✡ ذكَّرْتني الطعنَ وكنتُ ناسيا ✡[1] في خَفِيٍّ ضيِّقٍ فلْيَمُدَّهُ الأميرُ حتى أنزعه ، فقال له عدى : إن الجليسَ لَيَلِي من جليسه أكثر من هذا ، فقال ياعدى ، إذا عُزِلْتَ عنا فكَلِّفنا أكثرَ من هذا ، أمَّا وأنت ترى لك علينا بسطة فلا ...

ذمهم الإفراط في التواضع

قالوا : مِنَ التواضع ما يَضَع

وقال عبد الله بن المقفع : الإفراطُ في التواضع يوجب المذلة ، والإفراط في المُؤانسة يوجب المهانة .

حمد تعظيم الكبار

قدِم قيس بن عاصم المِنْقَرِيّ سيد أهل الوبر على النبي صلى الله عليه

---

(١) قال الميداني ـ وأورده في أمثاله ـ : أصله أن رجلا حمل على رجل ليقتله ، وكان في يد المحمول عليه رمح ؛ فأنساه الدهش والجزع ما في يده ، فقال له الحامل : ألق الرمح ، فقال الآخر . وأن معي رمحا لا أشعربه؟ ذكرتني الطعن ... المثل وحمل على صاحبه فطعنه حتى قتله . يضرب في تذكر الشيء بغيره .

وسلم ، فبسط له رداءه ، ثم قال : إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه .

ورُوِيَ أن مجوسيًّا دخل على رسول الله . فأخرج صلوات الله عليه مِن تحته وِسادةً حَشْوُها ليف ، وطرحها له ، وأقبل عليه يحدثه ، فلما نهض قال عمر : إنه مجوسى ! فقال عليه الصلاة والسلام : قد علمت ، ولكن جبريل يأمرنى أن أُكرم كل كريم قوم إذا أتى ، وهذا سيد قومه .

وركب زيد بن ثابت رضى الله عنه [1] ، فدنا منه عبد الله بن عباس يأخذ بركابه ، فقال : ماتفعل يا ابن عم رسول الله ؟ فقال . هكذا أُمِرْنا أن نفعل بأمرائنا [2] ، فقال زيد : أرنى يدكَ ، فأخذها وقبَّلها ، وقال : هكذا أُمرنا أن نفعلَ بأهل بيت نبينا .

---

(١) هو الصحابى العالم الجليل ، كاتب الوحى ، وجامع القرآن فى عهد أبى بكر وقال فيه أبو بكر : إنك شاب عاقل لا تتهمك ، وكان أحد فقهاء الصحابة الجلة الفراض — علماء المواريث — مات فى عهد مروان بن الحكم

(٢) ورد أن النبى صلوات الله عليه ، سلم زيدبن ثابت الراية فى إحدى الغزوات وأمره على الجيش فيها

الباب السابع

فى الشجاعة وعبقرياتهم فيها

وفى الصبر فى القتال

وسائر ما يتصل بالحرب

ودونك ما وقع عليه الاختيارُ من عبقرياتهم فى الشجاعة والصبر فى الحروب، وسائر ما ينعطف على هذه المعانى وينشعب به القول فيها

وأنت فقد علمت مما أسلفنا عليك فى باب الصبر أن الشجاعة لون من ألوانه . ومن ثم أردفنا القول على الأبواب السابقة — وهى جميعاً من ألوان الصبر — بالقول على الشجاعة وما إليها .

حقيقة الشجاعة

قالوا : الشجاعة : فضيلةٌ بين التهوُّر والُجبن .

وفى الأثر : الشجاعة غريزة يضعهَا الله فيمن يشاء من عباده.

وسُئِلَ بعضهم عن الشجاعة فقال : جِبِلَّةُ نفسٍ أبيَّة .

وقيل لبعضهم : ما الشجاعة ؟ فقال : صبر ساعة .

وقال بعض المجرّبين : الرجال ثلاثة : فارس ، وشجاع ، وبطل؛ فالفارس الذى يَشُدُّ إذا شَدُّوا ، والشجاع : الداعى إلى البِرَاز والُمجيب داعيَهُ ،

والبطل : الحامى لِظُهور القوم إذا ولّوا ...

ويروى أن زيادَ بن أبيه كتب إلى ابن عباس : أن صِفْ لى الشجاعة والجبن والجود والبُخــل ، فكتب إليه : كتبت تسألنى عن طبائعَ رُكِّبَتْ فى الإنسان تركيبَ الجوارح ، اعْلمْ أن الشجاع يقاتلُ عمن لا يعرفه ، والجبان يَفِرُّ عن عِرْسِه — زوجه — وأن الجواد يُعطِى من لا يلزمُه وأن البخيل يُمسِكُ عن نفسِه .

الأسباب المشجعة

قال الجاحظ : الأسباب المشجِّعَةُ قد تكون عن الغضب ، والشراب[1] والهوج[2] ، والغَـيْرَةِ ، والْحَمِيّة ، وقد تكون مرقوة النَّفْج[3] وحُبِّ الأُحْدُوثة ؛ وربمـا كان طبعاً ، كطبع الرحيم ، والسَّخِىِّ ، والبخيل ، والجزوع والصبور ؛ وربمـا كان للدِّين ، ولكن لا يَبْلُغ الرجلُ للدِّينِ مالم يُشَيِّعْهُ بعضُ ما تقدَّم ، لأن الدِّينَ مُجْتَلَبٌ مُكْتَسَبٌ ، ولا يكاد يبلغ الطَّبِيعَة .

وقالوا : لا يصْـدُقُ القِتالَ إلا ثلاثة : مُتَدَيِّنٌ ، وغَـيْرَان ، ومُمتَعِضٌ من ذُلّ .

(١) المراد : الخمر

(٢) الهوج : الطيش والحمق والتسرع

(٣) النفج : افتخار المرء بمـا ليس فيه .

حثهم على الثبات والإقدام

ونهيهم عن الإحجام والفكر فى العواقب

قال الله تعالى : (يا أيُّها الذين آمنوا إذا لَقِيتمُ الذين كفروا زَحْفاً فلا تُوَلُّوهم الأدبار) ... « زحفاً حال من الذين كفروا ، والزحف : الجيش الكثير الذى يُرَى لِكَثْرَته كأنه يَزْحَفُ ، : أى يدِبُّ دبيباً ، من زَحَفَ الصبي : إذا دب على آسْته قليلا قليلا ؛ سُمِّىَ بالمصدر ، والجمع : زُحُوف ، والمعنى : إذا لقيتُمُوهم للقتال وهم كثير متوافرون وأنتم قليل فلا تَفِرُّوا ، فضلا أن تُدَانُوهم فى العَدَد ، أو تُساوُوهم» ... وقال سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتم فئَةً فاثبُتُوا واذكُروا الله كثيراً لعلكم تُفْلِحُون ، وأطيعوا الله ورسولَه ولا تَنازَعُوا فتَفْشَلوا وتَذْهَبَ رِيحُكم واصبروا إن الله مع الصابرين) ... « إذا لقيتم فئة : إذا حاربتم جماعة ، فاثبُتُوا : لا تَفِرُّوا ، واذكروا الله كثيراً : اذكروه سبحانه فى مواطِن الحرب ، مُسْتَظْهِرِين بِذِكْرِه مُتَرَقِّبِين لِنَصْرِه ، وفى هذا إشعارٌ بأن على الإنسان أن لا يفْتُرُ عن ذكرِ ربه أشغلَ ما يكون قلباً وأكثرَ ما يكون همًّا ، وأن تكون نفسه مُجْتَمِعَةً لذلك وإن كانت مُتَوَزِّعَة عن غيره ، وفشِل يفشَل : ضَعُفَ وَجَبُنَ وذَهَبَتْ قُوَاهُ ؛ يقول سبحانه : إذا اختلفتم ضَعُفْتم وإذا اتفقتم كنتم أقوياء ، والريح : الدولة ، شُبِّهَت فى نفوذ أمرها وتَمَشِّيه بالريح وهبوبها ، ومن ذا يقال : هبَّتْ ريح فلان : إذا دالت له الدولة ونَفَذَ أمره »

وقال أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة :

احْرِصْ على الموت تُوهَبْ لك الحياة .

وقالوا : من فكَّرَ فى العواقِب لم يَشْجُعْ .

وقالوا : السلامةُ فى الإقدام ، والحِمَامُ فى الإحجام .

وتقول العرب : الشُّجَاعُ مُوَقًّى . «أى تتهيّبُهُ الأقران فيتحامَوْنه فيكون ذلك وقاية له»

واستُشِيرَ أكْثَمُ بن صَيْفِيّ فى حرب أرادوها فقال : أقِلّوا الخلاف لأمرائكم واعلموا أنَّ كَثْرَةَ الصِّياح من الفشل ، والمَرْءُ يَعْجِزُ لامحالة(١) وادَّرِعوا الليل فإنه أخْفَى للويل .

وقال هانئ بن مسعود الشيبانى يومَ ذى قار يُحَذِّرُ قومَه : إن الحذرَ لا يُنْجِى من القدر ، والصبر من أسباب الظفر ، والْمَنِيَّة ولاالدَّنِيَّة ، واستقبال الموت خير من استدباره ، والطعن فى ثُغَر النحور أكرم منه فى الأعجاز والظهور ، وهالكٌ معذور خير من ناجٍ فرور ...

وقال أبو مسلم الخراسانى لبعض قوّاده : إذا عرض لك أمرٌ نازعك فيه منازعان ، أحدهما يبعث على الإقدام والآخر على الإحجام ، فاقدُم ، فإنه أدرَكُ للثار ، وأنفى للعار .

وقالت الخنساء :

نُهِين النفوس وهَوْنُ النُّفو سِ يَوْمَ الكريهةِ أَوْقَى لها

وقيل للمهلب بن أبى صُفْرة : إنَّكَ لَتُلْقِى نفسك فى المهالك ، فقال : إنْ لمْ آتِ الموتَ مُسْترسِلا ، أتانى مُسْتَعْجِلا ، إنى لستُ آتى الموت من

(١) مثل معناه : لا تضيق الحيل ومخارج الأمور إلا على العاجز ، والمحالة : الحيلة

حُبِّه وإنما آتيه من بُغضه ، ثم تمثّلَ بقولِ الحُصَيْنِ بنِ الحُمام المُرِّى[1] :

تأخَّرْتُ أسْتَبْقِى الحياة فلمْ أجِدْ لِنفسى حياةً مِثْلَ أن أتقدَّما

« وهى أبيات مشهورة يقول فيها :

فلسنا على الأعقابِ تَدْمَى كلومُنا ولكن على أقدامنا تَقْطُرُ الدَّما

نُفَلِّقُ هاماً من رِجالٍ أعِزَّةٍ علينا وهم كانوا أعَقَّ وأظْلَمَا

« ومعنى تأخرت ... البيت : لمّا تأخرت طمع فىّ العدو ، وظنّنى جباناً فاجترأ علىّ ، لأن كل أحد يطمع فى الجبان ، ومن ثم كان القتل إلى الجبان أسرع ، فتقدمتُ ، فكان التقدمُ أنجى لى ، ويجوز أن يكونَ المعنى : أحجَمْتُ مُسْتَبْقِياً لحياتى ، فلم أجد لنفسى حياة كما يكون فى الإقدام وذلك أن الأُحدوثةَ الجميلة إنما تكون بالتقدم لا بالتأخُّر . ومعنى فلسنا على الأعقاب ... البيت : نحن لا نُوَلِّى فنُجْرَحَ فى ظهورنا فتقطُرَ دماؤنا على أعقابنا ، ولكنا نستقبل السيوف بوجوهنا ، فإن أصابتنا جِرَاحٌ تَطَرَتْ دماؤنا على أقدامنا ، وقوله نفلق هاماً ... البيت فالهام جمع هامة ، وهى : الرأس يقول : نُشَقِّقُ هاماتٍ من رجال يكرُمُون علينا ، لأنهم منا وهم كانوا أسبقَ إلى العقوق : ويقال : عَقَّ الرحم كما يقال : قطعها » .

وقال الكلْحَبَةُ اليربوعى — شاعر جاهلى — :

إذا المرءُ لمْ يَغْشَ الكريهة أوشكَتْ حِبَالُ الهُوَيْنى بالفَتَى أن تقطَّعَا

« الغشيانُ : الاتيانُ ، والكريهة . الحرب ، وقيل : شِدَّتُها ، وقيل النازلة ! وأوشكت : قاربت ودنت ، والحبال جمع حبل ، بمعنى : السبب ، استعير لكل شىء يُتَوَصَّلُ به إلى أمر من الأمور ، والهوينى : الخفض والراحة

(١) شاعر فارس جاهلى كان يقال له : مانع الضيم

والباء فى بالفتى : للمصاحبة فيكون حالا ، أو بمعنى عن فيتعلق بما بعدها وجاز لأنه ظرف ، وتقطّعا بحذف إحدى التاءين والفاعل ضمير حبال ، وقوله : بالفتى فقد كان يجب أن يقول بدل الفتى : به ، أو : بالمرء ولكنه عدل عن المضمر والظاهر إلى لفظ آخر لأنه أشبهَ المُضْمَر ، وقال ابن رشيق : قوله بالفتى حشو وكان الواجب أن يقول : به لأنَّ ذِكر المرءِ قد تقدم ، إلا أن يريد بالفتى معنى الزراية والأُطنوزة — السُّخْرية — فإنه محتمل . وهذا تَخَيُّلٌ دقيق من ابن رشيق »

المبادِر إلى الحرب غير مبال بها

قال البُحْتُرِيُّ :

تسرَّعَ حتى قال مَنْ شَهِدَ الْوَغَى   لِقاء أعادٍ أمْ لِقاءُ حَبَائِبِ

وقالوا : أشْجَعُ بيتٍ قالته العرب قول العباس بن مِرداس :

أشُدُّ على الكَتِيبَةِ لا أُبالى   أَحَتْفِى كان فيها أم سِواها

ووصف أعرابىٌّ قوماً فقال : ما سألوا قَطُّ كم القومُ ؟ وإنما يسألون : أين هم ؟

وسأل رجلٌ يزيدَ بنَ الْمُهَلّب فقال : صفْ لى نفْسَكَ ، فقال : ما بارزت أحداً إلا ظننتُ أن رُوحَهُ فى يدى ...

ولما بلغ قُتَيْبَةُ بنُ مُسلم حدود الصين قيل له : قد أوغلت فى بلاد التُّرْك ، والحوادثُ بين أجنحة الدهر تُقْبِلُ وتُدْبِر ! فقال : بِثِقَتِى بنصر الله توغّلْتُ ، وإذا انقضت المدة لم تنفع العُدّة ، فقال الرجل : اسلُكْ حيث شئت ، فهذا عزمٌ لا يَفُلُّهُ إلا الله ...

حث من دعى إلى المبارزة على الإجابة

قال على بنُ أبى طالب لبعض بنيه : لا تَدْعُوَنَّ أحداً إلى المبارزة ، ولا يَدْعُوَنَّكَ أحدٌ إلا أجبْتَه ، فالداعى باغ ، والباغى مصروع .

وقال طَرَفة بنُ العبد :

إذا القومُ قالوا : مَنْ فَتًى ؟ خلت أنَّنى
عُنيتُ فلم أكسَلْ ولم أتبَلَّدِ (١)

وقال بَشامَةُ بنُ حَزْنٍ النَّهْشَلى — شاعر إسلامى — :

إنَّا لَمِنْ مَعْشَرٍ أفْنَى أوائلَهُم قولُ الكماةِ : ألا أينَ المحامونا ؟
لو كان فى الألفِ مِنَّا واحدٌ فَدَعَوْا مَن فارسٌ خالهمُ إياه يعنونا

المنازل وقت المنازلة

قال زهير بن أبى سُلمَى من قصيدة يمدحُ هَرِماً :

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطادُ اللُّيوثَ إذا
ما اللَّيْثُ كَذَّبَ عن أقرانه صَدَقَا
يَطْعَنُهُم ما ارتَمَوْا حتى إذا اطَّعَنُوا
ضارَبَ حتى إذا ما ضارَبوا اعْتَنَقَا

« عَثَّرَ : موضع باليمن ، وقيل : مأسَدة بناحية تبالَة . وقوله : كذَّب أى لم يَصْدُقِ الحملة ، يقال : كذَّب الرجلُ عن كذا : إذا رجع عنه ،

(١) من معلقته ، يقول : إذا القوم قالوا : من فتى يكفى مهما أو يدفع شراً ؟ خلت أننى المراد بقولهم ، فلم أكسل فى كفاية المهم ودفع الشر ، ولم أتبلد فيهما .

يقول : إذا رجع الشجاع عن قِرنه ولم يَصْدُق الحملة عليه فهذا الممدوح يَصْدُقها . واعتنق : التزم قِرْنَه ، يقول : إذا ارتمى الناسُ فى الحرب بالنَّبل دخل هو تحت الرَّمْىِ بِحَملَ يُطاعِنُهم ، فإذا تطاعَنُوا ضارَبَ بالسيف ، فإذا تضاربوا بالسيوف اعْتَنَقَ قِرنه والتزمَهُ ، أى أنَّه يزيدُ عليهم فى كُلِّ حالٍ مِن أحوالِ الحرب »

صدرٌ من عبقرياتهم فى الصبر

من أحسن ما قيل فى الصبر يوم اللقاء قولُ نَهْشل بن حَرِّىِّ بن ضَمْرَةَ (١) :

ويوم كأنَّ المُصْطَلِينَ بحَرِّه ـ وإن لم تكن نارٌ ـ قيامٌ على الجمْر
صبَرْنا له حتى يبوخَ وإنما تُفَرَّجُ أيامُ الكريهةِ بالصبرِ

« باخت الحرب والنار تبوخُ بَوخا وبُؤوخا وبَوَخا : سكنت وفترت وكذلك الحَرُّ والغضب والحُمَّى »

وقال مَن لا أذكر اسمه :

بكى صاحِبى لما رأى الموت فوقَنا مُطِلاًّ كإطلال السحاب إذا اكْفَهَرْ
فقلت له : لا تَبْكِ عينُك إنما يكونُ غداً حُسْنُ الثناءِ لِمَنْ صَبَرْ
فما أخَّرَ الإحجامُ يوماً مُعَجَّلا ولا عجَّلَ الإقدامُ ما أخَّرَ القَدَرْ

(١) شاعر شريف مشهور من المخضرمين بقى إلى أيام معاوية وكان مع على فى حروبه ، وأبوه شاعر شريف وجده ضمرة ضخم الشرف وكان من خير بنى دارم ، دخل على النعمان بن المنذر فقال له : من أنت ؟ قال : أنا حمزة ، قال النعمان : تسمع بالمعيدى لا أن تراه ! فقال : أبيت اللعن ، إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، إن نطق نطق ببيان وإن قاتل قاتل بجنان الخ .

فآسَى على حالٍ يَقِلُّ بها الأسى وقاتَلَ حتى استَبْهَم الوِرْدُ والصَّدَرْ
وكَرَّ حِفَاظاً خَشْيَةَ العار بعدما رأى الموت معروضاً على منهج المَكَرّْ

وقال قَطَرِىُّ بنُ الفُجَاءَة : (١)

أقول لها وقد طارت شَعاعاً مِنَ الأبطالِ : وَيْحَكِ لَنْ تُرَاعِى
فإنَّكِ لو سـألتِ بقاءَ يومٍ على الأجلِ الذى لَكِ لن تُطاعِى
فصبراً فى مجالِ الموتِ صَبراً فمـا نَيْلُ الخُـلود بمُسْتَطاعِ
ولا ثَوبُ البَقاءِ بثَوب عِزٍّ فيُطْوَى عن أخى الخَنَعِ اليَرَاعِ
سـبيلُ الموتِ غايةُ كلِّ حىٍّ فداعيه لأهـلِ الأرضِ داعى
ومَن لا يُعْتَبَط يسأمْ ويَهْرَمْ وتُسلِمْهُ المَنُونُ إلى انقِطاعِ
وما لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فى حيـاة إذا ما عُدَّ مِن سَقَطِ المتـاعِ

« أقول لها ، أى للنفس ، والشَّعاع : المتفرق ، وهذا مثل ، ومعناه المبالغة فى الفزع ، ولن تراعى من الروع ، وهو : الفزع . يَذْكُر تشْجيعَه نفسه وتعريفَه إياها — بعد ما اسْتَشْعَرَتْ الفزَع — أن الأجلَ مُقَدَّر وأنَّ الزيادةَ لا تلحقه كما بين ذلك فى البيت التالى . وأخو الخنع : الذليل ، والخنوع : الذلة ، ولايكاد الخنوع يُسْتَعْمَل إلا فى ذلة فى غير موضعها ، واليراع : القصبةُ التى لا جوف لها ، والرجل الجبان لا قلب له ؛ فكأنه لاجوف له ، فوضع اليراع مكان الجبان ، لأنه بمعناه . والاعتباط : الموت من غير عِلة يقول : مَن لم يمُتْ شابًّا مات هرِما ، ويسأم : أى يسأم ما يعتريه من تكاليف

(١) فارس شاعر مشهور ، وشخصية ضخمة فى الإسلام ، كان رأساً من رؤس الخوارج ، وسلم عليه بالخلافة ثلاث عشرة سنة .

الحياة ولابُدّ أن تُسلِمَه المَنُونُ يوما إلى الانقطاع، أى لابد فى النهاية من الموت »

وقال عَمْرُو بنُ الإطنابة — شاعر جاهلى ، والإطنابة : أمه — :

أبَتْ لى عِفَّتى وأبَى بَلائى ... وأخذِى الحمدَ بالثَّمَنِ الربيحِ (١)

وإقدامِى على المكْروه نفسى ... وضَربى هامَةَ البَطَل المُشِيح (٢)

وقولى كلما جَشَأَتْ وجاشَتْ ... مكانَكِ تُحمَدِى أو تَسْتَرِيحِى (٣)

لِأَدْفَعَ عن مآثرَ صالحاتٍ ... وأحْمِى بعدُ عن عِرْضٍ صحيحِ

يروَى أنَّ معاوية قال : اجْعَلوا الشِّعْرَ أكبَرَ هَمِّكم وأكثر آدابِكم فإن فيه مآثر أسلافِكم ومواضِعَ إرشادِكُم ، فلقد رأيْتُنى ليلةَ الهرير وقد عزمتُ على الفِرَار فما ردّنى إلا قولُ ابن الإطنابة ، وأنشد الأبيات .

* * *

وقيل لبعض بنى المهلب : بِمَ نِلْتُم ما نلتُم ؟ قال : بصبر ساعة

---

(١) بلائى : بأسى فى الحروب ، واستعار الثمن لما يبذله فى المكارم على طريق التصريح ، والربيح الزائد منه

(٢) وإقدامى يروى : وإجشامى ، ويروى بدل هذا السطر

* وإعطائى على الإعدام مالى *

والهامة : الرأس ، والمشيح : المبادر المنكمش الجاد فى القتال ،

(٣) وقولى كلما جشأت وجاشت يروى * وقولى كلما جشأت لنفسى *

وهى رواية جيدة ومعنى : جشأت وجاشت : كلما تطلعت ونهضت جزعا وفزعا وعن بعضهم : جاشت نفسه : غثت أو دارت للغثيان : فإن أردت أنها ارتفعت من حزن أو فزع قلت جشأت . ومكانك اسم فعل أى : الزمى يانفس مكانك يحمدك الناس أن ظفرت أو تستريحى إن مت

الخدعة والحيلة والتحرز فى الحرب

قال سيدنا رسول الله : (الحرب خدعة) « خَدْعَة وخُدْعَة ، والفتح أفصح ، وخُدَعَة مثل هُمَزَة ، قال علماؤنا : ورُوِيت عن النبى صلى الله عليه وسلم : خَدْعَة ، ومعناها : من خُدِعَ فيها خَدْعَة فزلّتْ قدَمُه وعطِب فليس لها إقالة ؛ قال ابن الأثير : وخَدْعَة . أفصح الروايات وأصحها ، ومن قال خُدْعَة أراد . هىَ تُخْدع ، كما يقال : رجلٌ لُعْنَة : يُلْعَنُ كثيراً ، وإذا خدَعَ أحدُ الفريقين صاحِبَهُ فى الحرب فكأنما خُدِعت ؛ ومن قال : خُدَعَة أراد أنها تَخْدَع أهلها ، كما قال عمرو بن مَعْدِيكرب [1]

الحربُ أولَ ما تكون فَتِيَّةٌ تَسْعَى بزِينَتِها لكل جهول
حتى إذا استَعَرَت وشبَّ ضِرَامُها
عادت عجوزا غيرَ ذاتِ خليل
شمطاءَ جَزّتْ رأسها وتنكّرت مكروهةً للشَّم والتقبيل

وقالوا : إذا لم تغْلِبْ فاخْلُبْ « أى إذا أعياك الأمرُ مُغالبةً فاطْلُبْهُ مُخادعة » .

وقال بعضهم : كُنْ بحيلتك أوثَقَ منك بشِدَّتِك ، وبحذرك أفْرَحَ منك بنَجْدَتِك ، فإن الحرب حربٌ لِلْمُتَهَوِّر وغنيمةٌ لِلْمُتَحَذِّر

وقالوا : حازمٌ فى الحرْب خيرٌ مِن ألف فارس ، لأن الفارسَ يَقْتلُ عشرة وعشرين ، والحازمَ قد يقتلُ جيشاً بحَزْمِه وتدبيره .

---

(١) هو الفارس المشهور صاحب الغارات والوقائع فى الجاهلية والإسلام وهو صحابى رضى الله عنه .

وقالوا : القائد العظيم ينبغى أن تكون فيه خصالٌ من أخلاق الحيوان : شجاعة الديك ، وتحنّن الدجاجة ، وقلب الأسد ، وحَمْلَة الخنزير ، وروغان الثّعْلب ، وخَتْل الذئب ، وجمع الذَّرَّة ، وبكور الغُراب .

وقال المُهلَّب بنُ أبى صُفْرَة لِبنيه : عليكم فى الحرب بالمكيدة فإنها أبْلَغُ من النجدة ... وسُئِلَ بعضُ أهل التَّمَرُّس بالحروب : أىُّ المكايِدِ فيها أحْزَم ؟ فقال : إذْكاءُ العيُون ، — بَثُّ الجواسيس — وإفشاءُ الغَلَبة واستطلاعُ الأخبار ، وإظْهارُ السرور ، وإماتَةُ الفَرَق — الخوف — والاحتراسُ من البِطَانة ، منْ غير إقْصَاءٍ لمُسْتَنْصِح ولا اسْتِنْصَاح لمُسْتَغِش ، وإشْغَالُ الناس عمَّا هم فيه من الحروب بغيره .

وكان مالك بن عبد الله الخَثْعَمِىُّ وهو على الصَّائِفَةِ — الجماعة تُقام وتُصَفُّ للحرب — يقوم فى الناس — إذا أرادَ أن يرحل — فيَحْمَدُ الله ويُثْنى عليه ، ثم يقولُ : إنّى دَارِبٌ بالغَدَاةِ دَرْبَ كذا ؛ فيتفرَّقُ الجواسيس عنه بذلك ، فإذا أصبح سلك بالناس طريقاً غيرها ، فكانت الروم تُسَمِّيه : الثعلب ...

وقال حكيم : اللُّطْفُ فى الحيلة ، أجْدَى لِلْوَسِيلَةِ .

وقالوا : من لم يتأمل الأمر بعَيْنِ عقله لم يقع سيف حيلته إلا على مقاتله والتثبتُ يُسَهِّلُ طريق الرأى إلى الإصابة ، والعَجَلَةُ تَضْمَنُ العَثْرة .

«وبعد» فإن هذا الباب متسع جداً ، ومَن أحب التوسع فيه والوقوف على أخبارهم فى المكايد ، وأساليبهم العجيبة فيها فعليه بالموسوعات — مثل نهاية الأرب للنويرى ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، وبكتب التاريخ ، فتلك مجالاتها .

ما ينبغي أن يتصف به

أمراءُ الجيوش

من أجود ما قيل فيما ينبغي أن يتصف به أمراءُ الجيُوش قول لَقيط ابن يَعْمُرَ الإيادىّ — وهو شاعر جاهلى قديم مُقِلٌّ — كان كاتبا فى ديوان كسرى سابور بن هرمز الملقب بذى الأكتاف — وكانت إياد غَلبوا على سواد العراق ، وقتلوا من كان به من الفُرس ، فلما بلغ خبرُهم سابور أجمع على غزو إياد فكتب إليهم لقيط قصيدة ينذر قومه غزو سابور إياهم ، فوقع الكتاب بيد كسرى فقطع لسان لقيط وغزا إيادا وهى قصيدة جيدة جداً يقول فيها :

أَبلغ إياداً وخَلِّلْ فى سَرَاتِهِم ... إنِّى أرى الرأى إن لمْ أُعصَ قدنصَعَا(١)

ياَلهْفَ نفسىَ إن كانت أُمورُكُمُ ... شَتَّى وأُحْكِمَ أمْرُ الناس فاجتمعا

إنِّى أراكم وأرْضاً تُعْجَبُون بها ... مثلَ السفينةِ تغْشى الوعْثَ والطَّبَعَا(٢)

ألا تخافُونَ قوماً لا أبَالكُمُ ... أمْسَوْا إليكم كأمثال الدَّبا سِرَعا(٣)

---

(١) خلل فى سراتهم : خصص يقال : خلل فى دعائه ، أى خصص ، قال :

كأنك لم تسمع ولم تك شاهداً ... غداةَ دعى الداعى فعم وخللا

والسراة جمع سرى ، وقيل : اسم جمع والجمع سرواء وأسرياء وهم الأشراف أولوا المروءة ، ونصعا : وضح من نصع اللون نصوعا ونصاعة : اشتد بياضه

(٢) الوعث من الرمل : ماغابت فيه قوائم الدواب . والطبع فى الأصل : مايغشى السيف من الصدأ ، استعاره لما يعلو الماء من الغثاء والزبد ، شبه سرورهم وهم بأرضهم غير مفكرين فيما يحوطها وفيما يحفظها من العدو بالسفينة تغشى -وهى سائرة- ما يمنع حركتها ويصد جريتها

(٣) الدبى : الجراد قبل أن يطير ؛ وسرعا : مصدر سماعى لسرع سراعة وسرعة :

أبناءُ قوم تآيوكم على حَنَقٍ　　لا يشعرون أضلّ اللهُ أم نَفَعا[١]

أحرارُ فارسَ أبناءُ الملوكِ لهم　　من الجموع جموعٌ تزدهي القِلَعا[٢]

إلى أن يقول :

خُزرٌ عيونُهم كأنّ لحظَهمُ　　حريقُ غابٍ ترى منه السَّنا قِطَعا[٣]

لا الحرثُ يشغلُهم بل لايرونَ لهم　　من دون بيضتِكم رِيًّا ولا شِبَعا[٤]

وأنتمُ تحرُثون الأرضَ عن سَفَهٍ　　فى كل مُعتَمَلٍ تبغون مُزدَرعا[٥]

وتلبسون ثيابَ الأمنِ ضاحيةً　　لا تفزَعون وهذا الليثُ قد جَمَعا[٦]

إذا عجل ، يريد : أمسوا مسرعين

(١) تآيوكم : تعمدوكم وقصدوكم ، يقال : تآييته بوزن تفاعلته ، وتأييته ـ بالتشديد ـ إذا تعمدت آيته ، وآيته : شخصه .

(٢) تزدهى : تستخف ، وقد زهاه زهواً وازدهاه : استخفه وتهاون به . والقلع جمع قلعة ـ بالتحريك ـ : صخرة عظيمة صعبة المرتقى تنقلع عن الجبل

(٣) خزر عيونهم من الخزر ـ بالتحريك ـ وهو : ضيق الجفون لتحديد النظر ، والغاب جمع غابة وهى . أجمة القصب أو ذات الشجر المتكاثف ، سميت بذلك لأنها تغيب من فيها ، والسنا : ضوء النار ولمعان البرق

(٤) بيضتكم : مجتمعكم وموضع عزكم ، على المثل ببيضة الدجاجة إذا سلمت سلم مافيها من طعم أو فرخ ، وفى الحديث : ولا تسلط عليهم عدواً فيستبيح بيضتهم ، يريد : موضع سلطانهم ومستقر عزهم ، واستباحتها : استئصالها

(٥) معتمل : موضع اعتمال ، وهو أن يعمل الرجل لنفسه كاختدم إذا خدم نفسه وأنشدوا :

إن الكريم وأبيك يعتمل　　إن لم يجد يوماً على من يتكل

، أراد من يتكل عليه لحذف عليه هذه وزاد على متقدمة أى أنه يعتمل إن لم يجد من يتكل عليه

(٦) ضاحية : علانية

مالى أراكم نِياماً فى بُلَهْنِيَةٍ وقد تَرَوْنَ شِهابَ الحربِ قد سَطَعا [١]
فاشْفُوا غَليلى برَأْيٍ منكمُ حَصِدٍ يُصْبِحْ فؤادى له رَيَّانَ قد نقعا [٢]
ولا تكونوا كَمَنْ قد باتَ مُكْتَنِعاً إذا يُقالُ له : افْرُجْ غُمَّةً كَنَعا [٣]
يسْعَى ويحْسَبُ أنّ المالَ مُخْلِدُهُ إذا استفادَ طريفاً زادَه طَمَعا [٤]
فاقْنُوا جِيادَكمُ واحْمُوا ذِمارَكُمُ
واستشْعِرُوا الصَّبْرَ لا تستشْعِرُوا الجزعا [٥]

إلى أن قال :

لا تُلْهِكم إبِلٌ ليستْ لكم إبِلٌ إنّ العدوَّ بِعَظْمٍ منكم قرَعا [٦]
لا تُثْمِرُوا المالَ للأعداءِ إنهم إنْ يَظْهَرُوا يَحْتَوُوكم والبِلادَ مَعا

---

(١) بلهنية : رخاء وسعة عيش وغفلة من حوادث الدهر

(٢) الغليل فى الأصل : شدة العطش وحرارته ، أراد : شدة الحزن وحرارته وحصد - بكسر الصاد - : محكم ، من الحصد - بالتحريك - وهو فى الأصل : اشتداد فتل الحبال واستحكام الصناعة فى الأوتار والدروع ، وكذلك رأى حصيد ومستحصد ، و نقع الماء العطش : أذهبه وسكنه ، يحثهم على توحيد الرأى لا تختلف بهم الأهواء

(٣) مكتنعاً : منقبضاً مجتمعاً ، وكنع الرحل : تقبض واجتمع ، وقال ابن الأثير : جبن وهرب .

(٤) الطريف من المال : ما استطرفته واستحدثته كالطارف ، خلاف التليد والتلاد والتالد ، وهو : ماورثته عن الآباء قديما

(٥) فاقنوا جيادكم : الزموها ، والذمار : مايلزم حفظه وحمايته من مال وأهل وعشيرة ، واستشعروا الصبر : مستعار من استشعر الثوب : لبسه على شعر جسده ، وهو الشعار دون الدثار ، يقول : وطنوا أنفسكم على الصبر ولا تضمروا الجزع فى أفئدتكم

(٦) إن العدو الخ يريد : إن قرع العدو عظمكم ، والقرع : الضرب ، كنى بذلك عن إذلالهم وإهانتهم

والله ماانفكَّتِ الأموال مُذ أبَدٍ لأهلِها إنْ أُصيبوا مَرَّةً تَبعَا
يا قَوْمِ إنَّ لكم من إرْثِ أوَّلِكم مجداً قد آشْفَقْتُ أن يَفْنَى وَيَنقطِعا
ماذا يرُدُّ عليكم عِزُّ أوَّلِكم إنْ ضاعَ آخره أو ذَلَّ واتَّضعا
يا قوم لاتأمَنُوا إن كنتُم غُيُراً على نِسائِكُم كِسْرَى وما جَمَعَا (١)
يا قوم بَيْضَتُكُمْ لا تُفْجَعُنَّ بها إنى أخافُ عليها الأزْلَمَ الجَذَعا (٢)
هو الجَلاءُ الذى يَجْتَثُّ أصلَكُمُ فَمَنْ رَأى مِثْلَ ذا رأياً ومن سَمِعَا (٣)
قوموا قياماً على أمشاطِ أرْجُلِكُمْ ثم افْزَعوا قد ينالُ الأمْنَ مَنْ فَزِعا (٤)

ثم قال يصف أمير الجيش — وهو شاهدنا — :

وَقَلِّدُوا أمرَكُمْ للهِ دَرُّكُمُ رحبَ الذِّراع بأمْرِ الحربِ مُضْطَلعا (٥)

---

(١) غير - بضمتين - جمع غيور ، من الغيرة وهى : الحمية والأنفة

(٢) تقدم معنى البيضة آنفاً ، والأزلم الجذع فى الأصل : الوعل ، وهو تيس الجبل ، وذلك أن له زلمتين . وهما هنتان معلقتان فى حلقه ، وهو مادام حياً جذع لا تسقط له سن . استعير ذلك للدهر الشديد ، وذلك أن البلايا منوطة به تابعة له وأنه باق على حاله لا يتغير على طول إناه كأنه فتى لم تسقط له سن ، ومن كلامهم : أودى به الأزلم الجذع يريدون : أهلكه الدهر

(٣) يجتث أصلكم : يقتلعه ويستأصله ، ومعنى اجتث فى اللغة : أخذت جثته

(٤) أمشاط جمع مشط — بضم الميم — وهى : سلاميات ظهر القدم ، وهى العظام الرقاق المفترشة فوق القدم دون الأصابع ، وقوله : ثم افزعوا يريد : هبوا وانتبهوا كما يفزع النائم ، وكأنه من الفزع - الخوف - لأن الذى يهب وينتبه لايخلو من فزع ما

(٥) رحب الذراع كناية عن إطاقته وسعة قوته ، ومضطلع مفتعل من الضلاعة وهى قوة الأضلاع ، وقد اضطلع بحمله : قوى عليه ونهض به

لا مُتْرَفاً إنْ رَخاءُ العيشِ ساعَدَهُ ولا إذا عَضَّ مكروهٌ بِهِ خشَعا (١)
لا يَطْعَمُ النّوْمَ إلا رَيْثَ يَبْعَثُهُ هَمٌّ يكادُ شَباهُ يَفْصِمُ الضِّلَعا (٢)
مُسَهَّدُ النَّوْمِ تَعْنيهِ أُمورُكُمُ يرومُ منها إلى الأعداءِ مُطَّلَعا
مازال يحلُبُ هذا الدهرَ أشْطُرَهُ يكونُ مُتَّبِعاً طوراً ومُتَّبَعا (٣)
حتى اسْتَمَرَّتْ على شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ مُسْتَحْكِمَ الرَّأْى لا قَحْماً ولا ضَرَعا (٤)
وليس يَشْغَلُه مالٌ يُثَمِّرُه عنكم ولا وَلَدٌ يَبْغِى له الرِّفَعا

إلى أن قال :

---

(١) المترف : المتنعم المتوسع فى ملاذ شهواته

(٢) ريث يبعثه : مقدار مايبعثه ، يقول : لا يطعم النوم إلا يسيراً حتى يبعثه الهم الماضى ، والشبا جمع شباة وهى حد كل شىء وطرفه كحد السيف والسنان ، تخيل أن لهمه حداً ، ويفصم من الفصم ـ بالفاء ـ وهو أن ينصدع الشىء من غير أن يبين خلاف القصم ـ بالقاف ـ وهو كسر الشىء الشديد حتى يبين ، والضلع والضلع لغتان وهى : محنية الجنب

(٣) يحلب هذا الدهر أشطره يريد : خبر ضروبه ، يعنى أنه مر به خيره وشره وشدته ورخاؤه : تشبيها بحلب جميع أخلاف الناقة ما كان فيها حفلا وغير حفل ودارا وغير دار ، وأصله من أشطر الناقة ، ولها خلفان قادمان وآخران كأنه حلب القادمين وهما الخير والآخرين وهما الشر ، وكل خلفين شطر ، وجعل الأشطر موضع ـ الشطرين كما تجعل الحواجب موضع الحاجبين ، وقوله : يكون متبعاً طوراً ومتبعاً ، أى قد اتبع الناس فعلم ما يصلح به أمر الناس ، واتبع فعلم ما يصلح الرئيس ، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قد ألنا وإيل علينا ، أى : سسنا وسيس علينا فأصلحنا أمور الناس وأصلحت أمورنا ، وكل ذلك كناية عن جودة الرأى وإحكام الأمر

(٤) المريرة من الحبل : ماطال واشتدفتله والجمع المرائر ، واستمرت : استحكمت والشزر : الفتل ، ضرب ذلك مثلا لاستجماع قوته واستحكام عزيمته ، والقحم : الكبير المسن ، والضرع هنا : الصغير السن الضعيف

لقد بَذَلتُ لكم نُصْحِى بلا دَخَلٍ فاسْتَيْقِظُوا إنّ خير العلم ما نَفَعَا
هذا كتابى إليكم والنذيرُ لكم لمن رأى رأيَهُ منكم ومَنْ سَمِعا

ولما أوفد المُهَلَّبُ بن أبى صُفْرَة كَعْبَ بن مَعْدَان الأشقَرِىّ حين هَزَم عبدَ رَبِّه الأصْغَرَ وأجْلَى قَطَرِىَّ بنَ الفُجَاءة حتى أخرجه من كرمانَ نحو أرض خراسان إلى الحجاج بن يوسف ، قال له الحجاج : كيف كانت مُحَاربةُ المهلّب للقوم ؟ قال : كان إذا وجد الفُرْصة سارَ كما يَسُور الليث ،[1] وإذا دَهَمَتْهُ الطَّخْمَة[2] راغَ كما يروغ الثعلب ، وإذا مادّه القومُ صبرَ صبْرَ الدهر . قال : وكيف كان فيكم ؟ قال : كان لنا منه إشْفاقُ الوالد الحَدِب وله منا طاعة الولد البَرّ . قال : وكيف أفلتكم قطَرِى ؟ قال : كادنا ببعض ما كدناه به ، والأجَل أحْصَنُ جُنّة وأنفذُ عُدَّة . قال : فكيف اتّبَعْتُمْ عبد ربه وتركتموه ؟ قال آثرنا الحد على الفَلّ[3] ، وكانت سلامةُ الجُنْدِ أحَبَّ إلينا مِنْ شَجَبِ العدو[4] . فقال له الحجاج : أكُنْتَ أعْدَدْتَ هذا الجوابَ قبلَ لقائى ؟ قال : لا يعلمُ الغيبَ إلا الله ...

حثهم على التفكير قبل التقدم

قالوا : من قاتل بِغَيْرِ نجْدَة ، وخاصَمَ بغير حُجّة ، وصارع بغير قوة فقد أعظم الخطر ، وأكبرَ الغَرَر ... « الغرر : الخطر »

(١) سار : وثب وثار
(٢) الطخمة : جماعة الناس ، يريد جند العدو
(٣) الفل : القوم المنهزمون
(٤) الشجب : الهلاك

وقالوا :

إذا ما أردتَ الأمْرَ فاذْرَعْهُ كُلَّهُ وقِسْهُ قِياسَ الثَّوْبِ قبل التَّقَدُّمِ
لعلَّكَ تنْجُو سالما من نَدَامَةٍ فلا خَير فى أمرٍ أتى بالتندُّمِ

من يؤثر الموت فى العز
على الحياة فى الذل

قال المتنبي :

عِشْ عزيزاً أو مُتْ وأنت كريمٌ بين طَعنِ القنا وخفقِ البنودِ
فرُؤُس الرِّماح أذْهَبُ للغيْـ ـظِ وأشْفَى لِغِلِّ صَدْرِ الحَقودِ
لا كما قد حييتَ غيرَ حميـدٍ وإذا مُتَّ مُتَّ غيرَ فقيـدِ
فاطْلُبِ العِزَّ فى لَظى وذَرِ الذُّ لَّ ولو كان فى جِنانِ الخلود

وقال أبو تمّام :

يَرَى العَلْقَمَ المأدُومَ بالعِزِّ أَرْيَةً يمانِيَةً والأَرْىَ بالضَّيْمِ علْقَما (١)

ونظر عبد الله بن على العباسيّ إلى فتًى عليه أُبَّهَةُ الشَّرَف وهو يقاتل مُسْتَبْسِلًا (٢) ، فناداهُ : يافتَى ، لكَ الأمانُ ولو كنتَ مَرْوَانَ بن محمد ـ آخر الدولة الأموية ـ فقال : إلا أكُنْهُ ، فلسْتُ بِدُونِه ، قال : فلَكَ الأمانُ مَنْ كنت ؛ فأطرق ثم قال :

(١) المأدوم : المخلوط ، والأرية : واحدالأرى ، وهو : العسل ، وقلماتستعمل واحدة ، ووصفها باليمانية لأن النحل تعسل فى جبال الشراة وهى باليمن

(٢) المستبسل الذى يطرح نفسه فى الحرب : يريد أن يقتل أو يقتل لا محالة

أذلَّ الحياةِ وكُرْهَ المماتِ ... وكُلاًّ أراهُ طعاماً وَبيلا

فإنْ لم يكنْ غيرُ إحداهما ... فسيراً إلى الموت سيراً جميلا

ثم قاتلَ حتى قُتِلَ ؛ قال : فإذا هو ابن لمسلمة بن عبد الملك بن مروان .

نهيهم عن مخافة القتل
وحثُّهم على تصوز الموت
وتمدحهم بذلك

قيل لعليِّ بن أبى طالب : أتُقاتِلُ أهلَ الشام بالغداةِ وتظاهرُ بالعشِىِّ فى ثوب ورداء ؟ فقال : أبالمَوتِ أُخَوَّف ! والله ، ماأُبالى أسقَطْتُ على الموت أم سقط الموتُ علىَّ ! وكثيراً ماكان رضى الله عنه يتمثّل :

أىَّ يَوْمَىَّ مِنَ المَوتِ أفِرْ ... يَوْمَ لمْ يُقْدَرَ أمْ يَوْمَ قُدِرْ (١)

(١) هذا البيت من أبيات نسبها السيوطى فى شواهد المغنى لشاعر اسمه الحارث ابن منذر الجرمى ونسبها ابن سيده ـ اللسان مادة عفر ـ لشاعر آخر اسمه ضباب بن واقد الطهوى وقد أورد السيوطى بعده هذه الأبيات :

إنَّ أخْوَالى جميعا مِنْ شَقِرْ ... لَبِسُوا لى عَمَساً جِلْدَ النَّمِرْ

نحَتوا أثْلَتَنا بغْياً ولم ... يَرْهَبُوا غِبَّ الوَبَالِ المُسْتَعِرْ

فلئِنْ طَأطَأْتُ فى قَتْلِهُمُ ... لَتُهاضَنَّ عِظامى عن عُفُرْ

ولئِنْ غادَرْتُهُمُ فى وَرْطَةٍ ... لأصيرَنْ نُهزَةَ الذِّئب القَفِرْ

ولئن أعرضتُ عنهم بعدما ... أوْهَنَتْنى لتُصيبَنِّى بِقُـــرْ

وأورد ابن هشام وغيره هذا البيت هكذا :

يَوْمَ لم يُقْدَرَ لا أرْهَبُهُ ... ومِنَ المقدُور لا يُنْجِى الحَذَرْ

وقال المتنبي :

إذا غامَرْتَ فى شَرَفٍ مروم ... فلا تقْنَعْ بما دونَ النُّجوم

فطَعْمُ الموتِ فى أمرٍ صغيرٍ ... كطَعْمِ الموتِ فى أمرٍ عظيمِ

« يقول : إذا حاولتَ الشرف وخاطرت بنفسك فى سبيل الحصول عليه فلا تقنع بما دون أعلاه ، ولا ترْضَ باليسير منه ، فإن طعمَ الموت فى الأمر الهيّن كطعمه فى الأمر الصعب ، وإذن فلا سبيل للمغامر إلا أن يقصِدَ إلى أسمى الأمور »

وقال :

يرى الجُبَنَاءُ أن العجزَ عقْلٌ ... وتِلْكَ خديعةُ الطبعِ اللئيمِ

فى أى يومىّ من الموت أفر ... أيَوْمَ لَمْ يُقْدَرَ أمْ يوم قُدِرْ

بفتح راء يقدر شاهداعلىأن لمقد ينصب بها المضارع فىلغةوأوردابنهشام كلاماً لأئمة النحاة فى تخريج البيت على نصب يقدر ، راجعهفى المغنى فى الكلام علىلم ، وفى اللسان مادة قدر ، والآن لنشرح هذه الأبيات الجميلة فنقول : قوله : لبسوا لى عمساً جلد النمر ، فالعمس : الشدة يقول : أبطنوا لى العداوة ، وأثلة كل شىء : أصله ، ويقال : فلان ينحت أثلتنا : إذا قال فى حسبه قبيحاً ، وطأطأ فى قتلهم : أسرع واشتد ، وقوله

* لتهاضن عظامى عن عفر *

أى : عن بعد من أخوالىلأنهم وإن كانوا أقرباء فليسوا فىالقرب مثلالأعمام ، والورطة الأمر تقع فيه من هلكة وغيرها أو هى الهلكة ، ونهزة : أى صيد وفى الأصل : اسم للشىء الذى هو لك معرض كالغنيمة ، والفرصة تجدها من صاحبك ويقال : نهزة المختلس أى : هو صيد لكل أحد ، والذئب القفر : المنسوب إلى القفر ـ المفازة لانبات بها ولا ماء ـ وقوله : لتصيبنى بقر فإنه يقال للشدة إذا نزلت : صارت بقرّ أى : صارت الشدة فى قرارها ، وقال أبو عبيد : إنما هو مثل ، وربما قالوا : وقعت بقر . وقال ثعلب معناه : وقعت فى الموضع الذى ينبغى

وقال : مِن قطعة جيدة نوردها كُلَّها لبراعتها :

صَحِبَ الناسُ قبلَنا ذا الزَّمانا ... وعَنَاهُمْ مِن شأْنِه ماعنانا
وتَوَلَّوْا بغُصَّـةٍ كلُّهمُ منه ... وإن سَرَّ بعضَهمُ أحيانا
ربَّمَا تُحسِنُ الصَّنيعَ لياليـ ... ـه ولـكِنْ تُـكَدِّرُ الإحسانا
وكأنَّالم يَرْضَ فينابريبالدهـ ... ـر حتى أعانه من أعانا (١)
كلما أنبتَ الزمانُ قناةً ... ركَّبَ المرءُ فى القناةِ سِنانا (٢)
ومُرادُ النُّفوسِ أصغرُ مِن أن ... نتعادى فيه وأنْ نتفانا
غـيرَ أن الفتى يلاقى المنايا ... كالحاتٍ ولا يُلاقى الهوانا (٣)
ولوأنَّ الحياةَ تبقَى لِحَيّ ... لعدَدْنا أضلَّنا الشُّجعانا (٤)
وإذا لم يكن مِنَ الموت بُدٌّ ... فمن العَجْزِ أن تكون جبانا (٥)

---

(١) فى « يرض » ضمير هو فاعل يرض يفسره « من أعانا » وأضمره قبل الذكر على شريطة التفسير ، أو تقول : إن « من أعانا » فاعل يرض وأعانه على التنازع ، يقول : هذا الذى أعان علىّ الدهر كأنه لم يرض بما يصيبنى من محنه حتى أعانه علىّ كما قال الآخر :

أعان علىَّ الدهرَ إذ حَكَّ بَرْكَهُ ... كفى الدهرُ لو وكَّلْتَهُ بى كافيا

« البرك : كلكل البعير وصدره الذى يدوك به الشىء تحته »

(٢) القناة : عودالرمح ، والسنان : زجهالذى يطعن به يقول : إذا انتدب الزمان للإساءة بما جبل عليه صارت عداوة المعادى مدداً لقصده نحوك ، فجعل القناة مثلا لما فى طبع الزمان وجعل السنان مثلا للعداوة

(٣) كالحات : عابسات .

(٤و٥) يقول : لوكانت الحياة باقية لكان الشجاع الذى يتعرض للقتل أضل الناس ، يعنى أن الحياة فانية وإن جبن الإنسان ولزم عقر داره وحرص على البقاء ثم أكد هذا بالبيت التالى يقول : إذا كان الموت لا محيص عنه ولا ينجو منه شجاع ولا جبان فإن الجبن يكون من ضعف الهمة وعجزها .

كلُّ مالم يكن مِنَ الصَّعب فى الأنفُ

س سهلٌ فيها إذا هو كانا (١)

وبعثتْ بنو حنيفة بالفِنْدِ الزِّمَّانىّ (٢) حين طلبت بكرُ بنُ وائل إليهم يستنْصِرُونهم ، وقالوا ـ بنو حنيفة ـ : قد بعثنا إليكم ألف فارس ـ وكان يقال له : عديد الألف ـ فلما ورد قالوا له : أين الألف ؟ قال : أنا ، فلما كان الغدُ وبرزوا حمل على ألف فارس مُرْدَفٍ فانْتَظَمَهُمْ . . .

(١) كل : مبتدأ ومن الصعب خبرها وسهل خبر ثان ويكن تامة وكذا «كانا» يقول : إنما يصعب الأمر على النفس قبل وقوعه فإذا وقع سهل وهان كما قال البحترى :

لَعمْرُك ما المكروهُ إلا ارتقابُه وأبْرَحُ مِمَّا حَلَّ ما يُتَوَقَّع

(٢) الفند الزمانى ـ واسمه شهل بن شيبان بن ربيعة ... بن بكر بن وائل ـ شاعر جاهلى قديم ، وفارس من فرسان ربيعة المشهورين المعدودين ، شهد حرب بكر وتغلب وهو صاحب هذه الأبيات الحماسية المشهورة ، قالها فى حرب البسوس وإنا لنوردها هنا على شهرتها :

صفحنا عن بنى ذُهْلٍ وقلنا : القومُ إخوانُ

عسى الأيامُ أنْ يَرْجِعـ ـنَ قوماً كالذى كانوا

فلمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ فأمْسَى وهْوَ عُرْيانُ

ولم يَبْقَ سِوى العُدْوا نِ دِنَّاهم كما دانوا

مَشَيْنَا مِشْيَةَ اللّيْثِ غَدَا والليثُ غَضْبَانُ

بِضَرْبٍ فيه توهينٌ وتَخْضِيعٌ وإقْرانُ

وطَعْنٍ كَفَمِ الزِّقِّ غَذا والزِّقُّ مَلآنُ

وبعضُ الحِلْمِ عند الجهـ ـلِ لِلذِّلَّةِ إذعانُ

... ...

وفى الشر نجاةٌ حـ ينَ لا يُنْجِيك إحسانُ

« الصفح : العفو ، ويقال : أعرضت عن هذا الأمر صفحا : إذا تركته ، ويقال : أصفحت عنه كما يقال : أضربت عنه ، ويقال : أبدى لى صفحته : إذا أمكنك من نفسه يقول : صفحنا عنهم فلم نؤاخذهم بما كان منهم لأنهم إخوتنا عطفتنا عليهم الرحم . ويرجعن : يرددن ، يقال رجع فلان ورجعت فلانا يقول : صفحنا عنهم للرحم فعسى أن تردهم الأيام إلى ما كانوا عليه من قبل من التوادّ . وصرح الشر : انكشف ويقال صرح الشئ : إذا كشفه وصرح هو ، كما تقول : بين الشئ وبين هو : أى تبين وقيل : صرح : خلص ، شبهه باللبن الصريح وهو الذى قد ذهبت رغوته وإذا ذهبت الرغوة فاللبن عريان ، وقوله : فأمسى وهو عريان ، أى منكشف لا يستردونه ، ويروى : فأضحى ، بدل فأمسى ، وهو أحسن وإن كان أصبح وأمسى وأضحى وظل يرادبها فى مثل هذا الموقع معنى صار . وقوله : دناهم كما دانوا : جواب لما فى قوله : فلما صرح الشر : أى فعلنابهم مثل فعلهم بنا . يقول : صفحنا عنهم وقعدنا عن ضربهم وذكرنا الرحم والقرابة بيننا وظننا أن حالهم ترجع إلى الحسنى فلما أبوا إلا الشر ركبناه معهم وقوله : مشينا مشية الليث يروى :

« شددنا شدّة الليث » وعلى هذه الرواية يكون عدا بدل غدا

وتوهين تفعيل من الوهن وهو الضعف ، وتخضيع تفعيل من الخضوع وهو الذل والأقران : اللين والاسترخاء ، والباء فى بضرب تتعلق بمشينا أى مشينا بضرب فى ذلك الضرب تضعيف للمضروب وتذليل ، قال بعض النقاد . والأجود أن يقول ما معناه : بضرب يفلق الهام ويبتر العظم مثلا فأما أن يقول : ضرب يوهى ويرخى فإن أدنى الضرب يوجب هذا ، وإذن فمن الجائز أن يكون المعنى : فيه توهين وصوت فى القطع وكسر العظام ويكون معنى إقران : غلبة أو مواصلة لا فتور فيها ويكون تخضيع من الخضعة وهو اختلاط الصوت فى الحرب ، ويروى البيت :

بِضَرْب فيه تفْجِيعٌ وتأيِيمٌ وإرنانُ

أى يفجع الأخ بالأخ والولد بالوالد ، والتأييم قتل الأزواج ، والإرنان : من الرنين وهو رفع الصوت بالبكاء . وغذا بالذال المعجمة : سال وصف الطعن بالسعة وذكر أن الدم يسيل من موضع الطعنة كما يسيل الماء من فم القربة

الجود بالنفس

وحب الموت فى الوغى

وأنفتهم من الموت على الفراش

قال أبو تمام :

يستعذبون مناياهم كأنهم لا ييأسون من الدنيا إذا قتلوا

وقال :

وحنّ للموت حتى ظنّ مبصره كأنه حنّ مشتاقا إلى وطن

لو لم يمتْ تحت أسياف العدا كرماً

لمات إذ لم يمتْ من شدّة الحزن

وقال :

قومٌ إذا لبسوا الحديد حسبتهم لم يحسبوا أنّ المنيّة تخلق

انظرْ بحيثُ ترى السيوف لوامعاً أبداً وفوق رؤوسهم تتألّق

وقال بشامة بن حزن النهشلى :

إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا ولو نسام بها فى الأمن أغلينا [1]

---

(١) يقول : إذا كان يوم الروع تقدمنا للقاء ، فإن ذهبت أنفسنا ذهبت رخيصة لأنا بذلناها بالإقدام ولم نمنعها بالإحجام ، ولكنها يوم الأمن غالية ، والألف فى «أغلينا» : للاطلاق ، والنون ضمير النفس ، ومعنى أغلين وجدت غالية وليس يريد أنهم مع الغلاء يمكنون منها بل المراد قطع المقدرة عنها كما قال القائل :

نعرّض للسيوف إذا التقينا نفوساً لا تعرّض للسباب

وكما قال الأجدع والدمسروق للفقيه .

وقال عبد الله بن محمد بن أبى عُيينة بن المهلب بن أبى صُفرة :

وإنّى من قوم كأن أنفسَهمُ بها أنفٌ أن تسكُنَ اللحمَ والدما

وقال عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى — شاعر إسلامى — : (١)

وما مات منّا سيّدٌ حتفَ أنفِه ولا طُلَّ يوماً حيثُ كان قتيلُ (٢)

لقد علِمَتْ نسوانُ همدانَ أنّنى

لهُنّ غداةَ الرّوعِ غيرُ بَذُول

وأبذُلُ فى الهيجاء وجهى وإننى له فى سوى الهيجاء غيرُ بَذُولِ

(١) تروى هذه الأبيات للسموأل بن عاديا اليهودى الجاهلى ، قال الخطيب التبريزى : وإذا كانت هذة الأبيات جاهلية - أى للسموأل - فتروى :

* وما مات منا سيد فى فراشه *

أى بدل * وما مات منا سيد حتف أنفه * أى لأن النبي صلى الله عليه وسلم هو أول من قال : مات حتف أنفه

(٢) قلنا : إن أول من قال : حتف أنفه هو سيدنا رسول الله ، قال ابن الأثير : هو أن يموت على فراشه ، كأنه سقط لا فه فات ، والحتف : الهلاك ، قال : كانوا يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه ، فان جرح خرجت من جراحته ؛ وعبارة غير ابن الأثير كما فى اللسان : إنما قيل للذى يموت على فراشه : مات حتف أنفه — ويقال : مات حتف أنفيه — لأن نفسه تخرج بتنفسه من فيه وأنفه ، قال : ويقال أيضاً : مات حتف فيه ، ومن قال : حتف أنفيه أراد سمى أنفه وهما : منخراه ، ويحتمل أن يراد : أنفه وفمه ، فغلب أحد الاسمين على الآخر ، وعبارة الخطيب التبريزى : والمعنى : كان حتفه - أى هلاكه - بأنفه ، أى بالأنفاس التى خرجت من أنفه عند نزوع الروح ، لا دفعة واحدة ، قال : ويقال : خص الأنف بذلك لأنه من جهته يتقضى الرمق وقوله :

* ولا طل يوماً حيث كان قتيل *

فانه يقال : طل دمه : إذا بطل ولم يطلب به يقول : لا يبطل دم قتيل مناوحاصل

تَسِيلُ على حَدِّ الظُّباتِ نُفُوسُنا ... ولَيْسَتْ على غيرِ الظُّباتِ تسيل [١]

وقال عنتَرَةُ :

بكَرَتْ تُخَوِّفُنى الحُتُوفَ كأنَّنى ... أصْبَحْتُ عن عَرَضِ الحتوفِ بمَعْزِلِ

فأجبْتُها : إن المنيَّةَ مَنْهَـلٌ ... لا بُدَّ أنْ أُسْقَى بكأسِ المَنْهَلِ

فاقْنَىْ حياءَكِ لا أبالَكِ وَاعْلَمى ... أنِّى امرؤٌ سأموت إن لم أُقتَلِ

إن المنيَّةَ لو تُمَثَّلُ مُثِّلَتْ ... مِثْلى إذا نزلوا بضَنْكِ المَنْزِلِ

« الحتوف : المكاره والمتالِف ، و « عن عَرَض » أى ما يَعرِض منها وبمعزل ، أى فى ناحية منعزلة عن ذلك ، و : منهل : مورد ، وقوله : فأقْنَىْ حياءك ، أى احفظيه ولا تُضيعيه ، والضنك : الضيق يقول : إن المنية لو خُلِقَتْ مِثالا لكانت فى مِثْلِ صورتى ...



وقال خالد بن الوليد وهو فى مرض الموت : لقد لَقِيتُ كذا وكذا زَحْفاً ، وما فى جسدى موضعُ شِبْرٍ إلا وفيه طَعْنَةٌ أو ضربةٌ أو رميةٌ ، ثم ها أنا ذا أموت على فراشى حتف أنفى ! فلا نامت أعيُنُ الجُبَناء ...

« وقد تقدم ذلك »

وقال المُفَضّلُ بنُ المُهَلَّب بن أبى صُفْرَةَ :

معنى البيت : نحن لانموت ولكن نقتل ، ودم القتيل منالا يبطل .

(١) نفوسنا : أرواحنا أو دماؤنا ، والظبات جمع ظبة : وهى حد السيف وفى إضافة الحد إلى الظبات إما أن يكون المراد بالظبات السيوف كلها ثم أضاف الحد إليها وأما أن تكون إضافة الحد إلى الظبات من إضافة البعض إلى الكل ويكون التقدير : يسيل على الحد من الظبات وتكون الظبات مضارب السيوف ، والمصراع الأول يدل على الشجاعة والثانى على العز والمنعة

هلِ الجودُ إلا أنْ تجودَ بأَنْفُسٍ ... على كل ماضِى الشفرَتين قضيبِ
ومَنْ هَرّ أطرافَ القنا خشيةَ الرّدى ... فليس لِمَجْدٍ صالحٍ بكسوبِ
وماهى إلا رَقْدةٌ تُورِثُ العُلَى ... لِرَهْطِكَ ماحَنّتْ رَوائمُ نِيبِ

« هر أطراف القنا يقال : هَرّ الشيء يَهِرّ — بالكسر والضم — هَرّا وهريراً : كرهه يقال : هَرّ فلانٌ الكأس والحربَ هريراً : أى كرهها قال عنترة :

حَلَفْنَا لهمْ والخيلُ تَرْدِى بنامعاً ... نُزَايِلكمُ حتّى تهِرُّوا العواليَا[1]
عَوَالِيَ زُرْقاً مِنْ رماحِ رُدَيْنَةٍ ... هَرِيرَ الكلاب يتقين الأفاعِيا

وقوله : وماهى إلا رقدة ... البيت قال المبرد : مأخوذ من قول أخيه يزيد بن المهلب ، وذلك أنه قال فى يوم العقر ، وهو اليومُ الذى قُتل فيه — : قاتلَ اللهُ ابن الأشعث — عبد الرحمن بن الأشعث — ماكان عليه لو غَمّضَ عينيه ساعةً للموتِ ولم يكن قتيل نفسه ... وذلك أن ابن الأشعثِ قام فى الليل وهو فى سَطْحٍ للبَولِ ، فزعموا أنه رَدّى نفسَهُ ، وغيرُ أهلِ هذا القول يقولون : بَلْ سَقَطَ منه بِسِنَةِ النوم . وقوله تُورِثُ العلى لرَهْطِك ، فالمعنى : تورث العلى رهطك؛ ومثله قوله تعالى : (إنْ كنتم للرؤيا تعبُرون) والنيب جمع ناب وهى : المُسنّة من الإبل سَمّوها بذلك حين طال نابها وعَظُم ، والروائم : العاطفات على أولادها »

---

(١) الرديان : ضرب من السير وهو أن يرجم الفرس الأرض رجماً بحوافره من شدة العدو ، وقوله : نزايلكم دو جواب القسم أى لا نزايلكم فحذف لا على حد قولهم تالله أبرح قاعداً : أى لا أبرح ، ونزايلكم : نبارحكم يقال : مازايلته : أى ما بارحته ، والعوالى جمع عالية : الرمح وهى مادون السنان بقدر ذراع

من يخوض الحرب
لا بُدّ أن يُوَطن نفسه على الموت

قالت الخنساء :

ومن ظَنَّ ممن يُلاقى الحروب   بأنْ لا يصابَ فقد ظَنَّ عجزا

وقالوا :   ☆ إنَّ الشجاعة مقرون بها العَطَبُ ☆ (١)

وقال تأبط شرًّا من أبيات اختارها أبو تمام فى حماسته :

ومن يُغْرَ بالأعداءِ لا بُدَّ أنَّهُ   سيَلْقى بهم مِن مَصْرَعِ الموت مَصْرَعا

فى القتل حياة

قال المهلب بنُ أبى صُفرة : ليس شىء أنمى من سَيْف ! ولقد صَدَق فما نال السيف أنمى عدداً وأكرم ولدا من ولد المهلب ... وقال الحجاج لامرأة من الخوارج : والله لأحصِدنَّكم حصْداً ، فقالت : أنت تحصد والله يزرع ، فانظر أين قُدْرَة المخلوق مع قدرة الخالق !

ومما يصحُّ أن يورد هُنا وإن كان من وادٍ آخر قوله تعالى : « ولكم

(١) من أبيات لشاعر جبان يكنى أبا الغمر :

أضحت تُشَجِّعُنى هندٌ وقد علمت   أن الشجاعةِ مقرون بها العَطَبُ

لا والذى مَنَع الأبصارَ رُؤْيَتَهُ   ما يَشْتَهِى الموتَ عندى من له أرَبُ

لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أضلَّ الله سَعْيَهُمُ   إذا دَعَتهم إلى نيرانها وثبوا

ولستُ مِنهم ولا أبغِى فِعالهُمُ   لا القتْلُ يُعجِبُنى منها ولا السَّلَبُ

في القِصاصِ حياةٌ يا أُولي الألباب » (١)

تأثير الخوف والمخوف منه

والموفى على الجماعة

قيل لعليّ بن أبي طالب : بِمَ غَلَبْتَ الأقران ؟ قال : بتمكُّنِ هَيْبَتي في قلوبهم ... وبعث أميرٌ في طلب قومٍ رَجُلًا ، فما لبث أن جاءه برجل أطولَ ما يكون ، فقال : كيف تمكنت منه ؟ فقال : وقع في قلبي أن آخذه ، ووقع في قلبِه أنه مأخوذ ، فنصرني عليه خوفُهُ وجُرْأتي ...

ونظر رجل إلى علي بن أبي طالب وقد شَتَّ العسكر ، فقال : قد عَلِمتُ أن مَلَكَ الموتِ في الجانب الذي فيه عليٌّ .

ومن المأثور عن المصطفى صلوات الله عليه قوله : « نُصِرت بالرُّعب مَسيرةَ شهر » ... قال ابن الأثير : كان أعداءُ النبي صلى الله عليه وسلم قد أَوْقَعَ الله في قلوبهم الخوفَ منه ، فإذا كان بينه وبينهم مسيرة شهر هابوهُ وفزِعوا منه .

---

(١) قال الزمخشري : كلام فصيح لما فيه من الغرابة ، وهو أن القصاص قتل وتفويت للحياة وقد جعل مكانا وظرفا للحياة ، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصاص وتنكير الحياة لأن المعنى : ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة ، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة ، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفني بكر بن وائل وكن يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر ، فلما جاء الإسلام شرع القصاص كانت فيه حياة أي حياة ، أو نوع من الحياة وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل ، لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص منه فارتدع سلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود فكان القصاص سبب حياة نفسين . . .

وقال المتنبي : ✿ ويستعظمون الموتَ والموتُ خادمُهْ ✿

وقال سلم الخاسر : ✿ كأنَّ المنايا جارياتٌ بأمره ✿

وقال الفرزذق :

تَلَمَّظَ السَّيفُ من شوقٍ إلى أنَسٍ

فالموتُ يَلحَظُ والأقدارُ تنتَظِرُ

أظلَّهُ مِنكَ حتفٌ قد تجلَّلَهُ حتى يُؤامِرَ فيه رأيَكَ القدرُ (١)

وقيل للأسكندر : إنّ في عسكر دارًا ألفَ مُقاتِلٍ ، فقال : إن القصّاب الحاذق وإن كان واحداً لا يَهُولهُ كثرة الغنم ... وقال شاعر :

فواحِدُهم كالألفِ بأساً ونجْدةً وألفُهُمُ للعُجْمِ والعُرْبِ قاهِرُ

وقال أبو تمام يمدح أبا سعيد الطائي ويذكر ما صنع بالخُرَّمِيَّة :

لَقِيتَهُم والمنايا غيرُ دافعة لِمَا أمَرْتَ به والمُلتقى كبَدُ (٢)

في موقفٍ وقَفَ الموتُ الزُّؤامُ به

فالمجدُ يوجَدُ والأرواحُ تُفتَقَدُ (٣)

مُستَصحِباً نيَّةً قد طالما ضَمِنَتْ لك الخُطوبَ فأوفَتْ بالذي تَعِدُ

ورُحْبَ صَدْرٍ لوآن الأرض واسِعةٌ

كوُسْعِهِ لم يَضِقْ عن أهله بلَدُ (٤)

صَدَعتَ جَريَتَهُم في عُصبَةٍ قُلُلٍ

قد صرَّح الماءُ عنها وانجلى الزَّبَدُ

---

(١) يؤامره : يشاوره فيأتمر وينفذ رأيه ويروى بدل رأيك : ربه

(٢) الكبد : الشدة والمشقة

(٣) الزؤام : الكريه أو السريع

(٤) رحب صدر : سعة صدر

مِنْ كلّ أرْوَعَ تَرْتاعُ المَنُونُ له
إذا تجرَّد، لا نِكْسٌ ولا جَحِدُ (١)
يَكادُ حين يُلاقى القِرْنَ من حَنَق
قبْلَ السِّنانِ على حوْبائِهِ يَرِدُ (٢)
قَلُّوا ولكنَّهُم طابُوا فأنْجَدَهم
جَيشٌ من الصبرِ لا يُحصَى له عَدَدُ

المتبرم بالحرب والسخرية منه

قال سعد بن مالك أحد سادات بكر بن وائل فى الجاهلية وفرسانها (٣)

يا بُؤْسَ لِلحَرْبِ التى وَضَعَتْ أراهِط فاسْتَراحوا

وهو من أبيات جيدة اختارها أبو تمّام فى حماسته وبعده :

---

(١) النكس : الضعيف ، والجحد : القليل الخير

(٢) الحوباء : النفس والجمع حوباوات

(٣) قال سعد هـذه الابيات فى حرب البسوس حين هاجت الحرب بين بكر وتغلب لقتل كليب واعتزل الحارث بن عباد وقال هذا أمر لاناقة لى فيه ولا جمل فعرّض سعد فى هذا الشعر بقعود الحارث . وهذا الحارث بن عباد كان من حكام ربيعة وفرسانها المعدودين ، وكان قد اعتزل حرب ابنى وائل ثم حدثت أمور أفضت به إلى خوضه هذه الحرب ، وهو القائل من أبيات :

قرِّبا مَربِطَ النَّعامَةِ مِنِّى لَقِحَتْ حَرْبُ وَائِلٍ عن حِيالِ
لمْ أكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا علم الله وَإنى بِحَرِّها اليَوْمَ صالى

ولما فعل ما فعل قال لسعد بن مالك : أترانى ممن وضعته ! — يشير إلى قول سعد : التى وضعت أراهط — قال سعد : لا ، ولكن لا مخبأ لعطر بعد عروس ، ومعناه : إن لم تنصر قومك الآن فلمن تدخر نصرك . . .

والحربُ لا يبْقَى لجَا حِمِها التَّخيُّل والمِراحُ
إلا الفتَى الصبّار فى النَّجَــدات والفَرَسُ الوَقاحُ
مَن صَدَّ عن نيرانهـا فأنا ابنُ قيسٍ لا بَراحُ
الموتُ غايَتُنا فــلا قصْرٌ ولا عنهُ جِمَاحُ
وكأنَّمَا وِرْدُ المنيــةِ عندنا ماءٌ ورَاحُ

« قوله يا بُؤْسَ للحرب ، أصـله : يا بُؤسَ الحرب ، فأُقحِمَت اللام بين المتضايفين ، يدعو على الحرب ويَذُمّ نكباتها سخرية ؛ ومعنى وضعت أراهط : حَطَّتْهُم وأسقطتهم فلم يكُن لهم ذكر ولا شرف فى هـذه الحرب فاستراحوا من مكابدتها كالنساء ، قال بعض الأعراب لرجل : إنه قد وضع المكارم فاستراح ، وقال رجل للأحنف : لا أبالى أهُجِيتُ أمْ مُدِحْت ، فقال : استرحتَ من حيث تَعِبَ الكرام ، وأراهط إما جمع أرهُط جمع رهط وإما جمع رهط على خلاف القياس ، والرهط : النفر من ثلاثة إلى عشرة ، والجاحم : المكان الشـديد الحرّ ، من جَحَمَت النار فهى جاحمة : إذا اضطرمت ، ومنه الجحيم ، والتخيل : التكبُّر ، من الخيـلاء . يقول : إنهـا لا تُبْقى على نخوة المنْخُوّ ، وذلك أنّ أولى الغَناءَ يتكرّمُون عن الخُيَلاء . ويختال المغرور فإذا جُرِّبَ فلم يُحمَد افتَضَح وسقط ، أو تقول مَن كان ذا خُيَـلاء ومرح ثم بُلى بالحرب شَغَلَتْه عن خُيَـلائه ومرحه . والمراح بكسر الميم : النشاط ، أى أنها تكفّ حدّةَ البَطِر النشيط ، وهذا تعريض بالحارث بن عباد بأنه صاحب خُيلاء ومرح . والصّبّار مبالغة صابر والنجدة : الشدة والبأس فى الحرب ، والوقاح : الفَرَس الذى حافره صُلْبٌ شديد ، ومنه الوقاحة .

وقوله : فأنا ابنُ قيس لا براح ، أى : أنا المشهور فى النجدة كما سمعت وأضاف نفْسه إلى جَدِّه الأعلى لشُهرَتِه به ، وجملة لا براح حال مُؤكدة لقوله : أنا ابن قيس كأنه قال : أنا ابن قيس ثابتاً فى الحرب ، والبراح مصدر بَرِح الشىء بَراحا : إذا زال من مكانه . وقوله : فلا تَصْرٌ هناك ولا جماح فالقصْر . الحبس ، والجماح مصدر جَمحَ : إذا انفلت وهَرِب يريد : لا يمكن حَبْسُ نفس عن الموت ولا مهربَ عنه . والورد : الورود وهو دخول الماء ، وقيل : حُضُوره وإن لم تدْخُله . »

وقال شاعر :

ما ذاقَ همًّا كالشُّجاع ولا خَلا بِمَسَرَّةٍ كالعاجِزِ المُتَوَانى

الممدوح بقوة نفسه دون جسمه

قال أبو تمام :

والصَّبْرُ بالأرْواح يُعْرَفُ فَضْلُهُ صبرُ الملوك وليسَ بالأجسامِ

وقال شاعر :

وإنى لَلْقَوِىُّ على المعالى وما أنا بالقوىّ على الصِّراع

وقال معاوية رضى الله عنه : ماكان فى الشُّبان شىء إلا وكان فىّ منه مُسْتَمْتَع ، إلا أنى لم أكن نُكَحَةً ولا صُرَعَة . « رَجُلُ نُكَحة : كثير النِّكاح — الوطء — ورجل صُرَعة : يصرع الناس »

وأورَد أبو تمّام فى حماسته لبعض الشعراء :

لا قُوّتى قُوَّةُ الراعى قلائِصَهُ يأوِى فيأوِى إليه الكلبُ والرُّبَعُ

مِنَّا الأناةُ وبعضُ القوم يحسَبُنا أنّا بِطاءٌ وفى إبطائنا سَرَعُ

« يقول : ليس غَنائى فى المُهِمّات غَناءَ الرعاء الذين سعيُهُم مقصور على ضم القلاص وحفظها فى مراعيها فإذا أوى إلى موضع أوى إليه كلبه الذى يحرسه ورُبَعه ، وهو ما نُتِجَ فى الربيع ، والسرع : السُّرعة »

القصد إلى العدى مجاهرة

قال السَّرِىّ الرَّفّاء : من أبيات يمدح بها سيفَ الدولة بن حمدان :

وَيَجعلُ بِشْرَهُ نُذُرَ الأعادِى فيَبْعَثُه جَنوباً أو شَمالَا
ولم يُنْذِرْهُمُ مِقَةً ولكِنْ تَرَفّع أن يُصِيبَهُمُ اغتيالا (١)

وأشار على الإسكندر المقدونىّ أصحابهُ أن يُبَيِّتَ الفُرْس (٢) ، فقال : ليس من الإنصافِ أن أجعل غَلَبَتِى سَرِقَة ...

المقاتل عن حريمه

لِيمَ الإسكَندرُ على مُباشَرَتِهِ الحروب بنَفْسِه ، فقال : ليسَ من الإنصاف أن يَقْتُلَ قومى عنِّى وأَتْرُكَ القتال عنهم وعن أهلى ونَفسى ...

وقيل للحسن البَصرىّ : يا أبا سعيد ، إنا نكون فى هذه البعوث والسرايا فنُصِيبُ المرأةَ من العدوّ ، وهى ذاتُ زوج ، أفَتحِلُّ لنا من قبْل أنْ يُطَلِّقَها زوجُها ؟ وكان الفرزدق حاضراً ، فقال الفرزدق : قد قلت أنا

(١) المقة : المحبة

(٢) تبييت العدو : أن يقصد فى الليل من غير أن يعلم فيؤخذ بغتة ، والاسم : البيات ، وأما قولهم : بيت الأمر فمعناه : دبره بليل قال تعالى : إذ يبيتون مالا يرضى من القول ، قال الزجاج : كل مافكر فيه أو خيض فيه بليل فقد بيت ، يقال : هذا أمر دبر بليل وبيت بليل ، بمعنى واحد .

فى مِثْلِ هذا شِعْراً ، وأنشد :

وذاتِ حَلِيلٍ أنكَحَتْها رماحُنا   حَلالًا لِمَنْ يَبْنِى بها ولم تُطَلَّقِ (١)

فقال الحسن : أصَبْتَ ، كنتُ أرى أنّكَ أشعَرُ منى فإذا أنت أفقهُ

قال ابن رشيق فى العمدة : وما أظُنّ الفرزدَقَ إلا أراد مذهب الجاهلية فى السّبايا ...

وقال زيادٌ الأعجمُ من كلمته التى يرثى بها المغيرةَ بن المُهَلَّب بن أبى صُفرة :

صفَّانِ مُختَلِفانِ حِينَ تَلاقَيا   آبا بِوَجْهِ مُطَلِّقٍ أو ناكِحِ

المستنكف من السلَب

قال أبو تمّام من بائيته المشهورة التى يهنئ فيها المعتصم بفتح عَمُّورِيَةَ :

إنّ الأُسودَ أُسودَ الغاب هِمَّتُها   يومَ الكريهةِ فى المسلوب لا السَّلَبِ

وقَتَلَ علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه رَجُلًا فأراد قَنبرٌ أن يأخُذَ سَلَبَه ، فقال : يا غلام ، لا تُعَرِّ فرائِسِى ... وقال عنترة فى معلقته :

هلَّا سألتِ الخيلَ يا ابْنَةَ مالِكٍ   إنْ كُنتِ جاهِلَةً بما لمْ تَعلَمِى (٢)

يُخْبِرْكِ من شَهِدَ الوقيعة أنّنى   أغْشَى الوغَى وأعِفُّ عند المَغْنَمِ

---

(١) يروى العجز هكذا :   * جهاراً بأيدينا ولمّا تطلق

(٢) الخيل يريد : الفرسان

الشبان والكهول فى الحرب

قال رجلٌ لآخر : لأغزونَّكَ بمُرْدٍ على جُرْد [١] ، فقال له : لألقينَّكَ بكهول على فُحول .

وقال المتنبي :

سأطلُبُ حقِّى بالقَنا ومشـايخٍ كأنهمُ مِن طُولِ ما التَثَمُوا مُرْدُ [٢]

ثِقالٍ إذا لاقَوْا خِفافٍ إذا دُعوا
كثيرٍ إذا شَدُّوا قليلٍ إذا عُدُّوا [٣]

وطَعْنٍ كأنَّ الطَّعْنَ لا طَعْنَ عِنْـدَهُ
وضَرْبٍ كأنَّ النار مِن حَرِّه بَرْدُ [٤]

---

(١) الجرد جمع أجرد والأجرد من الخيل : السباق .

(٢) يقول : سأطلب حقى بالرماح وبصحب لى لا يفارقون الحروب فلا يفارقهم اللثام ولا ترى لحاهم فكأنهم مرد ، واللثام فى الحرب عادة العرب لئلا تسقط عمائمهم وقال الواحدى : كنى بالقنا عن نفسه وبالمشايخ عن أصحابه يعنى : أنه يطالب حقه بنفسه وبغيره ، وأراد : أنهم محنكون مجربون ولذلك جعلهم مشايخ

(٣) مراده بكونهم ثقالا : شدة وطأتهم على العدو أو ثباتهم لدى اللقاء ، وكنى بالخفة عن سرعة الإجابة إذا دعوا للنجدة ، وبالكثرة عن سد الواحد مسد الجماعة أى أنهم على قلتهم فى العدد يغنون غناء السواد الأعظم

(٤) وطعن : عطف على القنا والضمير فى عنده يعود إلى الطعن الأول يقول : وأطلب حقى بطعن شديد كأن كل طعن غيره بالقياس إليه لا شىء ، وبضرب حار كأن حر النار بالإضافة إليه برد

إذا شِئْتُ حفَّتْ بي على كلِّ سابح
رجالٌ كأنّ الموت في فمِها شَهْدُ (١)

وهم يفضلون الشبّان على الكهول في الحروب ، وقد أورد الراغب في محاضراته أبياتاً عزاها إلى طاهر بن الحسين، في هذا المعنى (٢) ، والأبيات وإن كانت في معناها قد أصابت مقطع الحق والسّداد بَيْدَ أن معناها ليس من الجمال في شيء ومن ثَمَّ استَحْسَنّا أن نَنْثُرَها ونوردَها عليك منثورةً بألفاظنا مع المحافظة على المعنى ، وها كها : مِنْ صائب الرأى أن تَسْتَظْهِرَ في تدبير حَرْبِك بالشيوخ المُحَنَّكين الذين تمرّسُوا بالأيام حُلوِها ومُرِّها ، والذين تُذْكِي آراؤهم غَناءَ العمل ، وإياكَ أن تَغْشَى الوغَى إلا بحديثِ السِّنِّ مُقْتَبِلَ الشباب ، فإنّ الكهول الذين تنفَّس بهم العُمُر واقتربوا من مَناهِلِ الموتِ تراهم يتمثلون الموت أبداً بين أعيُنِهم خوفاً وجزعاً ، ومن جرّاء ذلك يجبُنون ، أما حديث السن فإنّ له شأواً بعيداً يُرِيغُه ، وآمالا عِراضاً يحاول تحقيقها ، ومن هنا كان جريئاً طموحاً بعيدَ مُرتقى الهمة فهو لا يبالي أسقط على الموتِ أم سقط الموتُ عليه ، لأن الموت ليس منه على بال ...

* * *

(١) في فمها أراد : في أفواهها فأوقع الواحد موقع الجماعة ، والسابح : الفرس السريع الجرى كأنه يسبح

(٢) هو والد عبد الله بن طاهر ، وكان من أكبر أعوان المأمون وهو الذي تولى محاربة الأمين حتى قتله وهو وإن كان أديباً يحب الشعر إلا أنه لم يرد له شعر فلعل هناك تحريفاً في المحاضرات ولعل الأبيات لابنه عبد الله بن طاهر الذي كان له شعر مليح .

العاجز أعاديه عن إصلاح ما أفسده وعكس ذلك

قال على بن جَبَلَة المعروف بالعَكَوَّك من أبيات يمدح بها أبا غانم حميد بن عبد الحميد الطوسى :

يَرْتُقُ ما يَفْتُقُ أعْدَاؤُه وليس يأسو فَتْقَهُ آسى [(١)]

فالناسُ جِسْمٌ وإمام الهدى رأسٌ وأنتَ العينُ فى الراسِ

وقال الكُمَيت :

لا يَهْدِمُ الناسُ ما تَبْنِى أكُفُّهُمُ مِن الفَعالِ ولا يَبْنُونَ ما هَدَموا [(٢)]

وقال أشْجَع السُّلَمِى من قصيدة يمدح بها جعفر بن يحيى البرمكى وزير الرشيد :

ولا يرفَعُ الناسُ مَن حَطَّهُ ولا يَضَعُون الذى يَرْفَعُ

وبعده :

تريدُ الملوكُ مَدَى جعفرٍ ولا يَصْنَعُون كما يَصْنَعُ

وليس بأوْسَعِهِم فى الغِنَى ولكِنَّ معروفَهُ أوسع

وهذا البيت الثالث من قول ابن زياد الأعرابى :

ولم يَكُ أكثَرَ الفتيانِ مالاً ولكن كان أرْحَبَهُمْ ذِرَاعا

---

(١) الرتق ضد الفتق وهو : لأم الفتق وإصلاحه ، ويأسو فتقه مجاز من أسا الجرح يأسوه : داواه . والآسى : الطبيب المداوى

(٢) الفعال : الفعل الحسن

وقال المتنبي :

لا يجبُرُ الناسُ عَظْماً أنتَ كاسِرُه ... ولا يهيضون عَظْماً أنت جابِرُهُ (١)

من تصحبه الطيور والسباع فى القتال

أولُ من وَصَفَ المحاربَ تَصْحَبُه الطيورُ والسباعُ ثِقةً بانتصاره ، وبالشِّبَع من فرائِسه : النابغة الذبيانى إذ يقول فى قصيدة له يمدح بها عمرو ابن الحارث الأصغر من ملوك غَسّان بالشام :

إذا ماغَزَوْا بالجيْشِ حلَّقَ فوقَهُم ... عصائِبُ طَيْرٍ تهتَدِى بِعَصائِبِ

يُصَاحِبْنَهُم حتى يُغِرْنَ مُغَارَهُم ... مِن الضارياتِ بالدِّماء الدَّوارِبِ

تَراهُنَّ خلفَ القومِ خُزْراً عيونُها ... جلوسَ الشُّيوخِ فى ثيابِ المرانِبِ

جوانِحَ قد أيْقَنَّ أنّ قبيلَهُ ... إذا ما الْتَقَى الجمعانِ أولُ غالب

لهُنَّ عليْهِم عادةٌ قد عرَفْنَهَا ... إذا عرِّضَ الخَطِّىُّ فوق الكواثِبِ

« العصائب : الجماعات . وقوله : يصاحبنهم يقول : تسير جماعاتُ الطير معهم كأنما تغير بإغارتهم على الأعداء ، وهذه الطيور من المتدربات الضاريات المولَعات بدماء القتلى . والخُزْر جمع أخزر وخزراء أى : ضيقة العيون خلقةً ؛ أو أنها تتخازر ، أى تقبض أجفانها ، لتُحَدِّدَ النظر ، وقوله جلوس الشيوخ ، أى أنها لَدى اشتداد القتال تقَعُ على أعالى الأرض والهضاب كأنها فى ريشها ووقوفها وتحديد النظر تترقَّبُ القتلى جالسةٌ جلوس الشيوخ إذا التفّوا بأكسِيَةِ المرانب يحَدِّدُون النظر إلى شىء بعيد ، والمرانب

---

(١) هاض العظم : كسره بعد الجبور

جمع مَرْنَبَانِىّ ، وهو الثوب المبطن بفراء الأرانب . وجوانح : مائلات للوقوع . والخطى : أى القنا المنسوبة إلى الخط - بلد بالبحرين - والكواثب — بالثاء المثلثة — جمع كاثبة ، وهى من جسم الفرس ما تحت الكاهل إلى الظهر بحيث إذا نُصِبَ عليه السرْج كانت أمام القَرَبُوسِ يضع الفارس عليها رُمْحَه مُسْتَعْرِضاً ، يقول : اعتادت الطير أنّ الرّماح إذا عُرِضت على الكواثِب كان ذلك لِرزْقٍ يُساق إليها . »

وقال أبو تمّام :

وقد ظُلِّلَتْ عِقْبانُ أعْلامِه ضُحًى بِعِقْبَانِ طيرٍ فى الدّماء نواهِلِ [1]

أقامَتْ مع الراياتِ حتى كأنها مِنَ الجيش إلا أنها لم تُقاتِلِ

وقالت جَنُوبُ أختُ عمْرٍو ذى الكَلْبِ ترثيه :

تَمْشِى النُّسورُ إليْهِ وهْىَ لاهِيَةٌ مَشْىَ العذَارَى عليهِنَّ الجلابيبُ

« الجلبابُ : ثَوبٌ أوْسَعُ من الخِمار دون الرداء تُغَطِّى به المرأة رأسها وقيل : المُلاءَةُ التى تَشْتَمِلُ بها ، ومعنى قوله وهى لاهية : أن النُّسور آمنةٌ منه لا تَفْرَقُهُ لكونه مَيِّتاً فهى تمشى إليه مَشْىَ العذارَى ، وأول هذه المرثِيَةُ :

كلُّ امرِئٍ بِطُوَالِ العيشِ مَكْذوبُ

وكلُّ مَن غالَبَ الأيامَ مغلوب

وقال المتنبى :

---

(١) العقبان الأولى جمع عقاب : الراية الضخمة ، والثانية جمع عقاب أيضاً : سباع الطير .

تَرَكْتَ جماجِمَهُم فى النَّقا . وما يتخلَّصْنَ لِلنَّاخِلِ (١)
فأَنْبَتَّ منهم ربيعَ السِّبَاع فأثْنَتْ بإحْسَانِكَ الشامِلِ

وقال :

سحابٌ مِن العِقْبانِ يزحَفُ تحتَها سَحابٌ إذا استَسْقَتْ سَقَتْها صوارِمُه

وقال فى صفة جيش وقد ألمَّ بهذا المعنى :

وذى لجَبٍ لا ذو الْجَناح أمامَه بناجٍ ولا الوحشُ المُثارُ بسالمِ (٢)
تمرُّ عليه الشمسُ وهى ضعيفةٌ تُطالعُهُ من بين ريش القشاعمِ (٣)
إذا ضوْؤُها لاقى من الطير فُرْجةً
تَدَوَّر فوق البَيْضِ مثل الدراهم (٤)

وقال :

يُطمِّعُ الطيرَ فيهم طُولُ أكْلِهُمُ حتى تكاد على أحيائهم تقعُ

---

(١) النقا : الكثيب من الرمل يقول : دست رؤسهم بحوافر الخيل فطحنتها وامتزجت بالرمل حتى لو نخل الرمل لم يتخلص من رؤسهم شىء ، ثم قال فى البيت التالى : تركتهم جزراً للسباع فأخصبت بكثرة القتلى فكأنك أنبت لها ربيعاً فلوقدرت السباع لأثنت عليك بما شملتها من إحسانك

(٢) اللجب : اختلاط الأصوات ، والمثار : الذى أثاره الخوف من مكمنه يقول إذا طار ذو الجناح وسايره فليس بناج لكثرة الرماة فى الجيش ، وإن ثار وحش أخذ

(٣) القشاعم : النسور يقول : تمر الشمس على هذا الجيش وهى ضعيفة من كثرة عقبانه التى تخيم عليه وتتبعه ولا ينفذ ضوؤها إليه إلا فى خلال النسور كما ذكر فى البيت التالى

(٤) البيض جمع بيضة وهى : الخوذة ، شبه ما يتساقط من الضوء فى فرج أجنحة الطير فوقه بالدراهم يقول لكثرة اشتباك الطير لا يصل إليه ضوء الشمس إلا من منافذ ضيقة فيقع مستديراً

وقال أبو نواس :

تتأيَّا الطيرُ غُدْوَتَهُ ثِقةً بالشِّبْعِ من جَزَرِهْ

« تأيَّا الشيء : قصد آيتَه ، أى شخصه . والجزَر: قِطَع اللحم »

عذر من يلبس الدروع

ونحوها فى الحرب والمستغنى بشجاعته ويقينه عنها

قال أبو تمّـام فى المستغنى بجلادته عن الدروع :

إذا رأوْا للمنايا عارِضاً لبِسُوا مِنَ اليقينِ دروعاً مالها زَرَدُ

وسُئِلَ بعضُ الأبطال : فى أىّ الجُنَنِ تحبُّ أن تلقى عدوّك ؟ قال: فى أجَلٍ مُستأخر ... وقيل لآخر : لو احترَسْت ! فقال : كفى بالأجل حارسا ...

ومما يؤثر فى كثرة لبس الدروع والاستعداد للحرب أبداً قول مسلم بن الوليد من قصيدته التى يمدح بها يزيدَ بن مَزْيدٍ الشيبانى وهو ابن أخى مَعْن ابن زائدة :

تراه فى الأمْنِ فى دِرْعٍ مُضاعَفَةٍ
لا يأمن الدّهرَ أن يُدْعَى على عجلِ

وبعده :

لا يَعْبَقُ الطّيبُ خَدَّيْهِ ومَفْرِقَهُ ولا يُمَسّحُ عَيْنَيْهِ من الكَحَلِ

يُروى أن عَمّهُ معنَ بن زائدة كان يُقدّمه على أولادِه فعاتبَتْه امرأته فى ذلك ، فقال لها : فأُريكِ ما تبسطينَ به عذرى ، ياغلام ، اذهَبْ فادْعُ حسّاساً وزائدة وعبدالله وفلاناً وفلاناً حتى أتى على جميع أولاده . إلخ ...

أن جاءوا فى الغلائل المُطَيَّبة والنِّعال السِّنْديَّة ، وذلك بعد هُدْأَةٍ من الليل ، فسلَّمُوا وجلسوا ، ثم قال مَعْن ، ياغلام ، ادع يزيدَ ، فلم يلبث أن دخلَ عَجِلاً وعليه سلاحُه ، فوضع رُمْحَه بباب المجلس ، ثم دخلَ ، فقال معنٌ له : ما هذه الهيئة يا أبا الزبير ، فقال : جاءنى رسولُ الأمير فسبق وَهْمى إلى أنه يُريدنى لِمُهِمٍّ فلبِسْتُ سلاحى وقلت : إن كان الأمر كذلك مَضَيْتُ ولم أُعَرِّج وإن كان غيرُ ذلك فنَزْعُ هذه الآلة علىَّ من أيسر الأشياء ، فقال مَعْن : انصرفوا فى حفظ الله ، فلما خَرَجوا قالت زوجته قد تبَيَّنَ لى عُذْرُكَ ، فأنشد مُتَمَثِّلاً :

نفْسُ عِصامٍ سَوَّدَت عِصاما وعلَّمَتْهُ الكَرَّ والإقداما
وصيَّرَتْهُ مَلِكاً هُماما

وإلى ذلك أشار مسلم بالبيتين المذكورَين : ويُروى : أن مُسْلِماً لمّا انتهى فى إنشاد هذه القصيدة إلى البيت الأول قال له يزيد الممدوح : هلّا قلتَ كما قال أعْشَى بكر بن وائل فى مدحه قيس بن معديكرب [(١)]

وإذا تجيءُ كتيبَةٌ مَلمومَةٌ شَهْبَاءُ يَخْتَلِبُ الكُماةُ نِزالَها [(٢)]
كنت الْمُقَدَّمَ غير لابِسِ جُنَّةٍ بالسيف تَضرِبُ مُعلِماً أبطالَها [(٣)]

---

(١) هذا قيس هو والد الأشعث بن قيس الكندى الصحابى

(٢) الكتيبة : القطعة العظيمة من الجيش ، وكتيبة ملمومة : مجتمعة مضموم بعضها الى بعض ، وشهباء : لما فيها من بياض السلاح والحديد فى حال السواد ، والكماة : الأبطال مدججين بالسلاح

(٣) رجل معلم : يعلم مكانه فى الحرب بعلامة جعلها لنفسه وهو شأن الشجعان وأبطالها مفعول تضرب .

فقال مسلم : قولى أحسن من قوله لأنه وَصَفَه بالخُرْق وأنا وصفته بالحزم . ويُروى مثل هذا لعبد الملك بن مروان مع كُثَيِّر عزة ...

تحريم الملاهى على المحارب

قال مُعاوية رضى الله عنه : ماذُقْتُ أيامَ صِفِّينَ [1] لحماً ولا حَلْواءَ بل آقتَصرتُ على الخبز حتى فرَغْتُ .

وكتَبَ عامِلُ اليمن إلى عبد الملك بن مروان فى وقت مُحاربته عبد الرحمن ابن الأشعَث : إنى قد وَجَّهتُ إلى أمير المؤمنين بجارية اشتريتُها بمال عظيم، ولم يُرَ مثلُها قطُّ ، فلما دُخِلَ بهـا عليه رأى وَجْها جميلا وخَلْقا نَبِيلا ، فأَلقَى إليها قَضيبا كان فى يده فنَكَّسَتْ لتأخُذَه ، فرأى جسما قـد بَهَرَه ، فلما هَمَّ بهـا أعلَمه الآذِنُ أن رسولَ الحجّاج بالبابِ فأذِنَ له ، ونحّى الجارية ، فأعطاهُ كتابا من عبد الرحمن ، فكتب إليه عبد الملك كتابا ، ثم باتَ يُقَلِّب كفَّ الجارية ويقول : ماأفَدْتُ فائدة أحَبَّ إلىّ منك ، فتقول : فما بالُك ياأمير المؤمنين وما يَمنَعُك ؟ فقال : يمنعُنى ماقاله الأخطلُ ، لأنى إنْ خَرَجْتُ منه كنتُ ألأَمَ العَرب :

قومٌ إذا حارَبوا شَدُّوا مآزِرَهم دونَ النِّساء ولو باتَتْ بأَطْهارِ

فما إليك سبيلٌ أو يَحْكُمَ اللهُ بينى وبين عدوِّ الرحمن بن الأشعَثِ ، فلم يَقرَبْها حتى قُتِل عبد الرحمن ، قول الأخطل ولو باتت بأطهار ،

---

(١) صفين : موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربى وأيام صفين : أيام الحرب بين علىّ بن أبى طالب وبين معاوية وكانت مدتها مائة يوم وعشرة أيام وكانت وقائعها تسعين وقعة وكانت فى سنة ٣٧ ﻫ .

يعنى : أنه يجتنبها فى طُهرها وهو الوقت الذى يَستقيم له غِشيانُها فيه

وفى هذا المعنى يقول الأعشى من كلمة له يمدح بها هَوْذَةَ بن على الحنفى :

وفى كلِّ عامٍ أنتَ جاشِمُ غَزوةٍ تَشُدُّ لأقصاها عزِيمَ عَزائِكا

مُوَرِّثَةً مالًا وفى الحىِّ رِفعةً لِمَا ضاعَ فيها من قُرُوءِ نِسائِكا

« جاشم اسم فاعل جَشِمَ الأمرَ — بالكسر — تكلَّفه على مَشَقَّة ، والعزيم كالعزيمة مصدر عزَم على الأمر : جَدَّ فى عَمَله ، والعزاء : الصبر يقول الأعشى : أنت فى كل عام تُكلِّف نفسَك الغزوَ واقتحام مكارِهه تشُدُّ وتُوَثِّقُ عزيمة صبرك لأقصاها ، أى أبعدِها وأعلاها ، أو غايتها ومُنْتَهاها ، وهذه الغزوات تُوَرِّثك مالا كثيراً بغنائمها ، ورفعةً لك فى الحىِّ . والقروء جمع قَرْء وهو : الطُّهر هنا ، وقوله تعالى : والمطلَّقات يتربَّصْنَ بأنفُسهنَّ ثلاثة قُروء اختلف العلماء فقال الحجازيون القروء : الأطهار ، وقال أهل العراق الحِيَض ، أما فى قول الأعشى فالقروء : الأطهار لاالحيض لأن النساء إنما يُؤْتَين فى أطهارِهنَّ لا فى حيضِهِنَّ فإنما ضاع بغزْوِه وغلبته عنهن أطهارُهُنَّ . هذا واللام فى قوله : لما ضاع فيها لام العاقبة مثلها مثل اللام فى قوله تعالى : وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلا لِيَعْبُدون ، وقوله تعالى : ليكون لهم عدوًّا وحَزَنا . هذا وقوله تعالى ثلاثة قروء قال الأصمعى : جاء هذا على غير القياس والقياس : ثلاثة أقْرُء ولا يجوز أن يقال : ثلاثة فلوس ، إنما يقال : ثلاثة أفلس فإذا أكثرت فهى الفلوس ، ولا يقال : ثلاثة رجال إنما هى ثلاثة رَجْلة ، ولا يقال ثلاثة كلاب إنما هى ثلاثة أكْلُبُ . وقال النحويون : فى قوله تعالى : ثلاثة قروء أراد : ثلاثة من القُروء »

طائفة من عبقرياتهم فى الصلح
والتحذير من الحرب

قال عز وجلّ : وإن جنحوا للسَّلم فاجْنَح لها . « السّلم : الصلح ، بفتح السين وكسرها ، وتُذكَّر وتؤنث » وقال : وإنْ طائفَتانِ من المؤمنين اقتَتَلوا فأصلحوا بينهما فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتِلوا التى تَبْغِى حتى تفِىء إلى أمرِ الله فإن فاءتْ فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسِطُوا إن الله يُحِبُّ المُقْسِطين . « نزلت هـذه الآية الكريمة فى قِتال حَدَثَ بين الأوْسِ والخَزْرَج فى عهده عليه الصلاة والسلام بالسَّعَفِ والنِّعال ، والجمع فى اقتتلوا باعتبار المعنى فإن كل طائفة جمع ، وبغت : تعدّت ، وتفىء : ترجع ، وأقسطوا : اعدلوا »

ومن كلامهم : الحربُ صَعْبةٌ مُرَّة ، والصلح أمْنٌ ومَسَرَّة

ومنه : إياك والمعاداة ، فإنك لنْ تعدمَ مَكْرَ حليم ، أو مُفاجأةَ لئيم .

ومنه : لا تَسْتَثِيروا السِّباعَ من مرابِضِها فتندَمُوا ، ودارُوا الناسَ فى جميع الأحوال

ومنه : الفِتنةُ نائمةٌ ، فمن أيقظها فهو طعامُها « الفتنة هنا : ما يَقَع بين الناس من القتال والحروب » .

وقال زهير بن أبى سلمى فى معلقته :

وما الحربُ إلا ما عَلِمتُمْ وذُقْتُمُ ... وما هو عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ
متى تَبْعَثوها تَبعَثوها ذَميمةً ... وتَضْرَ إذا ضَرَّيْتُمُوها فتَضْرَمُ
فتَعْرُككُمْ عَرْكَ الرَّحى بِثِفَالِها ... وتَلْقَحْ كِشافاً ثم تُنْتَج فتُتْئِمِ

فَتُنْتِجْ لكم غِلمانَ أَشْأَمَ كلُّهُمْ كأَحْمَرِ عادٍ ، ثمّ تُرْضِعْ فتَفْطِمِ
فتُغْلِلْ لكم ما لا تُغِلُّ لأهلها قُرًى بالعراقِ مِن قفيزٍ ودِرْهَمِ

إلى أن قال :

ومَن يعصِ أطْرَافَ الزّجاجِ فإنه يُطِيعُ العوالى رُكّبَتْ كُلَّ لهْذَمِ

« المرجم من الحديث : المقُولُ بطريق الظَّنّ لا عن تحقيق ، يقول : وما حديثى عن الحرب وتخويفكم أهوالَهَا بالحديث المُفْتَرى ، وإنما أنتم قد علمتم ويلاتِ الحرب وذقتموها فلا تقرَبوها ؛ وضَرِىَ يضْرَى : اشتد حرصُه والتضرية : الحمل على الضّراوة . وضَرِمَت النارُ تَضرَم : التهبت يقول : متى تهيجوا الحرب تهيجوها مذمومة ، أى تُذَمُّون على إثارتها ، ويشتد حِرْصها إذا حماتموها على شدة الحرص فيشتد حرها وتلتهب نارُها ، يحُثُّهم على التمسك بالصُّلح وينذرهم بسوء عاقبةِ إيقاد نار الحرب . وقوله : فتعرككم البيت ، فالعرك : الدلك ، والثفال : الجلد أو الخِرْقَةُ توضعُ تحت الرحى ليقَعَ عليها الطّحين ، والباء فى « بثفالها » بمعنى مع ، واللقاح : حمل الولد يقال : لَقِحَت الناقة تلْقَح : إذا حملت ، وتلقح كِشافاً : أى تلقح لقاحاً كِشافا ، بأن تحمِلَ فى عامَيْن مُتَوَالِيَيْن ، وتُتْئِم : أى تأتى فى كلّ مرة بتوْءَمَيْنِ ، يقول : إذا هجتم الحرب طحنتْكُم طحْنَ الرحَى الحبَّ مع ثِفالِهَا وتَطُول شِدَّتُها ووَيْلاتُها وتتولّدُ من جرّائها صنوف وضروب من الأهوال والشرور ، ومَثَلُها فى ذلك مثلُ الناقة تحملُ حَمْلين فى عامين متواليين ثم لا تلد إلا توءمين ، جعل إفناءَ الحرب إياهم بمنزلة طحن الرحى الحبّ وجعل صنوف الشر تتولد من الحرب بمنزلة الأولاد الناشئة من الأمهات وبالغ فى وصفها باستتباع الشر شيئين : أحدهما جعله إياها لاقحة كشافاً ،

والآخر إتآمها . وأشأم مصدر من الشؤم ، على وزن أفعل ، أو صفة لمحذوف ، وأحمر عاد : لقب لعاقر ناقة صالح عليه السلام نبيّ ثمود وأسمه قِدَار ، وكان عقره لهذه الناقة شؤماً على قومه ، ويريد بعاد ثمودَ إما توهّما وخطأً وإما لأن ثمود من عاد ، يقول : إن هذه الحرب تطول ويلاتها وشُرُورُها وتلتج لكم غِلمان شؤم أو غلمان أبِ أشأم شُؤمَ قِدار عاقر الناقة ، ثم تعيش هذه الغلمان فَتُرْضِعُهم الحرب وتفطِمُهم ، وكل ذلك كنايةٌ عن طول ويلات الحرب وطول شرورها . وقوله : فتغلل لكم ... البيت يقول : فتُغِلُّ لكم هذه الحرب ضروباً من الغَلّات ليست كغلات قُرَى العراق من الحب الذى يكال بالقفيز ، أو من ثمن الغلة وهى الدراهم ، يعنى : أن المضارّ المُتَوَلِّدَة من هذه الحرب تُرْبى على المنافع المتولدة من هذه القرى ، وكل هذا حثٌّ منه لهم على الاعتصام بعُرَى الصلح وزَجْرٌ عن إيقاد نار الحرب التى تالك أذاعيها وأهوالها . وقوله : ومن يعص ... البيت فالزِّجاج جمع زِجّ وهو الحديد المركب فى أسفل الرمح ، واللهذم : السنان الطويل يقول : مَن يعصِ أطراف الزِّجاج أطاع عوالى الرماح التى ركبت فيها الأسنة الطِّوال الحادّة والمعنى : مَن أبى الصلح ذلّلتْهُ الحرب وليّنته ، وكانت العرب إذا التقت فئتان منهم سدّدت كل طائفة منهما نحو صاحِبتها زجاج الرماح وسعى الساعون فى الصلح ، فإن أبتا إلا التمادِىَ فى القتال قلبتْ كل واحِدَة منهما الرِّماح واقتتلتا بالأسِنَّة . » وقال كثيِّر :

رَمَيتَ بأطرافِ الزِّجاجِ فلم يُفِقْ من الجهْلِ حتّى كَلَّمتْهُ نِصالُها

وخَطبَ بعضهم خُطبَةً طويلة لِصُلْح أمّة ، فقال له رجل : أنت مُذ اليوم ترعَى فى غير مرعاك ... أفلا أدُلّك على المقال؟ فقال : نعم ، فقال :

«أما بعد» فإنَّ الصُّلحَ بقاءُ الآجال، وحفْظُ الأموال، والسلام. فلمّا سمع القومُ ذلك تعانقُوا وتواهبُوا الديات.

وكتب سَلْمُ بنُ قُتَيْبَةَ بن مسلم إلى سعيد المُهَلّبي لمّا تحاربا بالبصرة:

خُذُوا حَظَّكُمْ مِن سِلْمِنا إنَّ حربَنا
إذا زَبَنَتْهُ الحربُ: نارٌ تَسَعَّرُ (١)

وإنّى وإيّاكم على ما يَسُوءُكم
لمِثْلانِ أو أنتُمْ إلى الصُّلحِ أفقَرُ

وقال حكيم: دافِـعْ بالحرْب ما أمكن، فإنَّ النَّفَقَة فى كل شىء من الأموال، إلا الحرب، فإنَّ النفقـةَ فيها من الأرواح، عِلاوة على الأموال.

وقال النابغة الجعدىّ:

وتَسْتَلِبُ المـالَ الذى كان رَبُّها
ضَنِيناً به والحربُ فيها الحرائبُ

وقد تبعه أبو تمام فقال:

* والحرْبُ مُشْتَقَّةُ المعنى مِنَ الحَرَبِ *

«الحرَب: أنْ يُسْلَبَ الرجلُ مالَه»

وقال شاعر يُسَمَّى حلحلة بن قيس الكنانى (٢)

دعانى أشُبُّ الحربَ بينى وبينه
فقلت: لا، بل هَلُمَّ إلى السِّلْمِ

ومهلا عن الحرب التى لا أديمُها
صَحِيحٌ وما تنفَكُّ تأتى على سُقْمِ

فإنْ يظفَرِ الحِزْبُ الذى أنت مِنْهُمُ
وآبوا بِدُهْمٍ من سِبَاءٍ ومن غُنْمِ

(١) زنبته: دفعته وصدمته، وحرب زبون: شديدة يدفع بعضها بعضاً من الكثرة.

(٢) هذه الابيات تراها كاملة فى حماسة البحترى

فلا بُدَّ من قتلَى لعلَّك فيهمُ ... وإلا فجُرحٌ ليس يَكْنِي عَنِ العظْم[1]

فلما أبى أرسلْتُ فضلَةَ ثَوْبِهِ ... إليه فلم يرْجع بعزم ولا حزم

فلما رَمانيها رَمَيْتُ سوادَه ... ولابُدَّ أنْ تَرمِي سوادَ الذي يَرْمِي

فبِتْنا على لحم من القوم غودِرَت ... أسِنَّتُنا فيـه وباتوا على لحْمِ

وكان صَرِيعَ الجهْل أولَ وَهْلَة ... فبُعْداً لهُ مختارَ جَهْلٍ على عِلْمِ

الحرب تصيب جانيها وغير جانيها

العرب تقول : الحرب غَشومٌ ، لأنها قد تنال غير جانيها .

وتقول : ✿ وليس يَصْلَى بنارِ الحرب جانيها ✿

✿ وأصبح مَن لم يَجْنِ فيها كذِي الذّنْب ✿ .

وقال الحارث بن عَبَّاد :

قرِّبا مَرْبِطَ النَّعامَةِ مِنِّى ... لَقِحَتْ حرْب وائلٍ عن حِيال

لم أكُنْ من جُناتِهـا عَلِمَ الله ... وإنى بِحَـرِّها اليومَ صالِ

قرِّباها بإنَّ كـفِّيَ رَهْنٌ ... أن تزولَ الجبالُ قبلَ الرجالِ

« النعامة : فرسه ، ولقِحَتَ : حَمَلَت ، وحرْبٌ لاقِحٌ : مَثَلٌ بالأنثى الحامِل ، وعَنْ حيال : بعْدَ حيال ، أى بعد أن لم تحْمِل ، وصلى بالنار : قاسَى حرَّها أو احترق بهـا »

وقال ابن الرُّوميّ :

رأيتُ جُناةَ الحرْب غيرَ كُفاتها ... إذا اختَلَفَت فيها الرماحُ الشواجِرُ

---

(١) ليس يكنى عن العظم لعله يريد : إن جروح الحرب ليست من الجروح المعروفة ولكنها جروح تصمى وتقتل

كذاك زِنادُ النارِ عَنْها بِنَجْوَةٍ ولكنها يَصْلَى صِلاها المَساعِرُ

« المساعر : جمع مسعر ، وهو : ما تحرَّكُ به النار من خشب ونحوه ، ومِسْعَرُ الحرب : مُوقِدُها »

الممتنع من الصلح

قال أبو زبيد الطائى — شاعر مخضرم ، كان فى الجاهلية مقيما فى أخواله بنى تغلب بالجزيرة ، وفى الإسلام منقطعاً إلى الوليد بن عُقبة بن أبى مُعَيط فى ولاية الجزيرة وولاية الكوفة ، ولم يزل به الوليد حتى أسلم ، وقد كان نصرانيا ؛ والأكثر على أنه مات على نصرانيَّته — :

بعثوا حَرْبَنا إليهم وكانوا فى مقامٍ لو أبصروا ورَخاء

ثم لمَّا تَشَذَّرَت وأنافَتْ وتَصَلَّوْا مِنْهَا كريه الصِّلاءِ

طَلَبُوا صُلْحَنا ولاتَ أوانٍ فأجبْنا أن ليس حينَ بَقاءِ

فاحَا اللهُ طالبَ الصُّلْحِ منَّا ما أطافَ المُبِسُّ بالدَّهْناءِ

«لو أبصروا فلَوْ للتمنِّى ، ورخاء : عطف على مقام ، وتشذَّرت يقال : تشذَّر فلان إذا تهيأ للقتال ، وتشذر القوم فى الحرب : أى تطاولوا واشرأبُّوا ، وأنافت : زادت ، وتَصَلَّوْا : مِن صَلِيَ النار صَلًّا ، من باب تعب : قاسى حَرَّها ، والصِّلاء ككتاب : حَرُّ النار ، وطلبوا صلحنا : جواب لمَّا ، وقوله : ولاتَ أوانٍ فللنحويين فى تخريجها كلام كثير وأوجهُها أن أصلها : ولاتَ أوانَ صُلْحٍ ، حُذِفت الجملة وبُنِى أوان على الكسر ، وليس حين بقاء : أى ليس الحينُ حينَ بقاءٍ ، والبقاء : اسم من قولهم أبقيت على فلان إبقاء : إذا رحمته وتلطَّفت به ، والمشهور

أن الاسم منه ؛ البُقياء والبَقْوَى ، ولحا الله : أى قبَّحَ الله ، وما أطاف : فما مصْدَرية ظرفيـة ، وأطاف وطاف : بمعنى دارَ على الشىء ، والمُبِسُّ حادى الإبل ، وهو فى الأصل اسم فاعل مِن أبْسَسْتُ الإبل : إذا زَجَرْتَهَا والدهناء : موضع فى بلاد بنى تميم »

وقال الزِّبرقان :

فلَنْ أصالِحَهُم مادُمتُ ذا فَرَسٍ　　واشْتَدَّ قبضاً على الأسيافِ إبهامِى

ضارع يطلب الصلح

قال المتنبي :

من أطاقَ التماسَ شىء غِلاباً　　واغتصاباً لم يَلْتَمِسْه سُؤالا

التحذير من صغير يفضى إلى كبير

قال الفرزدق :

تَصَرَّم عنّى وُدُّ بَكْرِ بن وائِلٍ　　وما كادَ عنى وُدُّهُمْ يتَصَرَّمُ

قوارِصُ تأتِينى وتحْـتَقِرونها　　وقد يملأُ القَطْرُ الإناءَ فيُفْعَمُ

« يفعم : يمتلئ ، والقوارص جمع قارصة : الكلمة المؤذية »

وقال آخر :

ذروا الأمرَ الصغيرَ وزَمِّـلوهُ　　فتَلْقِيحُ الجليـل من الدقيـق

« زمّلوه : أخفوه »

وقال آخر :

قد يَحْقِرُ المَرْءُ مايهْوَى فيَرْكبُه　　حتى يكونَ إلى توريطِهِ سببا

وقال آخر:

إن الأمورَ دقيقها مما يَهيجُ به العظيمُ

ومن كلامهم: منَ الحبَّةِ تنْبتُ الشجرة العميمة؛ ومن الجمرة تكونُ النار العظيمة. والتُّمْرَةُ إلى التمرةِ تمر، والذَّوْد إلى الذودِ إبل.

و * أوّلُ الغيث قَطْرٌ ثمَّ ينسكِب *

و * كم بِذِي الأثْلِ دَوْحَةٌ من قضيب *

طائفة من عبقرياتهم فى التهديد والوعيد

قلة غَناء الوعيد

من أمثالهم: الصدق يُنْبئُ عنك لاالوعيد، أى: إنما يُنْبِئُ عدُوَّك عنك أن تَصْدُقَه فى القتال، لا أن تُوعِدَه ولا تُنفِذَ ما توعده به »

وقالوا: من علامات العاقل ترْك التهديد قبل إمكان الفُرَص، وعند إمكانها الوُثوبُ مع الثِّقة بالظَّفَرِ.

وقالوا: * إنّ الوعيدَ سلاحُ العاجزِ الحمِقِ *

« الحمِق: الأحمق »

وقالوا: * إن الكتائِبَ لا يُهزَمْنَ بالكُتُب *

من يتهدّد بظهر الغيب ولا يغنى غَناءً

قال عنترة فى معلقته:

ولقد خشِيتُ بأن أموت ولم تكن
للحَرْبِ دائرةٌ على ابْنَىْ ضَمْضَمِ

الشـاتمى عِرْضِى ولم أشْتِمْهُما والناذِرِين إذا لمْ ألْقَهمَا دمى

« الدائرة : اسم للحادِثة ، سميت بهـا لأنها تدور من خـير إلى شر ومن شر إلى خير ، ثم استعملت فى المكروهة دون المحبوبة ، والدائرة : الهزيمة. والسُّوء يقال : عليهم دائرة السّوء ، وفى الحـديث : فيجعل الدائرة عليهم ، أى الدولة بالغلبة والنصر ، وقوله سبحانه : ويتربصُ بكم الدوائر . قيـل : الموت أو القتل ، وقوله : والناذرين يقول : والموجبان على أنفسهما سفك دمى إذا لم ألقهُما ، يريد : أنهما يتوعّدانه حال غيبته أما فى حال حضوره فلا يتجاسران على ذلك »

وقال القَرْمَطِىُّ :

تَتَمَنَّانى إذا لم تَرَنِى فإذا جِئْتُ قَطَعْتَ القنطرهْ

يابنى العبّاسى مَنْ ينصُركم أصَبِيٌّ أم خَصِىٌّ أمْ مَرَهْ

وقال آخر :

كالصَّدَى يُسْمَعُ منه صَوتُه فإذا طالبْتَه لم يَسْتَبِن

« الصدَا : ما يُجيبُك من صوت الجبل ونحوه بمثل صوتك »

من لا يبالى بتهديده

قال جرير :

زعم الفرزدق أن سَيَقْتُل مِرْبَعاً

أبْشِرْ بطول سلامَةٍ يامِربَعُ

وقال مُقاتل بن مِسْمَع لعبّاد بن الحصَين : لولا شَىْءٌ لأخَذْتُ رأسك فقال : أجلْ ، ذلك الشىء سَيْفِى ...

وقال ابن أبي عُيَيْنَةَ :

فدَعِ الوعيدَ فما وَعيدُكَ ضائرى أطنِينُ أجنحةِ الذُّباب يَضيرُ

وقال الفرزدق :

ما ضرَّ تغلِبَ وائلٍ أهَجَوْتَها أمْ بُلْتَ حيث تناطحَ البَحْرانِ

وأبرَق رجلٌ لآخر وأرْعد فلما زاد أنشد :

قد هبَّتِ الريحُ طولَ الدهرِ واختلفت على الجبالِ فما نالتْ رواسيها

طائفة من عبقرياتهم

فى الهزيمة والخوف وأن الفِرارَ لا يَقِى من الموت

قال جل شأنه : قُلْ لَنْ ينفعَكم الفِرارُ إنْ فرَرْتم من الموتِ أو القتل وإذَنْ لا تُمتَّعون إلا قليلا . « يقول سبحانه : لن ينْفعَ الناسَ الفِرارُ فإنه لابدّ لكل شخص من حَتْفٍ أنف أو قتل فى وقتٍ معَيَّنٍ سبَق به القضاءُ وجرى عليه القلم ، ثم قال جل شأنه : وإن نفَعَكم الفرارُ مثلا فمُتِّعْتُم بالتأخير لم يكن ذلك التمتع إلا تمتيعاً وزمانا قليلا » . وقال سبحانه : أينما تكونوا يُدْرِكْكُمُ الموتُ ولو كنتم فى بُروج مُشيَّدةٍ . « البرُوج : الحُصون ، والمُشيَّدَة المرتفعة » .

وقال علىٌّ يوم الجمل : إن الموت طالِبٌ حَثيث ، لا يُعْجِزُه المُقيم ولا يَفوتُه الهارب ، وإنْ لم تُقتَلوا تموتوا ، وإنّ أشْرَفَ الموتِ القتلُ .

ومن أمثال العرب : فلانٌ أجرأُ من فارسِ خَصاف . ، وخَصافِ كقَطامِ فرَس قال النّسابون : كان مالكُ بن عمرو الغَسّانىُّ يقال له : فارس خَصاف ، وكان من أجْبَنِ الناسِ ، فغزا يوما ، فأقبلَ سَهْمٌ حتى وقَعَ

عند حافِرِ فرسِه فانغرزَ فى الأرض وجعل يَهتَز حيناً فقال : إن هذا السّهم سبباً ينجُبُه — يُحرّكه — فاختفى عنه ، فإذا هو قد وقع على نفق يَرْبوع فأصاب رأسه ، فتحرّك اليربوع ساعةً ثم مات ، فقال : هذا فى جوفِ جُحْرٍ جاءه سهمٌ فقتَله ، وأنا ظاهرٌ على فرسٍ ! ماالمَرْءُ فى شىء ولا اليربوعُ ، ولا أُقتلُ إلا بأجلى ، ثم شدَّ عليهم فأنكى فى القوم ، فكان بعد ذلك من أشجعِ الناس ... وكان معاوية يتمثّل بهذين البيتين كثيراً :

أكانَ الجبانُ يرى أنه سيُقتَلُ قبلَ انقضاء الأجلْ
فقد تُدْرِكُ الحادثاتُ الجبان ويَسْلَمُ منها الشجاع البَطَلْ

تفضيل القتل على الهرب

قال سُقراط لرجل هَرب من الحرب : الهرب من الحرب فضيحة ! فقال الرجل : شر من الفضيحة الموت ، فقال سُقراط : الحياة إذا كانت صالحة فسَلّمْ ، وإذا كانت رَديئةً فالموت أفضلُ منها .

ولما قتل الاسكندرُ المقدونىُّ ملكَ الهند قال لحكمائه : لِمَ مَنَعْتُم الملك من الطاعة ؟ قالوا : ليموتَ كريماً ولا يعيشَ تحت الذُّلّ .

الممتنع من الفرار

قالت امرأةٌ من عبد القيس :

أبَوْا أنْ يَفِرُّوا والقنا فى نُحورِهم ولم يَبْتَغُوا من خَشْيَةِ الموتِ سُلّما
ولو أنَّهمْ فَرُّوا لكانوا أعِزَّةً ولكن رَأَوْا صبْراً على الموتِ أكْرَما

« ولم يبتغوا يروى : ولم يرتقوا »

المعير بانهزامه

من كلام الحجّاج : وَلّيتُم كالإبلِ الشَّوارِد إلى أوطانِها ، النوازِع إلى أعطانِها ، لا يَلوِى الشيخُ على بنيه ، ولا يسألُ المرء عن أخيه ... وقال أبو تمام من قصيدته البائية التى يمدح بها المعتصم ويذكر فتح عَمُّورِيةَ وانهزام ملك الروم :

وَلّى وقد ألْجَمَ الخَطِّىُّ مَنْطِقَهُ بسَكْتَة تحتَها الأحشاءُ فى صَخَبِ [1]
أحْذَى قرابينَه صَرْفَ الرَّدى ومضَى يَحْتثُّ أنْجَى مَطاياهُ من الهرب [2]
مُوَكلاً بيَفاعِ الأرْضِ يُشرِفُهُ من خِفَّة الخوفِ لا من خِفَّةِ الطَّرَبِ [3]

وقال البحترى من أبيات يمدح بها أحمد بن طولون :

تخَطّى حُزُونَ الأرضِ راكبَ وَجْهِه ليمنَع منه البُعدُ ما يَبذُلُ القُربُ
ولو كان حُرَّ النفسِ والعيش مُدْبِرٌ لمات وطَعمُ الموتِ فى فمِهِ عَذْبُ

وقال أبو جعفر المنصور لبعض الخوارج : عَرِّفْنى : مَن أشَدُّ أصحابى إقداماً ؟ فقال : لا أعرفهم بوجوهِهم ، فإنى لم أرَ إلا أقفاءَهم ...

وقال ابن الرومىّ فى سليمان بن عبد الله بن طاهر :

قِرْنُ سُليمانَ قد أضرَّ به شَوقٌ إلى وَجْهِه سيُدْنِفُه
لا يَعرِفُ القِرنُ وَجْهَه ويَرى قفاه مِن فَرْسَخ فيَعرِفُه

وقال المتنبى لمَّا أوْقَعَ سيفُ الدَّولة ببنى عَقِيل وقُشير وبنى العجلان

---

(١) ولى : أى ملك الروم ، وألجم الخطى منطقه : أخرسه السيف

(٢) أحذى : أعطى ، وقرابينه : المقربون له جمع قربان وهو جليس الملك الخاص يقول : أن ملك الروم قدم المقربين إليه هدية للموت وفر على أحسن مطاياه وأنجها . (٣) اليفاع ما ارتفع من الأرض ، ويشرفه : يعلوه

وبنى كلاب ويذكر إجفالهم من بين يديه :

فلزّهمُ الطِّرادُ إلى قتالٍ أحدُّ سلاحهم فيه الفِرارُ
مَضَوْا مُتسابِقى الأعضاءِ فيه لأرؤسِهم بأرجُلهم عِثارُ

« لزّه إلى الشىء : ألجأه إليه وأدناه منه يقول : أحوجَهم طِرادُك إياهم إلى قتالٍ شديد لم يكن لهم سلاحٌ يدفعُه عنهم غير الفرار ، ثم قال فى البيت الثانى : لإسراعهم فى الهرب والهزيمة خوفا من القتل كانت أعضاؤهم كأنما يسابِقُ بعضُها بعضا ، الأرجلُ تسابِقُ الرؤس والرؤس تسابق الأرجل ، وكأنّ الرؤس تتعثّر بالأرجل حين تريد الرؤس الإسراع فتمْنَعها الأرجل » .

وقال زيد بن على بن الحسين حين خرج من عند هشام مُغْضَباً : ماأحَبَّ أحدٌ الحياة إلا ذلّ ، وتمثل :

شرّدَهُ الخوفُ فأزْرَى به كذاك مَن يكْرَهُ حَرَّ الجلاد
قد كانَ فى الموت له راحةٌ والموتُ حَتْمٌ فى رقابِ العِبادْ

« شرّده : جعله شريداً طريدا ويقال : شرّد به : إذا سَمّعَ به ، وأزرى به : قَصربه وحقره وهوّنه ، وحَرّ الجلاد : شِدّته ، والجلاد : القتال بالسيوف »

ترك اتباع المنهزم

قيل لعلى بن أبى طالب : أنت رجل مِحْرَبٌ وتركَبُ بغلة ، فلو اتخذْت الخيل ! فقال : أنا لاأفِرّ ممن كَرّ ولا أكُرّ على من فَرّ . « مِحْربٌ شديد الحرب شُجاع ، وكر على العدوّ يكُرُّ : عَطَف »

وأوْصى الإسكندر صاحبَ جيش له فقال : حَبِّبْ إلى أعدائك الهَرَب .

قال : كيف أصنع ؟ قال : إذا ثبتوا جِدَّ فى قتالهم وإذا انهزموا لا تتبعهم .
وعاتب الحجاج المهلّب بن أبى صُفْرة فى تركه اتباعَ الخوارجِ لمّا انهزموا ، فكتب إليه : أما علمتَ أنّ الكلب إذا أجحر عقر ...
« أجحر : دخل الجُحْر » .

الفارّ وقت الفرار والثابت وقت الثبات

قالوا : الهربُ فى وقته خير من الصبر فى غير وقته .
وقالوا : من هرب من معركة فعرف مصيرَه إلى مستَقرِّه فهو شُجاع .
وقال معاوية يوماً : لقد علِمَ الناسُ أنّ الخيل لا تجرى بمثْلى ، فكيف قال النجاشىُّ : (١)

ونجّى ابنَ حَرْبٍ سابقٌ ذو عُلالةٍ أجَشُّ هزيمٌ والرِّماحُ دَوانِى (٢)

فقال عمرو بنُ العاص له : لقد أعيانى أنْ أعلمَ أجبانٌ أنت أم شجاع ؟ فقال :

شُجاعٌ إذا ماأمْكَنَتْنِىَ فُرْصةٌ وإلا تكنْ لِى فرصةٌ فجبانُ

وقال المهلّبُ بن أبى صُفرةَ : الإقدامُ على الهَلَكة تضييعٌ ، كما أن

---

(١) هو قيس بن عمرو بن مالك ... أحد بنى الحارث بن كعب ، نسب إلى أمه وكانت من الحبشة ، وكان من أشراف العرب ، إلا أنه كان فاسقاً ، وهو الذى أتى به على رضى الله عنه وهو سكران فى شهر رمضان ، نضربه ثمانين وزاد عشرين ، فقال : ماهذه العلاوة ياأبا حسن ؟ قال : لجرأتك على الله وشربك فى رمضان ، ولأن ولداننا صيام وأنت مفطر . وبيته هذا من أبيات تراها فى مجموعة المعانى طبع الجوائب
(٢) يقال لأول جرى الفرس : بداهته وللذى يكون بعده : علالته وفرس أجش : غليظ صهيل وهو مما يحمد فى الخيل . والهزيم من الخيل : الشديد الصوت

الإحجامَ عن الفرصةِ عجز .

وقال المتوكل الخليفة العباسى لأبى العيناء : إنى لأَفْرَقُ من لسانِك !
فقال : ياأمير المؤمنين ، الكريم ذو فَرَقٍ وإحجام ، واللئيم ذو وَقاحة وإقدم .

وقال الشاعر :

أُقاتِلُ حتى لاأرى لى مُقاتِلا وأنجو إذا غُمَّ الجبانُ من الكَرْبِ

المتفادى من حضور الحرب

والمحتجّ لانهزامه بالخوف من القتل

قيل لأعرابى : ألا تغزُو فإن اللهَ قد أنذرك ؟ فقال : والله إنى لأبغض الموتَ على فِراشى فكيف أمضِى إليه رَكْضاً !

ورأى المُعتصم الخليفة العباسى فى بعض مُتَنزَّهاتِه أسداً ، فنظر إلى رجل أعجبَه زِيُّهُ وقوامُه وسِلاحُه فقال له : أفِيك خيرٌ ؟ فعَلِم الرجل مُرادَه ، فقال : لا ، فقال : لا قَبَّح الله سِواك .

واجتازَ كِسْرَى فى بعض حُروبِه برَجُل قد استَظَلَّ بشجرة وألقى سلاحَه ورَبَط دابَّتَه فقال له : يانَذْل ، نحن فى الحرب وأنت بهذه الحالة ! فقال : أيُّها الملك ، إنما بلَغت هذه السِّنَّ بالتَّوقِّى ، فقال : زِه ، وأعطاه مالاً ...

وقيل لرجل : إنك انهزَمْت ! قال : غَضَبُ الأمير علىّ وأنا حىٌّ خيرٌ من أنْ يَرضى وأنا مَيْت .

وقال أبو دلامة :

قالوا : تقدَّم قلتُ : لستُ بفاعِلٍ أخافُ على فَخّارَتى أن تحطَّما

فلو كان لى رأسانِ أتلفتُ واحداً ولكنه رأسٌ إذا زالَ أعقما
ولو كان مُبتاعا لدَى السُّوقِ مثلُه فعلْتُ ولم أحفِل بأن أتقدَّما

وقال :

يقول لِيَ الأميرُ بغير نُصحٍ : تقدَّم حين جَدَّ بنا المِراسُ
ومالِي إن أطعْتُكَ من حياةٍ ومالى بعدَ هذا الراس راسُ

وقيل لجبان : لِمَ لا تُقاتِل؟ فقال : عند النِّطاحِ يُغلَبُ الكبشُ الأجمّ « الأجمّ : الذى لاقرْنَ له ، وهذا مَثل يُضرب لمن غلبه صاحِبُه بما أعدَّ له »

وقالوا : الشُّجاع مُلقًّى والجبانُ مُوَقًّى ، وقال البديع الهمذانى :

ماذاقَ هَمًّا كالشُّجاع ولا خَلا بمَسَرَّةٍ كالعاجِزِ المُتوانِى

وهرب سليمان بن عبد الملك من الطاعون فقيل له : قُلْ لَنْ ينفعَكم الفِرارُ إن فررْتم من الموت أوِ القتلِ وإذاً لا تُمتَّعون إلا قليلا . فقال ذلك القليلَ نُريد .

هارب يعتذر عن هربه

بأنه نَبْوَة أو قَدَر

قال زُفَر بن الحارث وقد فَرَّ يوم مَرج راهط عن رفيقَيه :

أيَذهبُ يومٌ واحدٌ إن أسأتُهُ بصالِحِ أيّامى وحُسْنِ بَلائيا
فلَمْ تُرَ مِنّى زَلَّةٌ قبلَ هذه فِرارى وترْكى صاحِبَيَّ ورائيا

وقديماً قال عمرو بنُ معديكرب — وكان قد فرَّ من بنى عَبْس :

وليسَ يُعابُ المرْءُ من جُبْنِ يومِه إذا عُرِفَتْ منه الشجاعة بالأمْس

وقد تقدَّمَ قول الشاعر الجبان :

قامتْ تُشجِّعُنى هندٌ فقلتُ لها : إنّ الشجاعةَ مقرونٌ بها العَطَبُ
لا والذى مَنَعَ الأبصارَ رُؤيتَه مايشتهى الموتَ عندى مَن له أرَبُ
للحرب قوم أضلَّ اللهُ سَعيَهُمُ إذا دَعَتهم إلى نيرانِها وَثَبُوا
ولستُ منهم ولا أهْوَى فِعالَهُمُ لاالقتلُ يُعجِبُنى منها ولا السَّلَبُ

وجاء فى كليلةَ ودِمنة : إن الحازمَ يكرَهُ القتالَ ماوَجَدَ بُدًّا منه ، لأن النفقة فيه من الأنفُس والنفقةَ فى غيره من المالِ . وفى هذا المعنى يقول أبو تمّام :

كم بينَ قومٍ إنما نَفقاتُهم مالٌ وقومٍ يُنفِقون نُفوسا

المتخلف عن قومه

قالوا : الشُّجاع يقاتِل من لايعرفُهُ ، والجبان يَفِرُّ من عِرسِه ، والجواد يُعطِى مَن لايسأله ، والبخيلُ يمنَع من نفسه . وقال الشاعر :

يَفِرُّ جَبانُ القومِ عن أمِّ نفسه ويَحمِى شجاعُ القوم مَن لا يُنَاسِبُهْ
ويُرزَقُ معروفَ الجوادِ عَدُوُّه ويُحرَم معروفَ البخيل أقارِبُهْ

وقال حسّانُ بن ثابت رضى الله عنه يُعَيِّرُ الحارث بنَ هِشام حين فرّ يومَ بدر :

إنْ كنتِ كاذبةَ الذى حَدَّثْتِنى فنَجوْتِ مَنْجى الحارثِ بن هِشام
ترك الأحِبّة أنْ يُقاتِلَ دونهم ونجا برأسِ طِمِرَّةٍ ولِجامِ
مَلأَتْ به الفَرْجَيْنِ فارْمَدَّتْ به وثَوَى أحِبتُهُ بشرِّ مُقامِ

« الطِّمرة : الفَرس الكثير الجرى ، والفرجان : مابين يديها ورِجْلِيها وملأتهما : ملأتهما جَرْيا . وارمَدّت : أسرعت ، وثَوَى : أقام »

وقال أبو تمام من قصيدة يمدح بها المعتصم ويذكر هزيمة بابك الخُرَّمِيّ :

ونجا ابنُ خائنَةِ البُعُولةِ لو نجا بِمُهَفْهَفِ الكَشْحَيْنِ والآطالِ
تَرَكَ الأحِبَّةَ سالِياً لا ناسِياً عُذْرُ النَّسِيِّ خِلافُ عُذرِ السّالي

« خائنة البعولة : كناية عن الزانية ، والكشحان : جانبا البطن من ظاهر وباطن ، والمهفهف : الضامر الدقيق ، والآطال جمع إطِل وإطْل كإبِل وإبْل : الخاصرة ، والنَّسِيّ : الناسي »

من نجا وقد استولى عليه الخوف

قال أبو تمّام من قصيدة يمدح بها أبا دُلَف ويذكر هزيمة بابك الخُرَّمي كذلك :

ظَلَّ القنا يَستقي من صفِّه مُهَجاً إمّا ثِماداً وإما ثَرَّةً خُسُفا
مِن مُشْرِقٍ دَمُهُ في وجهه بَطلٌ وواهِلٍ دمُه للرُّعب قد نُزِفا
فذاك قد سَقَيْتَ منه القَنا جُرَعاً وذاك قد سَقَيْتَ منه القَنا نُطَفا

« من صَفِّه : من صفّ بابك ، والمهج جمع مُهجة : دَمُ القلب . والثماد : الماء القليل ، والثرة : من قولهم : عينٌ ثَرَّة : كثيرة الماء ، والخُسُف جمع خَسِيف وخَسوف : البئر لا ينقطع ماؤها ، والواهل : الخائف جداً ، ونزف : ذهب دمُه ، وبطل إمّا قرأته بالرفع على أن دمه مبتدأ وبطل خبر ولك أن تقرأه بالخفض على أنه مردود إلى مُشرق ويكون دمه فاعل مشرق وقوله : فذاك ... البيت أراد أبو تمام أن يقول : البطل الذى دمه فى وجهه سقيتَ الرماح منه جُرعا ، أى كثيراً ، والجبان الذى طار دمه من

الفزع سقيت منه نطفاً أى قليلا ، وقد يميّز عن الكثير بالنطفة فيكون ذ الأولُ مراداً به الجبان والثانى مراداً به البطل »

وقيل لرجل تعرَّض له الأسد فأفلت منه : كيف حالُك ؟ قال : سَلِمْتُ غير أن الأسدَ خرأ فى سراويلى ...

وقالت امرأةٌ من بنى المُهلّب :

فإن ثبَتُوا فعُمْرُهُمُ قصيرٌ وإن هَرَبوا فعُمْرُهُمُ طويلُ

تسلية المنهزم

قال المتنبي يعتذر عن سيف الدولة فى هزيمة وقعت لجماعة من جيشه

قلْ للدُّمُستُقِ إنَّ المُسْلَمِينَ لكم خانوا الأميرَ فجازاهُمْ بما صنَعوا

وجدْتُموهم نِياماً فى دِمائِكُمُ كأنَّ قتلاكم إياهُمُ فَجَعُوا

لا تحسَبُوا مَن أسرْتُمْ كان ذا رَمَقٍ فليس يأكلُ إلا المَيِّتَ الضَّبُعُ

وإنما عرَّضَ اللهُ الجُنودَ بِكُمْ لِكَيْ يكونوا بلا فَسْلٍ إذا رَجَعُوا

فكلُّ غزوٍ إليكم بعدَ ذا فلَه وكلُّ غازٍ لسيفِ الدولةِ التَّبَعُ

« الدمستق : قائد جيش الروم ؛ و : المسلمين — بفتح اللام — : الذين أسلمهم سيف الدولة للعدو لتخاذلهم عنه ، وقوله : وجدتموهم ... البيت هو بيان لما صنعوا ، وقوله : فى دمائكم : أى فى دماء قتلاكم وذلك أنهم تخلّلوا قتلى الروم فلطخوا بدمائهم ، وألقوا أنفسهم بينهم تشبها بهم خوفاً من الروم ، ثم قال : كأنهم كانوا مفجوعين بقتلاكم فهم فيما بينهم يتوجعون لهم . وقوله : لا تحسبوا من أسرتم ... البيت ، يقول : ليس لكم أن تفخروا

بهؤلاء الذين أسرتم ولا تظنوهم كان فيهم رَمَق — بقيةُ حياة — وإنما هم أموات، من الجبن والخوف، وأنتم لِخِسَّتِكُم ودناءةِ نفوسكم لا تقدرون إلا على أمثالهم، كما أن الضبُع لا تفترس إلا الجثث الميِّتة. وقوله: وإنما عَرَّض الله ... البيت يقول: إنما خذل الله هؤلاء الجنود وجعلهم لكم عرضة ليطهر الله عسكر سيف الدولة من أمثالهم فيعودَ إليكم بجنود أبطال ليس فيهم فَسْلٌ ولا نذل. وقوله: فكل غزو إليكم ... البيت يقول فكل غزوة إليكم بعد اليوم تكون له لا عليه لأن الأدنياء من جنوده قد أُسروا ولم يبق إلا المختارون من الأخيار، وكل غاز تبع له لأنه سَيِّدَ الغزاة».

ولمّا انهزم بعض القوّاد دخلَ عليه بعض الأفاضل فقال: الحمدُ لله الذى نَظر لنا عليك ولم ينظر لك علينا، فقد تَقَدَّمْتَ للشهادة بجَهْدِك ولكن عَلِمَ اللهُ حاجتنا إليك فأبقاك لنا.

صدر من عبقرياتهم فى الجبن

قال سبحانه وتعالى: يحسَبُون كل صيْحَة عليهم هُم العدوّ ...

وقالت عائشة رضى الله عنها: إنّ لله خلقاً قلوبُهم كقُلوب الطَّيْر، كلما خَفقَتِ الريحُ خفقَتْ معها، فأُفٍّ للجُبَناء، أُفٍّ للجُبَناء.

ومما قيلَ فى الجبن من الشعر القديم قول القائل:

ولو أنها عُصْفُورَةٌ لَحسِبْتَها   مُسَوَّمَةً تدعو عُبَيْداً وأزْنَما

« يقول لو رأيت عُصفورة لحسِبْتَها من جُبْنِك خيلا مُسوّمة؛ وعبيد وأزنم: قبيلتان »

ومثله قول عُروة بن الورْد :

وأشجَعُ قد أدركتُهم فوَجدْتُهُم يخافونَ خطْفَ الطّيرِ من كلّ جانِبِ

وقال الآخر :

ملزِلتَ تحسَبُ كلّ شيءٍ بعدَهمُ خيلا تَكُرُّ عليهم ورِجالا

وقال ابنُ الرُّومى :

وفارِسٍ أجبَنَ من صِفرِدٍ يحُول أو يغورُ من صَفْرَهْ
لو صاح فى الليل به صائحٌ لكانت الأرضُ له طَفْرَهْ
يرحمُهُ الرحمنُ من جُبْنِهِ فيرْزُقُ الجندَ به النُّصْرَهْ

« الصِّفْرِد : طائر جبان يقال له : أبو المليح »

وقال أبو تمّام :

حيرانُ يحسَبُ سِجْفَ النّقْعِ من دَهَشٍ
طَوْدًا يُحاذِر أن ينْقَضَ أوْ جُرُفا

« السجف : الستر ، والنقع : غبار الحرب ، والطود : الجبل ، والجُرُف : جانب الجبل الأملس »

وقال دِعْبل :

كأنَّ نفْسَه مِن طُول حَيْرَتِها منها على نفْسِه يومَ الوغَى رَصَدُ

وأُتى الحجّاجُ برجلٍ من أصحاب ابن الأشعَثِ ، فقال للحجّاج : أسألك أن تقتُلَنى وتخلِّصَنى ، فقال له الحجاج : لِمَهْ ؟ فقال : إنى أرى كل ليلة فى المنام أنك تقتلنى ، وقِتْلَةٌ واحدَةٌ خير ، فضحِكَ وخلّى سبيلهُ .

من يظهر الشجاعة خارج الحرب

ويجبن فيها

قالوا : فلانٌ يتثعلبُ فى الهيجاء ويتنمَّر فى الرخاء .

وقال دِعْبل :

أُسودٌ إذا ماكان يومُ كريهةٍ ولكنهم يوم اللقاءِ ثعالبُ

وقال :

عَيرٌ رأى أسدَ العرينِ فراعَهُ حتَّى إذا ولَّى تولَّى ينهَقُ

وقال آخر :

يَفِرُّ بحيثُ تختلِفُ العوالى وإن يأمَنْ فذو كِبْرٍ وتِيهِ

عبقريات شتى

فى الشجاعة والحرب

قالوا : أحسن ماقيل فى وصف الحرب والمتحاربين قول الأول :

كأنَّ الأُفْقَ محفوفٌ بنارٍ وتحتَ النارِ آسادٌ تَزِيرُ (١)

ومما يتصل بذلك ماقيل فى ليالى صِفِّينَ :

الليلُ داجٍ والكِباشُ تَنْتَطِحْ نِطاحَ أُسْدٍ ما أَرَاها تَصْطَلِحْ

فمن يُقاتِلْ فى وَغاها مانجا ومن نجا برأسه فقد رَبِحْ (٢)

(١) تصيح غضباً . وأصله مهموز من زأر الأسد يزير وبزأر : صاح وغضب

(٢) فى أمثال الميدانى : قال أبو عبيد : وهذا الشعر أراه قيل فى ليالى صفين ثم

وكان يزيدُ بن عُمَرَ بن هُبَيرة والى العَراقين من قِبَل بنى أُمَيَّة لا يُمِدُّ نصرَ بنَ سيَّارٍ والىَ خُراسان من قِبَلِه بالرِّجال، ولا يَرْفَع ما يَرِدُ عليه من أخبار خُراسانَ إلى مَرْوان بن محمد آخر الدولة الأموية، فلما كَثُر ذلك على نَصر كتب إليه كتاباً وفيه هذه الأبيات:

أرى خَلَلَ الرَّمادِ وميضَ جَمْرٍ ويُوشِكُ أن يكونَ له ضِرَامُ[1]

فإنَّ النارَ بالعُودَينِ تُذْكَى وإنَّ الحرب أولها الكلامُ[2]

فإن لم يُطفِها عُقلاءُ قومٍ يكون وَقُودَها جُثَثٌ وهامُ

فقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ ليتَ شِعرى أأيقاظٌ أُمَيَّةُ أم نِيامُ

« قوله: وإنَّ الحرب أولها الكلام نحوُهُ قول بَعضِهم: إنَّ الفِتْنَة تُلقَحُ بالنَّجوَى وتُنْتَجُ بالشكوى ... »

ومما قيل فى كثرة الجيش من قديم الشعر قول الأخنس بن شهاب التَّغلِبى وهو ممن حضر حرب البسوس:

بِجأْوَاءَ يَنْفِى وِرْدُها سرَعانَها كأنَّ وميضَ البرْقِ فيها كواكِبُ

« الجأواء: الكتيبَةُ يضْرِبُ لونُها إلى الكُلْفةِ — اللونُ الكدِر — وذلك من صدأِ الحديد، والسَّرْعان: الأوائل، يقول: إن المياهَ لا تسعُهم والأماكن تضيق بهم فكلما نزلت فرقة منهم رَحَل من تقدَّمهم »

وقولُ أوْسِ بن حجر:

قال: وقوله « ومن نجا برأسه فقد ربح »
هو مثل يضرب فى ابطاء الحاجة وتعذرها حتى يرضى صاحبها بالسلامة منها.

(١) خلل الرماد: خلاله

(٢) تذكى: تلهب وتضرم

ترى الأرضَ منَّا بالفضاءِ مَرِيضَةً
مُعَضِّلَةً منَّا بجمعٍ عَرَمْرَمِ

« عَضَّلَتِ الأرضُ بأهلها : إذا ضاقت بهم لكثرتهم ! وعضَّلَت المرأة بولدها تعضيلا : إذا نَشِبَ الولد فخرج بعضُه ولم يخْرُجْ بعضٌ فبقِيَ مُعْتَرِضاً »

وقال أبو نُواس :

أمامَ خَمِيسٍ أُدْجُوانٍ كأنَّه قميصٌ مَحُوكٌ من قناً وجِيادِ

« الأُدْجوان : الأسود ، واشتقاقه من الدُّجى ، ويُروى : أُرْجُوانٍ ، وهو : الأحمر » .

وقال ابن الرُّومى :

فلو حصبَتْهم بالفضاءِ سَحابةٌ لَظَلَّ عليهم حَصْبُها يتدَحْرَجُ

وهو من قول قيس بن الخطيم :

لو أنَّك تُلْقِى حَنْظلًا فوق بَيْضِنا تدَحْرَجَ عن ذى سامِهِ المُتَقارِبِ

« البيض جمع بَيضة : الخوذة ، سميت بذلك لأنها على شكل بيضة النعام ، والحنظل ثمر يشبه البطيخ لكنه أصغر منه جداً ويضرب المثل بمرارته ، وقوله : عن ذى سامه ، أى على ذى سامه ، فمن فيه بمعنى على والهاء فى سامه يرجع إلى البيض المُمَوَّه به ، أى البيض المُمَوَّه بالسام ، والسام : عروق الذهب والفضة ، وهو هنا الطرائق المُذهبة فى البيض ، قال الإمام ثعلب : معناه : أنهم تراصُّوا فى الحرب حتى لو وقع حنظل على رؤسهم على إملاسه واستواء أجزائه لم ينزل إلى الأرض »

وقال أبو عمرو بن العلاء : أحسن ماقيل فى صفةِ الجيش قولُ النابغة :

إنى لأخْشَى عليكم أنْ يكونَ لكم من أجْلِ بَغضائِكم يومٌ كأيامِ

أو تزجروا مُكفهِراً لا كِفاءَ له كالليل يَخلِط أصراماً بأصرامِ
تبدُو كواكبُه والشمسُ طالِعةٌ نُوراً بنورٍ وإظلاما بإظلامِ

« أو تزجروا عطف على ماقبله ، والمكفهر : الجيش العظيم ، ولا كِفاءَ له : لانظير له ، ويخلط أصراماً بأصرام إما جعلته صفة لليل والأصرام جمع صريم وهو الليل المظلم فيكونِ المعنى يخلط مُظلماً بمظلِم ، وإما جعلته صفة للجيش فيكون المعنى : يخلط كلّ حيّ بقبيلته خوفا من الإغارة عليه ، وقوله : تبدو كواكبه ... البيت يريد : شدة الهول والكرب ، وهذا كما تقول العامة : أريته النجوم وَسْط النهار .

قال الفرزدق : ۞ أريك نجومَ الليل والشمس حيّةٌ ۞
وقال طَرَفة : ۞ وتُريك النَّجْمَ يجرى بالظُّهُرْ ۞

وفى هذا المعنى يقول جرير :

والشمسُ طالعةٌ ليست بكاسِفةٍ تبْكى عليك نجُومَ الليلِ والقمَرا

يقول : إنّ الشمس طالعة وليست بكاسفة نجوم الليل ، لشدة الغمّ والكرب الذى فيه الناس ، فنجومَ مفعول كاسفة »

قالوا : وأحسن من قول النابغة قول زيد الخيل :

بنى عامرٍ هل تعرفون إذا غدا أبو مِكْنَفٍ قد شَدَّ عَقْدَ الدَّوابِرِ
بجَيشٍ تَضِلُ البُلْقُ فى حَجَراته ترى الأُكْمَ منه سُجَّداً للحوافِرِ
وجمعٍ كمثلِ الليلِ مُرْتجِس الوغَى كثيرٍ تواليهِ سريعِ البوادِرِ

« قوله : قد شَدَّ عقد الدوابر أراد : شدَّ دوابرَ البَيْضة — أى مآخيرها — بالدّرع لئلا تسقط إذا ركَض الفارس : وقوله : تضلُّ البلق فى حجراته فحجراته : نواحيه جمع حَجْرة يقول لكثرته لا يُرى به الأبلق

والأبلق مشهورُ المنظر لاختلاف لونَيه — السواد والبياض — وكان رؤساء العرب لايركبون البُلْقَ فى الحرب لئلا تَنِمَّ عليهم فيُقْصَدوا بشرّ ، وقوله : ترى الأكم منه سجّداً للحوافِر يقول : لكثرة الجيش يَطحنُ الأكم حتى يُلصِقَها بالأرض : ۞ يَدَعُ الأكامَ كأنهنَّ صحارى ۞

وقوله : كمثل الليل يريد : ظلمةً يكادُ سوادُه لكثرتِه يَسُدُّ الأفق ، والوَغى : الأصوات ، والارتجاس : صوت الشيء المختلط العظيم كالجيش والرعد ، والتوالى : اللواحق »

ومن بارع ماقيل فى الكيد فى الحرب قولُ أبى تمّام :

هَزَزْتَ له سيفاً من الكيد إنما تُجَذُّ به الأعناقُ مالم يُجَرَّدِ
يَسُرُّ الذى يَسْطُو به وهْوَ مُغْمَدٌ ويَفْضَحُ من يَسطو به غيرَ مُغْمَدِ

«يقول : إنْ أخفَيْتَ الكيدَ ظَفِرْتَ وسُرِرتَ ، وإن أظهرته افتضحْتَ وخِبتَ »

وقال يصف أفاعيلَ رُمْحِ الممدوحِ فى أعدائه :

أَنْهَبْتَ أرْواحَه الأرماحَ إذْ شُرِعَت فما تُرَدُّ لرَيبِ الدَّهرِ عنه يَدُ [١]
كأنها وهى فى الأوداجِ والِغَةٌ وفى الكُلَى تجِدُ الغَيظَ الذى تجدُ
من كلِّ أزْرَقَ نَظّارٍ بلا نظرٍ إلى المَقاتل ما فى مَتْنِه أَوَدُ [٢]
كأنه كان خِدْنَ الحُبِّ مُذْ زَمَنٍ فليس يُعجِزُه قلبٌ ولا كَبِدُ

---

(١) أرواحه : أرواح بابك الخرمى ومن معه ، وقوله فما ترد البيت يقول : إن الخرمى بعد هذه الوقعة وما نزل به من أفاعيلك ستتوالى عليه نوب الدهر فلا ترد يد لريب الدهر عنه (٢) أود : اعوجاج

ماغزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلّوا

ومن خُطْبة لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه وقد انتهى إليه :[1] أن خيلا لمُعاوية [2] وَرَدَت الأنبار فقتلوا عامِلا له يُسمَّى حسّانَ بن حسان، فخرج مُغْضَباً يجُرُّ ثوبَهُ حتى أتى النُّخيلة[3]، واتَّبعه الناس فرقِيَ رَبارة من الأرض [4] فحَمِد الله وأثنَى عليه وصلى على نبيِّه صلى الله عليه وسلم ثم قال : «أما بعد، فإن الجها بابٌ من أبواب الجنة، فمن تركه رَغْبةً عنه ألْبَسَه اللهُ الذُّلَّ، وسِيمَ الخَسْفَ، ودُيِّثَ بالصَّغار، وقد دعوتُكم إلى حَرْبِ هؤلاء القوم ليلا ونهاراً وسِرًّا وإعلانا وقلتُ لكم : آغزوهم من قبل أن يغزُوكم فوالذى نفسى بيده: ماغُزِىَ قومٌ قَطُّ فى عُقْر دارهم إلا ذلُّوا، فتخاذلْتم وتواكَلْتم وثقُلَ عليكم قولى واتخذتموه وراءكم ظِهْرِيًّا، حتى شُنَّتْ عليكم الغارات، هذا أخو غامِد قد وردَت خَيْلُه الأنبارَ وقَتَلوا حسان بن حسان ورجالا منهم كثيرا ونِساءً، والذى نفسى بيده : لقد بَلَغنى أنه كان يُدْخَل على المرأةِ المسلمة والمعاهَدَة [5] فتُنْتزَعُ أحجالُهُما ورُعثُهما ثم آنصرفوا

---

(١) أنهاه إليه علج من الأنبار، وكان علىّ يومئذ بالكوفة وقد تفرقت أصحابه عنه بعد حرب صفين وحكومة الحكمين (٢) يروى أنه وجه سفيان بن عوف ابن المغفل الغامدى فى ستة آلاف وأمره أن ينحدر إلى «هيت» ثم إلى «الأنبار» فيوقع بأهلها فقتل من أصحاب علىّ حسان عامله عليها وثلاثين رجلا واحتمل مافيها من الأموال؛ وهيت — بكسر الهاء — بلد على شاطئ الفرات، والأنبار : مدينة بالعراق كذلك على شاطئ الفرات غربى بغداد بينهما عشرة فراسخ

(٣) اسم موضع خارج الكوفة (٤) اسم لكل مرتفع من الأرض كالربوة

(٥) المرأة الذمية ذات العهد

موقورين لم يُكلِّمْ منهم أحد كَلْماً ، فلو أنّ امْرَأً مُسْلِماً مات من دون هذا أسفاً ما كان فيه مَلوماً بل كان به عندى جديرا . ياعجبا كلَّ العجب ، عجبٌ يُميت القلبَ ويَشْغَلُ الفهمَ ويُكثِر الأحزان ، من تضافُرِ هؤلاء القوم على باطِلِهم وفشلِكم عن حقِّكم حتى صبحتم غَرَضاً تُرمَون ولا ترمُون ، ويُغارُ عليكم ولا تُغِيرون ، ويُعصَى اللهُ عز وجلَّ فيكم ولا ترضَون ، إذا قلتُ لكم : اغزوهم فى الشتاء قلتم : هذا أوانُ قُرٍّ وصِرٍّ ، وإن قلت لكم : اغزوهُم فى الصيف قلتم : هذه حَمَارّةُ القَيظ أنْظِرْنا يَنصرِمُ الحرُّ عنا ، فإذا كنتم من الحر والبرد تفرُّون فأنتم والله من السَّيف أفرُّ ؛ ياأشباهَ الرجال ولا رجال ، وياطَغامَ الأحلام ، ويا عُقولَ ربّاتِ الحِجال ، والله لقد أفسَدْتم علىَّ رأيى بالعِصيان ، ولقد ملأتم جوفى غيظاً ، حتى قالت قريش : ابنُ أبى طالب رجل شُجاعٌ ولكن لارأىَ له فى الحرب ! لله دَرُّهم ، ومَن ذا يكونُ أعلَمَ بها مِنِّى أو أشدَّ لها مِراساً ! فوالله لقد نَهضْتُ فيها وما بلَغْتُ العِشرين ، ولقد نَيَّفْتُ اليوم على السِّتين ولكن لارأىَ لمن لايُطاع ... » وإليك شرح بعض ألفاظ هذه الخطبة الخالدة ، قوله : وسيمَ الخسف معناه : كُلِّفَ وأُلزِم وجُشِّمَ قال تعالى : يَسُومُونَكم سُوءَ العذاب . أى يُجَشِّمُونكم أشدَّ العذاب ، فسيمَ : كُلِّف وأُلزم ، والخسف : الذل والهوان ، وأصله أن تُحبَس الدَّابّة على غير عَلَف ثم استعير فوضعَ موضِعَ الهوان : ودُيِّثَ : ذُلِّلَ ، ومنه اشتقاق الدَّيُّوث وهو : الرجل الذى لاغَيرةَ له . وقوله : فى عُقْرِ دارهم : أى فى أصل دارهم ، والعُقْر : أصل كلِّ شىء ومن ثم قيل . لفلان عَقَارٌ : أى أصلُ مالٍ يَعتمد عليه من منزل وضَيعةٍ ونخيل ونحو ذلك . وقوله : وتوا كلتم يقال : وكَلْتُ

الأمر إليك ووكّلته أنت إلىّ : أى لم يَتوَلّهُ واحد منا دون صاحبه ولكن أحالَ به كلٌّ واحد منا على الآخر : وقوله : واتخذتموه وراءكم ظِهريًّا : أى رميتم به وراءَ ظهوركم ، أى لم تلتفتُوا إليه ، ويقال فى المثل : لاتجعل حاجتى منك بِظَهر : أى لا تطرَحها غيرَ ناظرٍ إليها ، وقوله : حتى شُنَّت عليكم الغارات : أى صُبَّتْ وبُثَّت عليهم من كلّ وجه . وقوله : فتنتزع أحجالَهما يعنى : الخلاخيل واحدها حِجل . والرُّعثُ : جمع رعاث جمع رَعْثة والرَّعثة : الشَّنْف أى القُرْط الذى يوضع فى الأُذن ؛ وقوله : وانصرفوا موفورين أى : لم يُرْزَؤا ، أى لم يُصابوا ولم يُنَلْ أحَدٌ منهم فى بدنه ولا ماله . ولم يُكلَمْ أحد منهم أى لم يُخْدَش أحد منهم خدْشاً . وكلُّ جُرحٍ صغُرَ أو كبُر فهو كلم . وقوله : مات من دون هذا أَسَفاً يريد : تحسُّراً . وقوله : من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم أى : من تعاونهم وتظاهرِهم . ويقال : فَشِلَ فلانٌ عن كذا : إذا هابَهُ جُبْناً وفزعا فأحجمَ عنه وامتنع من المُضِىّ فيه . والقُرّ — بضم القاف — البَرد أما القَرّ — بالفتح — فهو اليوم البارد . والصِّرّ — بكسر الصاد — شدة البرد قال تعالى : كمثل ريحٍ فيها صِرٌّ . والقيظ : الصيف ، وحَمَارّته : اشتداد حرّه واحتدامُه . والطَّغام : من لاعقل له ولا معرفة عنده . وقوله : وياعقول رَبّات الحجال : فالحجال جمع الحَجَلة وهى كالقُبّة وبيت للعروس يُزَيّن بالثياب والسُّتور ، ينْسُبُهم إلى ضَعفِ النساء »



ومن رائع الشّعر القديم فى باب الحثّ على الإقدام والذّود عن الذّمار ووَصْفِ الأبطال والمتخاذلين المتباطئين قول شاعر من بنى العنبر اسمه

قُرَيْطُ بنُ أُنيف — شاعر إسلامى — وكان ناسٌ من بنى شَيبان قد أغاروا عليه فأخذوا له ثلاثين بعيرا فاستَنْجد قومَه فلم يُنْجِدوه فأتى مازِنَ تميم فركب معه نَفرٌ فأطْرَدوا لبنى شيبان مائة بعير فدفعوها إليه فقال هذه الأبيات التى افتتح بها أبو تمّام حماستَه :

لو كنتُ من مازِنٍ لم تَسْتَبِحْ إبِلِى ... بنو الشَّقِيقة من ذُهْلِ بنِ شَيبانا
إذاً لَقامَ بنَصْرى مَعْشَرٌ خُشُنٌ ... عند الحفِيظةِ إنْ ذُو لُوثةٍ لانَا
قومٌ إذا الشَّرُّ أبْدَى ناجِذَيه لهم ... طارُوا إليه زَرافاتٍ ووُحْدانا
لا يَسألون أخاهم حينَ يَنْدُبُهم ... فى النائباتِ على ماقال بُرهانَا
لكنَّ قومى وإن كانوا ذَوِى عَدَدٍ ... ليسُوا من الشَّرِّ فى شيءٍ وإنْ هانا
يَجْزُون من ظُلْمِ أهلِ الظُّلمِ مغفِرَةً ... ومن إساءَةِ أهلِ السوءِ إحسانا
كأنَّ ربَّك لم يَخْلُقْ لخَشْيَتِه ... سِواهُم من جميع الناس إنْسانَا
فَلَيْتَ لى بهِمْ قوما إذا رَكِبوا ... شَنُّوا الإغارة فُرسانًا ورُكبانا

« بنو الشقيقة هى الرواية الصحيحة وإن كانت رواية شراح الحماسة : بنو اللقيطة ، والشقيقة : امرأة من بنى ذهل بن شيبان ، وبنوها كانوا سيَّارةً مَرَدةً ليس يأتون على شيء إلا أفسدوه ، وأما اللقيطة فهى امرأة من فَزارة ، هكذا زعم أبو محمد الأعرابىّ . والاستباحة : فى معنى الإباحة وهى شِبْه النُّهْبَى ، استباحَهُ : انتهبه حتى لكأنه مباحٌ لا تَبِعةَ عليه فيه ، وخُشُن جمع أخْشَن وهو من صفات الرِّجال مَثَلٌ يُراد به امْتِناع الجانب وإباءُ الضَّيم . ورجلٌ ذو لُوثة : بطيء مُتَمكِّث ذو ضَعْفٍ واسترخاء ، يقول : لولم أكنْ من بنى العنبر وكنت من بنى مازن ثم نالنى من بنى الشقيقة مانالنى من استباحتِهم إبِلى لكان لى منهم مَن يَنْصُرُنى عليهم ويأخذ بحقِّى انْتِساراً منهم

إذا لَانَ ذو الضَّعف والوَهْن فلم يَدْفع ضيما ولم يَحْمِ حقيقة ، ومُراد الشاعر تهييج قومه على الانتقام له من أعدائه لا إلى ذمّهم ، والحفيظة : الغضب والحميّة والمنع للشيء الذى ينبغى أن يحافظ عليه . وقوله : قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم فإبداءُ الشرّ نَواجِذَه مثلٌ لشدّته وصَولته ، وذلك أن السَّبُعَ إذا صالَ أو شدَّ كَشَرَ عن أنيابه ، فشبّه الشّرّ به فى حال شِدّتِه ، وطاروا إليه يريد : أسرَعوا إليه ، ووُحدانا جمع واحد كراكب ورُكبان ، والزَّرافات : الجماعات ، يقول فى هذا البيت . إنهم لِحِرصِهم على القتال وحُبهم إياه لا ينتظر بعضهم بعضا ، لأن كُلاًّ منهم يعتَقد أنّ الإجابة تعَيَّنَت عليه ، فإذا سَمِعوا بذِكْر الحرب أسْرَعوا إليها مُجْتمعين ومُتفرِّقين ؛ ومثله قول حُمَيد بن ثور الهلالى الصحابى :

قومٌ إذا هَتَف الصَّريخُ رأيتَهُم ... مابينَ مُلْجِمِ مُهْرِه أو سافِعِ [1]

وقوله : لا يسألون أخاهم ... البيت يقول : إذا دُعوا إلى الحرب أسرعوا إليها غيرَ سائلين مَن دَعاهم لها ، ولا باحثين عن سَبَبها ، لأن الجبانَ رُبّما تعلل بذلك فتباطأ عن الحرب . ونحوه قول سلامة بنِ جندل :

إنّا إذا ماأتانا صارِخٌ فَزِعٌ ... كان الصراخَ له قَرْعُ الظنابِيبِ

« يقول سلامة : إذا دعانا إلى إعانَتِه أجَبْناه إليها مُجِدِّين ، والظُّنوب : عَظْمُ الساق ، يقال : قرَع لهذا الأمر ظُنْبُوبه : إذا جَدَّ فيه »

---

(١) هتف : صاح ويروى نقع : أى ارتفع والصريخ : الصياح أو بمعنى الصارخ ويروى إذا سمعوا الصريخ . وسافع : آخذ بناصية فرسه ، من قوله تعالى : لنسفعاً بالناصية ، يقول : هم قوم إذا ارتفع الصياح للحرب أسرعوا إليه فتراهم دائرين بين ملجم مهره وقابض بناصية مهره يجذبه إليه بسرعة .

وقوله : لكنَّ قومى وإن كانوا ذَوِى عدد ... ألبيت وصف قومَه بأنهم يُؤْثِرون السلامة والعَفْو عن الجُناة ماوَجدوا إلى ذلك سبيلا ، ولو أرادوا الانتقام لقَدَرُوا بعَددهم وعُدَدهم . هذا إذا كان الشاعر لايريد كما قلنا هجاء قومِه وإنما يُريد حَثَّهم على الانتقام ، أما إذا كان يريد ذمَّهم فإنه يَهْجُوهم ويُعَيِّرهم بالجُبْن فى هذا البيت . وقوله : كأنّ ربك ... البيت تهكمٌ منه وسُخْرية . ومعنى قوله : فُرساناً ورُكبانا : أنهم كانوا يقاتلون على الخيل والإبل ، ومن ذا قولُ عمر بن الخطاب لسعد بن أبى وقّاص فى حرب القادسية : أخبِرْنى : أىُّ فارس كان أشجعَ ؟ وأىُّ راكب كان أشدَّ غَناءً ؟ وأى راجِلٍ كان أصبر ؟ فذكرَهم له ومَيّزهم » .



ومن طريف أبيات الحماسة التى أوردها أبو تمّام فى حماسته والمبرِّد فى الكامل أبياتٌ قال المبرِّد : إنها لأعرابىّ من بنى سعد [1] ونسبها أبو تمّام إلى الهُذْلول بن كعب العنبرى — وكلاهما شاعر جاهلى — وكان هذا القائل مُمْلَكا — أى عُقِدَ له على امرأة ولم يَبْتَنِ بها — فنزل به أضيافٌ فقامَ إلى الرَّحى فطحنَ لهم ، فمرّتْ به زَوْجَتُهُ فى نِسوَة ، فقالت لهنّ : أهذا بَعْلى ؟ فأُعْلِمَ بذلك فقال :

تقول : وصَكّتْ نحرَها بيمينها : أبَعْلِىَ هـذا بالرّحى المُتقاعِسُ ؟
فقلتُ لها : لا تعْجَلى وتَبَيَّنِى فعالى إذا التَفّتْ علىَّ الفَوارسُ
ألَسْتُ أرُدُّ القِرْنَ يَرْكَبُ رَدْعَهُ وفيه سِنانٌ ذو غِرارَيْنِ نائس

(١) قال ابن برى : هو نعيم بن الحارث بن يزيد السعدى

وأحتَملُ الأَوْقَ الثَّقِيلَ وأَمْتَرِى
خُلُوفَ المنايا حينَ فرّ المُغامِسُ
وأَقرِى الهُمُومَ الطارِقاتِ حَزَامَةً
إذا كَثُرَتْ للطّارقاتِ الوساوِسُ
إذا خامَ أقوامٌ تقَحَّمْتُ غَمْرَةً
يَهابُ حُمَيَّاها الألَدُّ المُدَاعِسُ
لعَمْرُ أبيكِ الخيْرِ إنى لخادِمٌ
لِضَيْفِى وإنى إنْ رَكِبْتُ لفارِسُ
وإنى لأَشْرِى الحَمْدَ أبْغِى رَباحَهُ
وأَتْرُكُ قِرْنِى وهْوَ خَزْيانُ ناعِسُ

« القَعَس : دخولُ الظهْر وخُروجُ الصدْر ، وهو نقيضُ الحدَب ، وقول المرأة : أبعْلِىَ هذا ؟ إشارة تحقير ، تعْجَبُ ممَّا رأت ، وقوله : بالرحى المتقاعس فإن « بالرحى » تبْيِينٌ ومعنَى ذلك أن كلمة « المتقاعس » تدلُّ على أن هناك تقاعُساً ولما قال بالرّحى دَلّ ذلك على أن التقاعس حدث بالرّحى ، ولم يُرد أن يُعْمِلَ المُتقاعِسَ فى قوله بالرّحى لأن ذلك على ما قال النحاة ممنوع ، لأن ألْ فى المتقاعس اسم موصول كالذى وبالرحى صلة ولا يجوز أن تتقدم الصلة على الموصول . وقوله : ألست أرُدّ القرن يركب رَدْعه ، فالقرن : مَن يقاوِمُكَ فى قتال ، وقوله : يركبُ ردْعَهُ ، قيل : الرّدع ههنا : الدم على سبيل التشبيه بِرَدْع الزعفران ، ومعنى ركوبه دَمَه : أنّهُ جُرِح فسالَ دَمُه فسقط فوقَهُ مُتَشحاً به ، وقيل : الرّدْع : العُنق أى سقَط على رأسِه فانْدَقّتْ عُنُقه ، وقيل معناه : صُرِع منكوساً رأسه

أسفله ، مِن ارتدع السهمُ : إذا رجع النصلُ مُتأخراً فى السِّنْخ . وذو غِرَارَيْنِ : ذو حدَّين ، ونائِس : مضطرب ، من ناس ينوس : إذا تحرك واضطرب ، وتُرْوى : يابسُ ومعناه : صُلْبٌ ذكرٌ لا تأنيث فيه . والأوْق : الثِّقَلُ وقد آقَ عليه يؤُق : مالَ بثِقَلِه ، ووصفه بالثقيل مبالغة . والخُلوف جمع خِلف — بالكسر — وهو فى الأصل : ضرع الناقة ، وامْتِراؤه : استخراج ما فيه من اللبن . يريد : أنه يستخرج خبيئاتِ المنايا بأفاعيله المُدْهِشة وقد جدَّ الخَطْبُ واشتدت الحرب ، والمُغامس : الذى ينغمس فى لُجّة الحرب لا يبالى أصاب أم أُصيب ، وقوله : وأقرى الهموم الطارقات حزامة ... البيت يقول : أحزمُ عندها إذا اشتدت وكثرت أحاديث النفس بها . وخام : جَبُنَ ونَكَصَ يقال : خامَ عن القتال يخيمُ خَيْماً وخيمانا : جَبُن . والحيا : صَدْمة الشرِّ ، والألَدُّ فى الأصل : الشديد الخصومة الذى يحيد عن الحق ، والمراد هنا الذى لا ينثنى عن الحرب . والمداعس : المطاعن يقال : دعَسه بالرمح : إذا طعنه . والرِّباح مصدر كالربح وقوله : وأترك قِرْنى الخ يقول : أُهينُه فأكْسِرُه حتى يبقى مطرقا مُتَنَدِّماً كمن غلبه النعاس ، وقيل معنى ناعِس : مُشرف على الموت يقال طعنتُ صاحبي فأنمته : أى قتلته . »

* * *

وقالت ليلى الأخيَلِيّة وهى من أبيات الحماسة :

لا تَغْزُوَنَّ الدهرَ آل مُطَرِّف ... لا ظالماً أبداً ولا مظلوما

قومٌ رِباطُ الخيلَ وَسْط بيوتهم ... وأسِنَّةٌ زُرْقٌ تُخالُ نجوما

ومُخَرَّق عنه القميصُ تخالُهُ ... وسْطَ البُيوتِ منَ الحياءِ سَقِيما

حتى إذا رُفِعَ اللِّواءُ رَأَيْتَهُ تحْتَ اللِّوَاءِ على الخميس زعيما

« قولها : لا تغزُون يروى لا تَقْرَبَنَّ وقولها : لا ظالماً أبداً ولا مظلوما تريد : لا مُبْتدِئاً لهم بالحرب من غير أن يحاربوك ولا مُنْتَقِماً منهم إن حاربوك ، لأنهم أولوا بأس شديد لا يطاقون على أي حال ، ويروى :

« لا ظالماً فيهم ولا مظلوما »

قال البكرى شارح الأمالى : وهذه الرِّواية هى الجيِّدة لوجهين أحدهما : أنها أفادت معْنًى حسناً ، لأنه قد يكون ظالماً أو مظلوما من غيرهم فيَسْتَجِيرُ بهم لردّ ظُلامَتِه ، أو لاستِدْفاع مكروه عقوبتِه فلا بُدَّ لهم من إجارَته ، والوجه الثانى أن قوله : لا تقْرَبَنَّ الدهر قد أغنى عن قوله : أبداً ، فصار حشْواً لا يُفيد معنًى ، وقولها : قومٌ رِباطُ الخيل ... ألبيت تقول : إنهم أصحابُ خيل ورماح مستعدون أبداً لِدفع الأعداء والذود عن حِياضهم ، وأسِنَّة زُرق : صافيةٌ لامِعَةٌ كأنها نجوم فى الصفاء واللمعان ، وقولها : ومُخَرَّق عنه القميص فيه قولان : أحدُهما : أن ذلك إشارةٌ إلى جَذْبِ العُفاةِ لهُ ، والثانى : أنهُ يُؤْثِرُ بجيِّدِ ثيابه فيكْسُوها ويكتفى بمَعَاوِزِها — أى الثياب الباليةِ منها لأنها ثياب المُعْوِزين — وقولها : تخاله من الحياء سقيما تريد أنه لإمعانه فى الكرم والسخاء تظنه سقيما من الحياء خَشْيَةَ أن لا يكون قد بلَغَ من إكرام الضيف ما ينبغى ، تمدحه بالجود كما تمدحه بالشجاعة . والخميس : الجيش ، والزعيم : الكفيل والرئيس . »

وقال بعضُ بنى مازن :

وقد علموا بِأن الحربَ ليست لأصحابِ المَجامِرِ والخَلُوقِ

ضرَبْناكم على الإسلامِ حتى أقمْناكم على وَضَح الطريق

« المجامر : المباخر ، أى التى توضع فيها النار والبَخُور لِيُتَبَخَّر بها ويُتطيَّب ؛ والخَلوق : طِيبٌ معروف يُتخذ من ألوانٍ شتَّى من الطيب ، وقيل : الزعفران »

وقال أبو تمّام فى مرثيته المشهورة لمحمد بن حميد الطوسى التى أولها :

كذا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ ولْيَفْدَحِ الأمْرُ
فليس لِعَيْنٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُذر

قال :

فتًى ماتَ بين الطعْنِ والضَّرْبِ ميتَةً
تقوم مقام النصْرِ إذ فاتَهُ النَّصْرُ

وما مات حتى ماتَ مَضرِبُ سَيْفِهِ
من الضربِ ، واعْتَلَّتْ عليه القَنا السُّمْرُ

وقد كان فوتُ الموتِ سهلا فرَدَّهُ
إليه الحِفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ

ونفسٌ تعافُ العارَ حتَّى كأنما
هُوَ الكُفْرُ يومَ الرَّوْعِ أو دُونهُ الكُفْرُ

فأثبَتَ فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ
وقال لها : من تحت أخْمَصِكِ الحشْرُ

غدا غُدْوَةً والحمدُ نَسْجُ ردائِهِ فلم يَنْصَرِف إلا وأكفانُهُ الأجْرُ

تَرَدَّى ثيابَ الموت حُمْراً فما دَجا لها الليلُ إلا وهْىَ من سُنْدُسٍ خُضْرُ

« قوله : تقوم مقام النصر : لأنه قُتل قِتلةَ بطل شجاع ، إذْ لمْ يُقْتَلْ حتّى تَثَلَّمَ حَدُّ سيفهِ مِن شِدَّة ماضَرَبَ به وحتى تَقَصَّفتِ الرماح فى يديه

كما قال فى البيت التالى ، قال نَقَدَة الشعر : إن أبا تمّام نظر فى هذا المعنى إلى قول عُرْوَة بن الورْد :

ومن يَكُ مِثلى ذا عِيالٍ ومُقْتِراً   مِن المالِ يطْرَحْ نفْسَهُ كلَّ مَطْرَحِ

لِيَبْلُغَ عُذراً أو يَنالَ رَغِيبَةً   ومُبْلِغُ نفْسٍ عُذْرَها مِثْلُ مُنْجِحِ

قالوا : إنّ عُروة جعل اجتهادَه فى طلب الرزق عُذراً يقوم مقام النجاح وأبو تمّام جعلَ الموتَ فى الحرب الذى هو أقصَى اجتهاد المجتهد فى لِقاء الأعداء قائماً مقام النصر . هذا ، ومضربُ السيف : حدُّه ، وقوله : واعتلت عليه القنا السُّمْرُ فمعنى اعتلال القنا أن العلة أصابتها فلم تستطع العملَ معه وتحقيقَ مطالِبَ همته من الصُّمُود للأعداء ، أو تقول : معنى اعتلالها : أنها تجنّتْ عليه الذنوب واتخذت ذلك ذريعة إلى العصيان والخلاف عليه ، وما ذنبُه عندها إلا كثرةُ تكاليفها الطعن لا يُريحها من ذلك ، والحِفاظ : الحَمِيّةُ والغَضَبُ محافظة على الحُرمَة وكلّ ما يَجبُ على المرْء حمايته ، والخلق الوعر : الشديد الأنفة ، ولا يُمدَح به إلا فى العداوَة . قال المازنى :

تُعاتِبُنى فيما ترى من شراستى   وشِدَّةِ نفْسِى أمُّ سَعْدٍ وما تدرى

فقلت لها : إن الكريمَ وإن حلا   ليُوجَدُ أحيانًا أمَرَّ من الصبر

« الروع هنا : الحربُ وفى الأصل : الخوف . وقوله : فأثبت فى مُسْتَنْقع الموتِ رجله ... ألبيت . جعلَ للموتِ مُستنقعا كمستنقع الماء ، وهو : مُجتمعُهُ فى بطن الوادى ، وأخمصُ القدم : مالا يُصيب الأرض من باطنها يقول : إنَّه لشجاعته قد صَمَد للموت فلا تتحول رِجْلُه إلى أن يموتَ حتى كأن الحشر — يوم يُحشر الناس إلى ربهم يوم القيامة — من

تحت أخْمَصِه . وقوله : غدا غدوة ... البيت يقول : إنه عاش محموداً مشكوراً ومات مثوبا مأجوراً . وقوله : تردّى ثياب الموت ... البيت يقول : إنه ارتدى الثياب المُلَطَّخة بالدم فلم ينقَضِ يوم قتله ولم يدخلُ فى ليلته إلا وقد صارت الثيابُ خُضْراً من سُنْدُسِ الجنة . قال علماء البيان : فى هذا البيت الطِّباق المسمى بالتَّدْبيج ، وهو أن يَذكرَ الشاعرُ أو الناثرُ فى معنًى من المدح أو غيره ألواناً لقصدِ الكناية أو التورِيَة ، ويسمى تدبيجَ الكناية أيضاً ، فإنه هنا ذكر لون الحمرةِ والخُضْرَةِ والمراد من الأول الكنايةُ عن القتل ومِن الثانى الكناية عن دخول الجنة »



وقال البُحْتُرِىُّ :

مَعْشَرٌ أَمْسَكَتْ حلومُهُمُ الأرْ ضَ وكادَت لولاهُمُ أنْ تميدا

فإذا الجَدْبُ جاء كانوا غيوثاً وإذا النَّقْعُ ثارَ ثارُوا أُسودا

وكأنَّ الإلهَ قال لهمُ فى الـ حَرْبِ كونوا حِجارَةً أو حديدا

وقال مُسلم بن الوليد :

لو أنَّ قوماً يَخْلُقُونَ مَنِيَّةً مِن بأسِهِمْ كانوا بَنِى جِبريلا

قومٌ إذا حَمِىَ الوطِيسُ لديهِمُ جعلوا الجماجم للسُّيوفِ مَقيلا

وقيل للمهلَّب بن أبى صُفْرَة : إنك لَتُلْقِى نفسَك فى المهالِكِ ! فقال : إن لمْ آتِ الموتَ مُسترسلاً ، أتانى مُسْتَعْجِلاً ، إنى لستُ آتى الموتَ من حُبِّه ، وإنما آتيه من بُغْضِه ، وتمثّل بقولِ الحُصَيْن بن الحمام :

تأخَّرْتُ أسْتَبْقِى الحياةَ فلم أجِدْ لِنَفْسِى حياةً مثلَ أن أتقدَّما

وقد تقدم

وقال المتنبي :

شجاعٌ كأنّ الحربَ عاشِقةٌ له إذا زارها فدَّتهُ بالخيل والرَّجْلِ

« المراد بالخيل : الفرسان ، والرجل جمع راجل يقول : هو شجاع يَقْتُل ولا يُقْتَل فكأن الحرب تعشقه فإذا زار الحرب استَبْقَته وأفنت مَن سِواه من الفرسان والرجال ، فكأنما جعلتهم فِداء له ».

وقال :

وكم رجالٍ بِلا أرضٍ لِكثرتهم تَرَكْتَ جَمعَهُمُ أرضاً بِلا رَجُلِ
مازال طِرْفُكَ يجرى فى دِمائِهِمُ حتى مَشى بك مَشْيَ الشاربِ الثَّمِلِ

« قوله : وكم رجال ... البيت يقول : كم جمع الأعداءُ لك جموعا تغيبُ الأرضُ من كثرتهم وتخفى على الأبصار حتى كأنهم رجالٌ بلا أرض فقتلتهم وأفنيْتَهم حتى خليَتْ أرضهم فبقيت ولا رجل فيها ، وفى هذا البيت نظر من ناحية كثرة الجيش إلى قول أبى تمَّام فى صفة جيش :

مَلأَ المَلاَ عُصَباً فكاد بأن يُرَى لا خَلْفَ فيه ولا لهُ قُدَّامُ

وقوله : مازال طرفك ... البيت ، فالطرف : الفرس الكريم ، والثَّمِل السكران ، يقول مازلت تخوض دماءهم بفَرسك حتى تعثّر بالقتلى وأمالته دماؤهم عن سَنَنِ جَرْيه وأزْلَقَتْهُ حتى مشى بك مَشْيَ السكران ».

وقال الشابُّ الظريف من قصيدة له يمدح بها ابن عبد الظاهر :

ومعْشَرٍ لم تزلْ للحرْبِ بِيضُهُمُ
حُمْرَ الخُدودِ وما من شأنِها الخَجَلُ[1]

---

(١) البيض : السيوف ، وجعلها حمر الخدود لما يسيل فوقها من دماء الأعداء.

إذا انتضَوْها بُروقًا صُيِّرَتْ سُحُبًا

يَسيلُ من جانبَيْها عارضٌ هَطِلُ (١)

يَثْنِي حديثُ الوَغى أعطافَهم طربًا

كأنّ ذِكرَ المنايا بينهم غَزَلُ (٢)

كم نارِ حربٍ بهم شُبَّتْ وهم سُحُبٌ

وأرضِ قومٍ بهم فاضت وهم شُعَلُ (٣)

وقال الشاعر أبو الفَرَج البَبَّغاء شاعر اليتيمة :

يسعى إلى الموتِ والقنا قِصَدٌ وخيلُهُ بالرُّؤسِ تَنْتَعِلُ
كأنّهُ واثقٌ بأنّ لهُ عُمراً مُقيماً وماله أجَلُ

« والقنا قِصَدٌ : أى قِطَعٌ ، والمفرد : قِصْدَة وهى : القطعة من الشيء إذا انكسر »

وقال آخر :

كأنّ سيوفهُ صيغَتْ عقوداً تجولُ على الترائبِ والنُّحورِ
وسُمْرَ رماحِهِ جُعِلَتْ هُموما فما يَخْطُرْنَ إلا فى ضَميرِ

ومن كلام على بن أبى طالب : رُبَّ حياة سَبَبُها التَّعَرُّضُ للموت ، ورُبَّ مَنيّةٍ سببها طلبُ الحياة .

«وبعد» فإن عبقرياتهم فى الشجاعة والتمدح بها لا تكاد تُحصى كثرةً ، وإن الناظرَ فى الأدب العربى ولا سيما المنظوم منه يتحقق من أن الشجاعة

---

(١) انتضى السيف : استله من غمده ، والعارض السحاب والمراد هنا الدماء

(٢) الأعطاف جمع عطف وهو الجانب

(٣) وهم سحب أى فى الكرم ، وهم شعل أى كالنار فى استئصال أعدائهم .

والإشادة بها تكاد تكوّن أحدَ شَطْرَى ما يتمدحون به وينوّهون بفضله، أما الشطر الآخر فهو الجود والكرم، وبحسبك بهاتين الخلّتين، وإنهما دَعامتا سائر الفضائل، ولنجتزئ بهذا المقدار وإن كان قَطْراً من بحرٍ »

صدر من عبقرياتهم
فى وصف آلات الحرب

قال البُحتُرى يَصف السيف :

يَتناولُ الرُّوحَ البعيدَ مَنالُهُ عفواً، ويَفْتَح فى القَضاءِ المُقْفَلِ
ماضٍ وإنْ لم تُمْضِهِ يدُ فارسٍ بطَلٍ، ومَصْقولٌ وإنْ لم يُصْقَلِ
يَغْشَى الوَغَى فالتُّرْسُ ليس بجُنَّةٍ مِن حدِّه والدِّرْعُ ليس بمَعْقِلِ
مُصْغٍ إلى حُكْمِ الرَّدَى، فإذا مَضَى
لم يَلْتَفِتْ، وإذا قَضَى لم يَعْدِلِ
مُتألِّقٌ يَفْرِى بأوّلِ ضَرْبةٍ ماأدْرَكَتْ ولَوَ انها فى يَذْبُلِ
وإذا أصابَ فكلُّ شيءٍ مَقْتَلٌ وإذا أُصيب فما له من مَقْتَلِ

وقال عبد الله بن المعتز يَصفُه :

وَلِى صارمٌ فيه المَنايا كَوامِنٌ فما يُنْتَضَى إلا لِسَفْكِ دِماءِ
ترى فوقَ مَتْنَيْه الفِرِنْدَ كأنه بَقِيَّةُ غَيْمٍ رَقَّ دونَ سَماءِ (١)

وقال ابن الرُّومى :

خيرُ ما آستعصَمتَ به الكَفُّ عَضْبٌ ذَكَرٌ هَزُّه أَنِيثُ المَهَزِّ (٢)

---

(١) فرند السيف : وَشْيُه

(٢) الذكر من السيوف : الشديد الجيد الصارم ، وهزه أنيث المهز يريد : أنه لين منقاد مطواع مع شدته

ما تأمَّلتَــه بعينِــكَ إلا أُرعِدَتْ صَفحتاهُ من غـير هَزّ
مِثلُه أفزَعَ الشُّجاعَ إلى الدِّرْ عِ فغالَى بها على كلِّ بَزّ (١)
ما يُبــالِي أصَمَّمتْ شَفْـرتاهُ فى مَحَزٍّ أم حادَتا عن مَحَزّ

ولما صارَ الصَّمصامة سيفُ عمرو بن مَعْديكربَ إلى موسى الهادى أذِنَ للشعراء أن يصفوهُ ، فبَدأهُمْ ابن يامِينَ فقال :

حاز صَمْصامَةَ الزُّبَيْدِىِّ من دو نِ جميعِ الأنامِ مُوسى الأمينُ
سَيفَ عَمْرٍو وكانَ فيما سَمِعنا خيرَ ماأُغمِدَتْ عليه الجُفونُ
أخضَرَ المتْنِ بين حَـدَّيْهِ نُورٌ من فِرِنْدٍ تمتَدُّ فيــه العُيون
أوْقَدَتْ فوقَهُ الصواعِقُ ناراً ثم شابَتْ به الذُّعافَ القُيونُ (٢)
فإذا ماسَلَلْتَــه بَهَرَ الشمــسَ ضِياءً فلم تَكَدْ تَسْتَبِينُ
يَستطيرُ الأبصارَ كالقَبَس المُشْــعَلِ ماتَستقِرُّ فيه العيونُ
وكأنَّ الفِرِنْدَ والرَّوْنَقَ الجا رِىَ فى صَفحَتيْه ماءٌ مَعِــينُ
وكأنَّ المنونَ نِيطَتْ إليــه فهو من كلِّ جانِبَيْه مَنُونُ
ما يُبــالى مَنِ انتضاهُ لضَرْبٍ أشِمــالٌ سَطَت به أم يمينُ

قال أبو هلال العسكرى : وقد أُخِذ عليه فى هذه الأبيات تَشبيهُه السيفَ بالشمس ثم بالقبس ، لأنه قد حَطَّهُ درَجات ... (٣) »

ولمناسبة عمرو بن معديكرب وصَمْصامته يُروَى أن عُمرَ بن الخطاب بعث إلى عمرو أن يَبْعَثَ إليه بسيفِه الصَّمصامة هذا ، فبَعث إليه به ؛ فلما

---

(١) يقول : إن هذا السيف يلجئ الشجاع إلى أن يتقيه بأجود الدروع ، والبز : السلاح يدخل فيه الدرع والمغفر والسيف (٢) الذعاف : السم الذى يقتل من ساعته ، والقيون جمع قين وهو الحداد وكل صانع (٣) القبس : الجذوة من النار

ضرَب به وجَده دون مابلَغه عنه ، فكتب إليه فى ذلك ، فأجابه يقول : إنما بَعثْتُ إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعَثْ له بالساعد الذى يَضرِبُ به .

وسأله عمر يوماً عن السلاح فقال : ماتقول فى الرُّمح ؟ قال : أخوك ورُبَّما خانَك فانْقَصَف ؛ قال : فما تقولُ فى التُّرس ؟ قال : هو المِجَنُّ وعليه تدور الدَّوائر ، قال : فالنَّبل ؟ قال : منايا تُخْطِئُ وتُصيب ، قال : فما تقول فى الدِّرع ؟ قال : مَثْقَلةٌ للراجل مَشْغَلةٌ للراكب ، وإنها لحِصْنٌ حصين ؛ قال : فما تقول فى السيف ؟ قال : هُنا لك قارَعَتْكَ أُمكَ عن الثُّكلِ[1] ؛ قال : بَل أُمُّكَ ! قال : بَل أُمُّك ياأمير المؤمنين ! فَعَلاه أمير المؤمنين بالدِّرَّة ، وقيل : بلْ قال له — لمّا قال عمر بل أُمُّك — قال : أُمِّى ياأميرَ المؤمنين « الحُمَّى أضرَعَتْنِى لك » أراد : أن الإسلام قَيَّدَنى ، ولو كنت فى الجاهلية لم تُكلمنى بهذا الكلام ، وهو مثَلٌ تضربُه العرب إذا اضْطُرّت للخضوع » .

ومِثلُ ذلك قول الأغر النهشلى لابنه لمّا بعثَهُ لحضور ماوقع بين قومه فقال : يابُنَىّ ، كُنْ يداً لأصحابك على مَن قاتلهم ، وإياك والسيف فإنه ظلُّ الموت ، واتَّق الرُّمح فإنه رِشاءُ المَنيّة ، ولا تَقْرَبِ السِّهامَ فإنها رُسُلٌ تَعْصى وتُطيع ، قال : فبِمَ أقاتل ؟ قال : بما قال الشاعر :

جَلاميدُ أمْلاءُ الأكُفِّ كأنها رُؤُس رجالٍ حُلِّقَتْ فى المَواسِم

---

(١) الثكل : الفقد ، ولعله يريد : أن يصف السيف بأنه أفتك أنواع الأسلحة وأروعها فسلك إلى ذلك سبيل الكناية فعبر بجملة لازمها يدل على مايريد أبلغ دلالة إذ يقول : هنا لك — أى إذا ذكر السيف أرتقارعت السيوف ، قارعته أمك ودافعته عن الثكل والهلاك إشفاقا عليه ، فإن الإشفاق أعظم مايكون على المنازل إذا كان السلاح السيف ، لأن ضرباته صائبة قاتلة

فعليك بها وألصِقْها بالأعقابِ والسُّوق . » قوله : جلاميد أملاءُ الأكف ... البيت هو أحد أبيات أوْرَدَها المبرد وهى :

تُغطِّى نُمَيْرٌ بالعمائمِ لُؤمَها وكيف يُغطّى اللُّؤمَ طَىُّ العمائمِ

فإنْ تَضربونا بالسِّياطِ فإننا ضَرَبْناكُمُ بالمُرهَفاتِ الصوارِمِ

وإن تَحلِقوا مِنّا الرُّؤسَ فإننا حَلقْنا رؤساً باللَّها والغلاصِمِ

وإنْ تمنعوا مِنا السلاحَ فعِندنا سِلاحٌ لنا لا يُشتَرى بالدَّراهمِ

جلاميدُ أمْلاءُ الأكُفِّ كأنها رُؤسُ رجالٍ حُلّقَتْ بالمواسم

« قوله : حلقنا رؤسا : يريد أزلناها بالسيوف ، واللَّها بفتح اللام جمع لَهاة وهى لحمة مُشْرِفة على عَكَدَة اللسان ، والغلاصم جمع الغلصمة وهى لحمة بين الرأس والعنق ، والجلاميد جمع جلمود وهو الحجَر تأخذه بيدك وهو بيان لقوله سلاح لنا لايشترى بالدراهم »

وقال المعَرِّى :

كأنَّ أراقِمًا نفَثَتْ سِمامًا عليه فعادَ مُبْيَضًّا نحيلا

ومَنْ تَعْلَقْ به حُمَةُ الأفاعِى يَعِش — إنْ فاتَهُ أجلٌ — عَليلا

كأنَّ فِرِنْدَهُ واليومُ خَمْتٌ أفاضَ بصَفْحِه سَجْلاً سَجيلا

تَرَدَّد ماؤه عُلْوًا وسُفْلاً وهَمّ فما تَمَكّنَ أنْ يَسيلا

يَكادُ سَناهُ يُحْرِقُ مَنْ فَراهُ ويُغرِقُ مَنْ نجا منه كُلولا

« كأنّ أراقما ... البيت يقول : كأنّ الحيّاتِ نفخت السموم على هذا السيف فصار أبيض ناحلا ، وذلك أن السُّم موصوف بالبياض ، ومَن نكَزَتْه الحيّةُ ونَفثت فيه سُمّها نَحلَ جِسمُه ، فجعل البياض فى السيف لونا للسم والنحافة فِعلَهُ ، » قوله : ومَن تعلق به : البيت لمّا وصَف السيف

بالنُّحول لما نقشتْ الأراقِمُ عليه سِماتِها حقَّق وجْهَ نحُوله ، وهو أن مَن خالطَهُ سُمُّ الأفاعى هلك فى غالِب الأمر ، وإنْ فاتَهُ الهلاك عاش عليلا ، والعليل نحيلُ الجسم لامحالة ؛ وقوله : كأنّ فِرِنْدَه ... البيت فالفِرند : جَوهرُ السيف وماؤه ، ويوم مَحْتٌ : شديد الحرّ ، والسَّجْلُ : الدَّلْوُ ، إذا كان فيها ماء ، ولا يقال لها وهى فارغة : سَجل ولا ذَنوبَ ، والسَّجيل : الضخم العظيم ، يصفُ بياضَ السيف وبريقه ، أى كأن جوهَرَ السيف وقد صُبّ بوجهه دلْوٌ من الماء فى يومٍ شديد الحرّ ، فهو أبيضُ براق كأنه ماء ، وإنما ذكر شدّة الحرّ لأنه إذا كان اليوم شديدَ الحر كانت الحاجة إلى الماء أشدَّ ، أو لأن الماء مع إشراقِ الشمس أشدُّ بريقا ولمعانا . وقوله : ترَدّد ماؤه ... البيت لمّا شبّه فِرِنْدَ السيف بالماء وصَفه بأنّ الماء كأنه يتردد فيه من أعلاه إلى أسفله ومن أسفله إلى أعلاه ، ويَهُمّ الماء أن يسيلَ من صفحتِه فلا يتمكّنُ من السيلان ، لأنه محصور فى أجزائه ، وقوله : يكاد سناه ... البيت فالسَّنا : الضَّوء ، وفَرَاه : قَطعه ، وكَلّ السيف والرمح يَكِلُّ كلولا : إذا نَبا عن العمل ، يقول : إن هذا السيف جمعَ بين النار والماء فهو يُحرقُ من قَطعه ويُغرِقُ بمائه مَن كلَّ السيفُ عنه فنجا منه » .

وقال إسحاق بن خَلَف :

أَلْقَى بجانِب خَصره ... أمْضى من الأجل المُتاحِ
وكأنما ذَرُّ الهبا ... ءِ عليه أنفاسُ الرِّياحِ

وقال النابغة :

تُطيرُ فِضاضًا بينهم كلَّ قَوْنَسٍ ... ويَتْبَعُها منهم فَراشُ الحواجِبِ

تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ المُضاعَفَ نَسْجُه ... وتُوقِدُ بالصُّفّاحِ نارَ الحُباحِب

« نَضَضْتُ الشيءَ أَنُضُّه نضًّا فهو مفضوض ونضيض : كسرتُه وفرّقتُه ، وفُضاضُه ونِضاضُه : ماتكسّر منه وتفرق ، والقونس : مُقدَّم الرأس ، وقونسُ البَيْضة من السلاح : أعلاها ، والفَراش : عظْمُ الحاجب ، أو قِشْرَةٌ تكون على العَظْمِ دون اللحم ، ويقال : ضربَهُ فأطارَ فَرَاش رأسِه وذلك إذا طارت العِظام رِقاقاً من رأسه ، والسلوقى : الدرع المنسوبة إلى سَلوق ، وهى قرية باليمن تعرف بسَلَقْيَة وإليها تنسب أيضا الكلابُ السَّلوقية ، والصُّفاح جمع صُفّاحة وهى : كلُّ عريض من الحِجارة ونحوها ، والحُباحب : الشَّرَر الذى يسقُط من الزِّنادِ يقول فى البيت الثانى : إن هذه السيوف تَقُدُّ — تقطع — الدّرعَ التى ضوعف نسْجُها والفارس والفرس وتصلُ إلى الأرض فتَقْدَحُ النار بالصُّفاح » .

وقال البُحتُرى يصف الدّرع :

يَمشُونَ فى زَرَدٍ كأنّ مُتونَها ... فى كلِّ مُعْتَرَكٍ مُتُونُ نِهَاءِ

بِيْضٌ تسيلُ على الكُماةِ فُضُولُها ... سَيْلَ السَّرابِ بقَفْرةٍ بَيْداءِ

وإذا الأسِنَّةُ خالَطَتْها خِلْتَها ... فيها خَيالَ كواكِبٍ فى ماءِ

« نِهاء جمع نِهْى ، والنِّهْىُ : الغديرُ »

وقال عبدُ الله بنُ المعْتَزّ .

كم بَطَلٍ بارَزَنى فى الوَغى ... عليه دِرْعٌ خِلْتُها تَطّرِدْ

كأنها ماءٌ عليه جَرى ... حتى إذا ماغابَ فيه جَمَدْ

وقال المتنبى :

تَرُدُّ عنه قَنا الفُرسانِ سابِغَةٌ ... صَوبُ الأسِنَّة فى أثنائها دِيَمُ

تَخُطُّ فيها العَوالى ليس تَنْفُذُها كأن كلَّ سِنانٍ فوقَها قَلَمُ

« يقول فى البيت الأول : تمنع الرِّماحَ من النفوذ فى عَدُوّ الممدوح دِرْعٌ سابغة قد تلطخت بالدماء التى تسيل من الأسنّة عليها ، أو أن وقع الأسنة فى هذه الدرع كديمة المطر تتابعا . ويقول فى البيت الثانى : إن الرماح تؤثر فى درعه ، أى تجرَحُها ، ولا تنفُذها إلى جسمه ، حتى كأن أسنّتَها أقلام تخُطُّ فى القِرطاس ولا تخرُقُه » . وقال المعرّى :

إذا طُوِيَتْ فالقَعْب يَجمَعُ شملَها وإنْ نُثِلَتْ سالَتْ مَسِيلَ ثِماد

وما هى إلا رَوضةٌ سَدِكٌ بها ذُبابُ حُسَامٍ فى السوابغ شادِ

على أنها أُمُّ الوَغَى وابنة اللّظى وأختُ الظُّبَى فى كلِّ يومِ جِلادِ

« القَعبُ : القَدَح الصغير ، ونَثَلَ الدِّرعَ ينثلها : إذا ألقاها على نفسه وصبَّها عليه ، والثماد جمع ثمد وهو : الماء القليل . يقول : إذا طُوِيَت صَغُرَ حجمُها بالطىّ حتى يسَعَها القَعْب . وإن لُبِسَت سالَتْ على البدن كالماء . وقوله : وما هى إلا روضة ... البيت ، فسدك بالشىء : لَزِمه ، وشدا يَشْدُو فهو شاد : إذا رَفَع صوته بالغناء ، شَبَّه هذه الدِّرع بالرَّوْضة ، والذُّبابُ يجتمع فى الرياض ويُصوّت فيها ، يقول : إنّ هذه الدِّرعَ روضَةٌ قد أولع بها ذُباب السيف ، وهو : حَدُّه الذى يَتغَنَّى فى الدِّرع ، أى أنها دِرْع لاتزالُ على بَطلٍ مُحارب تَرِدُها سُيوف الأقران وتقارِعُها فيُسمَع صوتُ وَقْعِها . وقوله : على أنها ... البيت فالجلاد : الضِّرابُ بالسيوف ، وجعل الدرع أُمَّ الوَغى — أى الحرب — إذ أنَّها تجرى مَجرى الأصل والمَلْجأ الذى يُلجأ إليه ، وجعلها ابنة اللّظى — أى النار — لأنها إنما عُملت بالنار ، وأخت الظُّبى — جمع ظُبَة وهى حَدّ السيف — إذ لاتزال

تَرِدها ظُبات السيوف وتقارنُها ولا تؤثر فيها ، وَصَفها بهذه الأسماء المُنْبِئةِ عن القرابات مُريداً بها ماينِاسِبُها من المعنى » .

* * *

ولأبى العلاء المعرّى فى الدروع مقطوعات كثيرة ، لَقَدِ آفتن فيها افتنانا ، وأبْدَع ماشاءت عبقريته تراها فى سقط الزّند .

* * *

وإذا أردت التوسع فى وصف آلات القتال من السيوف والدروع والرماح والقِسّى والنِّبال وما إلى ذلك فارجع إلى الموسوعات العربية ودواوين الشعراء فسوف تَرَى فيها الطِّمّ والرِّمّ ، ممـا لعَلَّه ينقع غُلّتَك إن شاء الله .

تمَّ الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث إن شاء الله



استدراكات وتصويبات أخرى

لما وقع فى المجلد الأول من الأخطاء

جاء فى صفحة ٤٢ من المجلد الأول من الذخائر هذا البيت هكذا :

إذا ظُلِم المولى فزَعتَ لِظُلْمِهِ   فحَرَّكَ أحشائى وهَرَّت كِلابيا

وقد نبهنا فى تصويبات المجلد الأول : إلى أن فزَعت صوابها فَزِعْتُ وهنا نحاول أن نشرح هذا البيت شرحا آخر عِلاوةً على الذى أوردناه هناك فى شرحه فنقول : قال التبريزى : فحَرَّكَ أحشائى يروى « وحرَّكَ أحشائى » وهذا كما يقال : هذا أمرٌ قد حرك مِنِّى : إذا اضطربت له ، وقوله : حَرّكَ أحشائى يجوز أن يكون تحركت أحشاؤه لِوَجيب قلْبِه وخفقانه ، ونبحت كلابُه لتهيُّئِه للانتقام وتدججه فى السلاح وتجمُّع أصحابه ، والكلب يُنْكِرُ أصحابه إذا رآهم بهذه الحال ، وأنشد الأصمعى فى مثله :

أُناسٌ إذا ما أنكرَ الكلبُ أهْلَهُ
حَمَوْا جارَهُمْ من كُلِّ شَنْعاءَ مُظْلِمِ

ووجهٌ آخر ، وهو أن يكون تحركت أحشاؤه لإعدادِ ما يُعِدّهُ . والمتَسرِّع يَلْحقُه ذلك

* * *

وجاء فى صفحة ٦٠ : ورأى عُمَرُ بنُ الخطاب رَجُلاً يقول : أنا ابن بطحاء مَكّة ... الخ وصحة هذه الجملة كما جاء فى الأغانى ج ٤ ص ٣١٨ طبعة دار الكتب هكذا : وسمع عُمَرُ بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يقول لآخر يفْخَرُ عليه : أنا ابنُ مُسْتَنْطِحِ البِطّاح ، وابن كذا وكذا ، فقال له

عمر : إن كان لك عقل فلك أصلٌ ، وإن كان لك خُلُقٌ فلك شرفٌ ، وإن كان لك تقوى فلك كرم ، وإلا فذاك الحمار خيرٌ منك ؛ أحبُّكم إلينا قبل أن نراكم أحسنُكُمْ سَمْتاً ، فإذا تكلَّمتم فأبيَنُكم مَنْطِقًا . فإذا اختبرْناكم فأحسنُكُمْ فِعْلاً .

☆ ☆ ☆

وجاء فى صفحة ٧٩ من المجلد الأول : وقال حمادُ عَجْرَدٍ فى ذلك من أبيات : بُثَّ النَّوال ولا تمنعْكَ قِلَّتُهُ الخ ، وصوابه هكذا : وقال بشار ابن بُرد يهجو العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وكان قد استمنحه فلم يَمْنَحْهُ :

ظِلُّ اليسارِ على العباسِ مَمْدُودُ ... وقلبُه أبداً فى الْبُخْلِ مَعْقودُ
إن الكريمَ لَيُخْفِى عنك عُسْرَتَه ... حتى تراهُ غَنِيًّا وَهْوَ مَجْهُودُ
وَلِلبخيل على أموالِهِ عِلَلٌ ... زُرْقُ العيون عليها أوْجهٌ سودُ
إذا تكَرَّهْتَ أن تُعطِى القليل ولمْ ... تَقْدِرْ على سَعَةٍ لم يظهرِ الجود
أوْرِقْ بخيرٍ تُرَجّى للنَّوالِ فما ... تُرْجَى الثِّمارُ إذا لم يُورِقِ العُودُ
بُثَّ النَّوالَ ولا تمنعْكَ قِلَّتُهُ ... فكُل ما سَدَّ فقراً فهْوَ محمودُ

☆ ☆ ☆

وجاء فى صفحة ١٢١ هذا البيت هكذا :

وما خُبْزُهُ إلا كَعَنْقَاءِ مُغْرِبٍ ... تَصَوَّرُ فى بُسْطِ المُلوكِ وفى المَثَلْ

وصوابه هكذا :

وما خُبْزُهُ إلا كعَنْقَاءِ مُغْرِب ... تُصَوَّرُ فى بُسْطِ المُلوكِ وفى المُثْلِ

وهو أحد أبيات لأبى نواس يهجو بها إسماعيل بن سهل وقيل هذا البيت :

على خُبْزِ إسماعيلَ واقيَةُ البُخْلِ فقد حَلَّ فى دارِ الأمانِ من الأكْلِ

وبعده :

يُحَدِّثُ عَنْها الناسُ من غير رُؤيةٍ سوى صُورَةٍ ماإنْ تُمِرُّ ولا تُحْلى

إلى آخر الأبيات . والمُثْلُ هى المُثُل جمع، مِثَال وهو : ما يُفْتَرَش من مفارش الصوف المُلَوّنة ، وقوله : يُحَدِّثُ عنها الناس ... الضمير عنها لعنقاء مُغْرِب ، وقوله : ما إن تُمِرّ ولا تُحْلى : فتمر : تجعله مُرا وتحلى : تجعله حلوا والمعنى : لا تأتى هذه الصورة بطائل إذْ أنه لا حقيقة لعنقاء مغرب فى الواقع وهذا على حدّ قولهم : فلا أنت حُلْو ولا أنت مُر : أى لستَ هناك »

٭ ٭ ٭

وجاء فى صفحة ١٢٤ : فهى حق أريد بها باطل ، وصوابها : فهى حق أريد به باطل .

٭ ٭ ٭

وجاء فى صفحة ١٥٩ : ولى حُمُرُ النَّعم . وصوابها . ولى حُمْرُ النَّعَم

٭ ٭ ٭

وجاء فى صفحة ٣١٥ : لمْ يَدْخُلْه بإذنى فأُخرِجُهُ بإذنى . وصوابها : لم يَدْخُلْهُ بإذنى فأُخْرِجه بإذنى .

وجاء فى هذه الصفحة : قال ابن عباس رضى الله عنه ، وصوابها قال ابنُ عيَّاش رضى الله عنه ، « وهذا ابن عياش هو أبو بكر بنُ عياشٍ المُحَدِّث المتوفَّى سنة ١٩٣ هجرية وقد ترجم له ياقوت فى معجم الأدباء « ج ٧ »

وقد وردت فيه حكايتنا هكذا : قال أبو بكر بن عياش : كنت إذ أنا شابٌّ إذا أصابتنى مُصيبةٌ ، تصبّرْتُ ورَدَدْتُ البكاء ، فكان ذلك يوجِعُنى ويزيدنى ألماً ، حتى رأيت بالكناسة — محلّة بالكوفة — أعرابيًّا واقفاً وقد اجتمع الناس حوله فأنشد :

خليلَيَّ عوجا مِن صدور الرواحِل   بجُمْهُورِ حُزْوَى وابْكِيا فى المنازلِ
لعَلَّ انحِدَارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ راحة   من الوجد أو يَشْفِى نجِيَّ البلابل

فسألت عنه فقيل : ذو الرُّمّة ، قال : فأصابتْنى بعد ذلك مصائب فكنت أبكى فأجِدُ راحة ، فقلت فى نفسى : قاتل اللهُ الأعرابى ، ما كان أبصره وأعلمه !



أغلاط مطبعية

فى هـــذا الجزء الثانى

ص	سطر	خطأ	صواب
١٢	٧	وفى باب الغرم	وفى باب العزم
٤٤	١	فيُصيرُك	فيُصيرَكَ
٤٦	٤	حَسَنُ الـكِدْنة	حَسَنُ الـكُدْنة ـ بكسر الكاف وضمها ـــ : أى السِّمَن
٤٨	٢٠	فـكأنه	فـكأنها
٦٠	٢٠	عِلتُه	عِلّتَه
١٠٠	١٢	عُلوّ	عُلُوٌّ
١٢١	١٤	فإنْ يَك حُرْمٌ	فإن يكُ جُرْمٌ
١٢٢	١٥	قال من لا أذكر اسمه	قال زُفَر بن الحارث
١٦٢	١٨و١٩	« يلاحظ فى هذه الأسطر أن السطرين ١٧ و ١٩ فصل بينهما سطر أجنبى عنهما	
١٦٨	١٣	الشاعر البِبْغاء	الشاعر البَبّغاء
١٨٤	١١	نهيهم عن الغضب فى المزح	نهيهم عن الغضب من المزح
٢٢٩	١٠	أىّ يَوَمَىَّ	أىَّ يَوَمَىَّ
٢٤٠	١٧	وانجلى الزُّ بَدُ	وانجلَى الزَّبَدُ
٢٤٤	٨	إنّ العَدُوّ	إنِ العَدُوُّ
٢٤٧	٥	بيد أن معناها	بيد أن مبناها
٢٥١	٤	سخاب	سحاب

فهرس الجـــزء الثانى

من الذخائر والعبقريات

عبقريات شتّى

تندرج فى الأبواب السابقة

طائفة من عبقرياتهم فى التعازى

عبقرياتهم فى الطب والمرض وعيادة المرضى

الباب الرابع فى كتمان السر وإفشائه

وعبقرياتهم فى ذلك وفيما يجرى هذا المجرى

من الشورى والاستبداد بالرأى والنصح والأناة والعجلة

عبقرياتهم فى الوعظ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

الباب الخامس

فى الحلم وكظم الغيظ والعفو والغضب والانتقام وما إلى هذه المعانى

طائفة من عبقرياتهم

فى الناس وما جبل عليه السواد الأعظم
من الحقد والحسد وسوء الظن والشماتة وما جرى هذا المجرى

الباب السادس

فى التواضع والكبر وما إليهما

الباب السابع

فى الشجاعة وعبقرياتهم فيها

وفى الصبر فى القتال وسائر مايتصل بالحرب

